سلسلة آباء الكنيسة

يوحنا السليمي

السلّم

إلى الله

تعريب

رهبنة دير مار جرجس الحرف

http://coptic-treasures.com

سلسلة آباء الكنيسة

يوحنا السلمي

السُّلَّم

إلى الله

تعريب

راهبة دير مار جرجس الحرف

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

فهرس

		صفحة
تقديم		٧
مقدمة		١١
المقالة الاولى	: في الزهد في هذا العالم الباطل واعتزاله	٢٧
المقالة الثانية	: في التخلي عن كل شيء	٣٣
المقالة الثالثة	: في الغربة	٣٧
المقالة الرابعة	: في الطاعة المغبوطة الدائمة الذكر	٤١
المقالة الخامسة	: في التوبة الدائبة المتواصلة الظاهرة جليا في سيرة الرهبان المعاقبين الابرار وفي السجن المخصص لها	٦١
المقالة السادسة	: في ذكر الموت	٦٩
المقالة السابعة	: في النوح الحامل الفرح	٧٣
المقالة الثامنة	: في الوداعة وعدم الغيظ	٨١
المقالة التاسعة	: في الحقد	٨٥
المقالة العاشرة	: في الوقيعة	٨٧
المقالة الحادية عشرة	: في اكثار الكلام وفي الصمت	٨٩
المقالة الثانية عشرة	: في الكذب	٩١
المقالة الثالثة عشرة	: في الضجر	٩٣
المقالة الرابعة عشرة	: في الشره السيد الكثير الاذى والمستحب عند الجميع	٩٥
المقالة الخامسة عشرة	: في الطهارة والعفة العديمة البلى الحاصلة في البالين من جراء اتعابهم واعراقهم	٩٩
المقالة السادسة عشرة	: في حب المال	١٠٩
المقالة السابعة عشرة	: في الزهد في المقتنيات	١١١
المقالة الثامنة عشرة	: في عدم الحس وهو موت النفس والروح قبل موت الجسد	١١٣
المقالة التاسعة عشرة	: في النوم والصلاة والترتيل مع الاخوة	١١٥
المقالة العشرون	: في سهر الجسد وفي كيفية ممارسته للبلوغ الى سهر الروح	١١٧

http://coptic-treasures.com

صفحة

المقالة الحادية والعشرون : في الجبن الصبياني العديم الرجولة ١١٩

المقالة الثانية والعشرون : في العجب الكثير الاشكال ١٢١

المقالة الثالثة والعشرون : في الكبرياء الغبية وفي افكار التجديف التي لا يباح بها ١٢٥

ملحق للمقالة الثالثة والعشرين : في افكار التجديف التي لا يباح بها ١٢٩

المقالة الرابعة والعشرون : في الوداعة والبساطة والبراءة المكتسبة غير الفطرية ، وفي الخبث ١٣١

المقالة الخامسة والعشرون : في التواضع الجليل مبيد الاهواء ، بصورة خفية ١٣٥

المقالة السادسة والعشرون : في تمييز الافكار والاهواء والفضائل ١٤٣

المقالة السادسة والعشرون : القسم الثاني : فصل في صواب التمييز ١٥٥

المقالة السادسة والعشرون : القسم الثالث : مراجعة وجيزة لكل المقالات السابقة ١٦٥

المقالة السابعة والعشرون : في الهدوء المقدس ، الجسدي والنفسي ١٦٩

المقالة الثامنة والعشرون : في الصلاة المقدسة المغبوطة ام الفضائل وفي القيام بها بالعقل والجسد ١٧٩

المقالة التاسعة والعشرون : في اللاهوى وهو الكمال المتشبه بالله ، السماء الارضية وقيامة النفس قبل القيامة العامة ١٨٥

المقالة الثلاثون : في رباط الثالوث الفريد بين الفضائل ، اعني المحبة والرجاء والايمان ١٨٩

http://coptic-treasures.com

تقديـــم

هذا الكتاب ليس « للمطالعة » .

فان اردنا ان « نفتحه » حقا ، ونتيح له بالتالي ان ينقل الينا ويبث فينا مقاله ، وجب علينا ان نجد امامه موقفا آخر غير الموقف الذي يتخذه عادة اي قارىء ، وفي اي يوم ، امام اية ورقة من الاوراق المطبوعة في العالم . وتوضيحا لذلك فلنفكر قليـــلا في ما يجري في الواقع حين نطالع . اني انا الشخص الحي الحاكم بتصرفاتي اتناول شيئا (يدعى « كتابا ») لا يخلو من الغرابة : انه شيء جامد ، « ميت » اذا شئتم ، وانا اسود عليه (كوني استطيع طرحه جانبا او تمزيقه في اي وقت ، او بالعكس استبقاءه بقربي لقراءته باستمرار) ، وهو في الوقت نفسه يفوقني سعة وديمومة بما لا يحـــد (كونه يحوي افكارا واقوالا لعلها عبرت قرونا قبل ان تصل الي وقد تتابع طريقهـــا بعدي الى ازمنة تتجاوز كثيرا الزمن الذي اغلق فيه على ذاتي في احيان كثيرة) . و « المطالعة » عادة ليست عملا كثير الشجاعة ولا كثير الوعي ، ذلك ربما لان هناك كتبا ليست كسائر الكتب وكأنها تأتي من « عالم آخر » ونحس بأنها قد تحملنا ايضا الى ذلك العالم الآخر اذا قبلنا ان ننقاد لها . وحينئذ فنحن نظن (بوعي منا او بغير وعي) اننا انما « نحتمي » عن طريق المطالعة من خلال نوع من « مصفاة » لا توصل الينا الا ما يرضينا فقط : اعني المعلومات المفيدة او الظـــريفة ، او بعض الحالات والمشاعر العابرة (كاللذة والغضب وغيرهما) ، وبكلمة واحدة لا تنقل الي الا ما استطيع حفظه بدون مشقة وبدون التعرض لأن تضطرم نفسي في وتلتهب .

ذلك ان الكتاب الذي بين ايدينا يحمل نارا . كيف ذلك ؟ ان النار لا تضبط في اليد اذ ليس مكانها في اليد . ولكن ، على غرار الطبيعة البيولوجيـــة التي تحيـــا بفعل النار الداخلية التي ينقلها الدم ، كذلك واكثر فان كياننا العميق ، كيان الروح والحق ، لا يحيا الا اذا ابقى قلبه مشتعلا . والقلب المشتعل شوقا يستطيع وحـــده ان يعيش المغامرة التي يرويها لنا كتاب « السلم » للقديس يوحنا السلمي . قلت « مغامرة » : اي مسيرة ، سعي حثيث لا يتعب ، دون التماس اية مكافأة ، وبغير دافع اية حاجة ، بل في مجانية الشوق : « شوق الله » في معناه المضاعف الذي كثيرا ما يخفى علينا ، اعني شوق الانسان الى الله وشوق الله الى الانسان ، اعلم الانسان ذلك ام لم يعلم . ولعل القديس يوحنا اختار صورة السلم ورمزها نسبـــة لمسيرة الشوق السرية هذه ، الصاعدة والنازلة ، حاملة الله الى الانسان وآخـــذة الانسان

http://coptic-treasures.com

الى الله وفي الله . وبالتالي يتخذ سعيه ، بل مغامرته ، معنى « صعود » و « ارتقاء » يوحي به قرب جبل سيناء ، وهو الرمز القوي للارتقاء في التقليد الابراهيمي كله . ولكن القمم (واللجج ايضا) التي يتسلقها او يتفحصها في سياق كتابه تظل اعلى واعمق بغير قياس من قمم الكرة الارضية ولججها المنظورة ، وارهب منها ايضا ، حتى ولو كانت هذه ذات حرمة : لأن الأمر هنا يتعلق بصعود داخلي رهيب ينطلق من التخوم المعتمة الليلية في كيان الانسان ويبلغ به (١) ، عبر موت لا بد لكل نفس ان تذوقه ، الى صفاء قيامة هي بمثابة استباق للقيامة العامة .

ان اولئك المغامرين سعيا وراء حقيقة الانسان الاخيرة دعوا (بضم الدال) «رهبانا» وعاشوا على هامش عالم كانت الكنيسة قد توقفت فيه ، بعد ان بشرت بجنون محبة الله المصلوب ، فاستوطنت واستقرت في مدن الدنيا وسهولها . ولذا تابعوا وحدهم ارتقاء « الجبل » الذي كان قد خفي عليها — مع ان الواقع المنظور منسوج منه . وكان القديس يوحنا السلمي احد الأعظمين فيهم ، اذ اعطي ان يكون بمثابة « مرحلة » جديدة في تاريخ الرهبانية . فبعد ان نبع التيار الرهباني واندفع بقوة في القرن الرابع والخامس والسادس في مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى عاد فانعطف الى جبل سيناء ابتداء من القرنين السادس والسابع ، وهو الوقت الذي حرر فيه هذا الكتاب بمنزلة « مجموعة » شاملة وحافلة بالخبرة الروحية فهيأ الاتجاهات الجديدة التي كان ذلك التيار الرهباني مزمعا ان يتخذها تحت سموات اخرى وعبر قرون اخرى من قرون التاريخ والحضارة .

من جهة ثانية فان الحقبة التي عاش فيها القديس السلمي (وهو امر بليغ يجب ان لا يغفل عنه) هي الحقبة التي شهدت ظهور التراث الاسلامي الجديد الذي يعتمد فيما يعتمد لتكريم الايمان المسيحي ان بين النصارى « رهبانا وانهم لا يستكبرون » (٢). ونحن نرى دير القديسة كاترينا في سيناء ، الذي نسجت منه حياة السلمي وكتاباته ، موضوع احترام المسلمين وحمايتهم منذ تأسيسه والى يومنا هذا دون انقطاع .

ولكن الدخول في العالم الناري الذي ترسمه اقوال « سلم الفردوس » لا يقتصر اطلاقا على ذكر الماضي التاريخي بل ان ذهنا « عصريا » حقا (ونعني به فكرا قادرا ان يتخذ على عاتقه نوع القلق والتساؤل والترقب الذي يتسم به زماننا اليوم اكثر مما يتسم بروح التسلية الرخيصة والتلهي) سوف ينذهل ولا شك امام طابع « الآنية » (بتشديد الياء) actualité المستمرة الى الآن والمنفتحة ابدا على المستقبل ، التي تميز كتاب السلم ، وامام الخبرة التي يحويها . لقد سبق لنا ان المحنا الى الشوق الذي يدمغ بدمغته النارية كل تراث القديس السلمي ، واليكم الآن قولا آخر من السلم ليس جماله الأدبي سوى « شرقطة » حقيقية معاشة : « من هو يا ترى الراهب الأمين الحكيم ؟ هو من يحفظ غيرته متقدة الى النهاية ولا يزال حتى الممات يزيد كل يوم على ناره نارا وعلى اضطرامه اضطراما وعلى شوقه شوقا وعلى همته ونشاطه همة ونشاطا دون انقطاع » (٣) . ان الفكر البشري لم يبدأ الا منذ امد قريب بطرح مسألة الشوق على بساط البحث ، وقد اصبحت هذه المسألة اليوم تهيمن على كل العلوم الفلسفية والانسانية . لقد قال احد الكتاب المعاصرين : « ليس الانسان ابنا للضرورة بل هو ابن للشوق » . وبتعبير آخر ان التعمق في سر الشوق عند الانسان هو استعادة لحريته المعجزة . والقديس السلمي ، كما رأينا ، يتكلم عن دافع الشوق وليس عن

---

(١) في المقالة ٢٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨٥ .

(٣) المقالة الاولى العدد ٢٧ .

http://coptic-treasures.com

دافع الضرورة او « الحاجة » . نحن نستطيع ان نشعر بالاحتياج الى امور كثيرة ، كما نستطيع ان نصطنع لانفسنا حاجات اخرى غيرها (اليست هذه غايه نظام « الاستهلاك فالانتاج » ؟) . وقد نصير ايضا عبيدا لتلك الحاجات الوهمية ، وسعداء لعبوديتنا لها ، دون ان نعي ذلك . اما الشوق فيبقى العلامة الصادقة للحرية الحقيقية التي لا تتوقف عن المسير ابدا ولا تكتفي بأية سلعة فانية ، ولا تتطلع ، سواء بصورة واضحة او مبهمة ، الا الى وليمة الحب الاخير : « لقد جرحت نفسي ايها الحب ولا اقوى على ضبط لهيبك ولذلك سأجري مسبحا اياك » (٤) .

ولكن هذا الشوق الذي يشعله في (بتشديد الياء) الحب الالهي ثم يرويه ثم يشعله من جديد .. لن اعيشه حقيقة إلا اذا ادركت انه يشمل « الآخر » ايضا ، اعني القريب الذي يختلف عني ، ايا كان هذا الاختلاف (في اللغة او الاصل او الدين او الراي) . والا اكون عرضة لاستبدال حقيقة الحب الحي الاولى والاخيرة باله وهمي و « قريب » وهمي و « ذات » وهمية ، وذلك حسب التعابير والمفاهيم الحديثة التي يفكر بموجبها يوحنا السلمي بما يثير العجب (ولكن هل من داع حقيقي للعجب ؟) : « من يقول انه يحب الرب ويغضب على اخيه هو كمن يركض في نومه » (٥) .

والآن ، بعد هذا التقديم السريع ، اظننا نتبين المنزلة الخاصة التي يحتلها هذا المؤلف الذي هو « كلاسيكي » في الادب الصوفي العالمي و « عصري » بتحاليله النفسانية الدقيقة ووصفه للحالات القصوى ، ويحمل في الوقت نفسه تباشير مستقبل آت نحونا باستمرار قد سبق واستقبله الذين عرفوا ان وجه الله المحبة لا يزول . فهذه الترجمة العربية ، التي تمخض بها طويلا ، هي ايضا ، فنضجت وتبلورت حيث تلتقي اللغة العربية بمسيرة التقليد الروحي الذي يشهد به القديس السلمي ، اذا جاز القول ، تود بكل بساطة ان تكون بمثابة شوط آخر في تلك المسيرة ودعوة الى شركة جديدة تقوم على الاصغاء والاطمئنان والحمد .

... وما عدا هذا فسوف يزاد لمن لن « يطالع » هذا الكتاب بقدر ما سيتلمسه ويتعرف عليه من خلال النار التي لا تزال تلتهب بها حروفه .

دير الحرف ــ نيسان ١٩٧٩ — اندريه سكريما

---

(٤) المقالة الثلاثون العدد ٣٦ . ان نشر هذه الترجمة العربية الكاملة لكتاب السلم يتيح لنا ان ننوه بالايحاءات الخفية ، والفصيحة الى ابعد حد ، التي تحفل بها اللغة العربية القادرة ان تنقل ما قيل منذ البدء (في « اصل » اللغة) وما لا يزال يقال منذئذ ، واقصد هنا ارتباط « الكلام » « بالكلوم » (بالجراح) في سر واحد (« جرحت قلبي ولذلك اسبحك ») .

(٥) المقالة الثلاثون العدد ٢٧ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

مقدمـــة

١ ــ القديس يوحنا السلمي

● لا يعرف الشيء الكثير عن القديس يوحنا السيناني كاتب « السلم » والمكنى في التقليد النسكي بـــ « السلمي » او « الدرجي » (كليماكوس) . وجل ما يعرف عنه يقتبس من كتابه . (١)

● حداثته مجهولة لدينا سوى ان لقب « العلامة » الذي لقب به وهو على قيد الحياة يفترض تحصيلا ثقافيا واسعا (٢) ، يدل عليه غنى تشابيهه وغزارة مفرداته .

● في السادسة عشرة من عمره تتلمذ للأب مرتيريوس احد شيوخ دير جبل سيناء (٣) . وفي يوم ترهبه قال عنه شيخ يدعى ستراتيجيوس انه سيضحي « احد انوار العالم » . وتنبأ عنه يوحنا الساباوي وانستاسيوس رئيس ديـــر جبل سيناء آنذاك (٤) بأنه سوف يصبح رئيسا للدير .

● في سن العشرين (٥) اعتزل متوحدا في بادية « تولا » (٦) على بعد خمسة اميال من الدير ، وكان مرشده قد رقد بالرب . ولعله اتخذ عند ذاك مرشدا آخر هو جرجي الارسلايتي (٧) .

---

(١) لقد كتب سيرته راهب معاصر له يدعى دانيال من دير « ريثو » الذي كان يقع على الارجح قرب دير سيناء . وهذه « السيرة » غالبا ما ترد في مستهل مخطوطات « السلم » . ولكنها سيرة « تقوية » ولا تحتوي الا على القليل من المعلومات التاريخية والثابتة عن القديس ، وتجهل حتى مسقط راسه ، وتغفل عن ذكر تاريخ ميلاده ووفاته . وهذا ينطبق ايضا على ما كتبه عن السلمي راهب سيناني يدعى اثناسيوس في « اخباره » عن آباء دير سيناء . وليس من مرجع مباشر اخر عن حياة القديس سوى هذين المرجعين .

(٢) والارجح انه اكتسب هذه الثقافة من خلال مطالعاته الكثيرة وبعض اسفاره وليس من مهنة مارسها قبل ترهبه .

(٣) لقد عرف هذا الدير على التوالي باسم السيدة العذراء ثم التجلي واخيرا بدير القديسة كاترينا ، وقد انشاه الملك يوستنيانوس في القرن السادس .

(٤) وقد اصبح فيما بعد بطريركا لكنيسة انطاكية .

(٥) وبحسب راي آخر في سن الخامسة والثلاثين .

(٦) على سفح جبل سيناء وقد وصف بموقع ذي جمال طبيعي خلاب (وقد يكون اسمها بادية « تلاع » ؟) .

(٧) انظر المقالة ٢٧ : ٥٧ .

http://coptic-treasures.com

● قضى اربعين سنة في خلوته في تولا ، مجاهدا جهاد التوبة والصلاة ، ومختبرا فنون الحرب اللامنظورة وحلاوة مناجاة الله . عرف مثلا خداع الشياطين في امر الدموع الكاذبة والفرح الكاذب (انظر المقالة ١٥ : ٤٢ و ٧ : ٤٨ و ٥٧) ، وجرب (بضم الجيم) بترك وحدته من جراء الضجر ولكنه ثبت فيها بفضل تطويب زائريه له (٢٧ : ٤٤) ، واكتسب موهبة الصلاة الدائمة ومحادثة الملائكة (٢٧ : ٤٧) .

● واثناء مدة الاربعين سنة هذه (على الاغلب) قام برحلة الى مصر زار خلالها ديرا في منطقة الاسكندرية وهو يذكره مطولا في المقالتين الرابعة والخامسة ، لا سيما « الدير السجن » الرهيب التابع له والخاص بالرهبان المذنبين والتائبين والذي يصفه يوحنا وكأنه من عالم الخيال مع انه حقيقة .

● وكان في خلوته يستقبل من يأتونه للاسترشاد من رهبان وعلمانيين (٧ : ٥٤ و ١٥ : ٦٠) ويزور المرضى المتوحدين متفقدا (٢٦ : ١٢٣) . وقد شفى راهبا اسمه اسحق من تجربة شيطانية مزمنة (وردت في سيرة دانيال) وانقذ تلميذه موسى من الموت (٨) .

● وبسبب هذا النشاط قام بعض الرهبان عن حسد وغيرة بنعته بالثرثار ، فصمت صمتا كليا مدة سنة كاملة الى ان عاد ثالبوه وتوسلوا اليه ان يتكلم لأجل خلاص النفوس .

● في نهاية الاربعين سنة التي قضاها متوحدا انتخب رئيسا لدير جبل سيناء . وبحسب رواية انستاسيوس السيناني حضر النبي موسى بنفسه لدى تنصيبه وصار يخدم الضيوف . وقد بدا يوحنا في هذه الرؤيا كموسى جديد يتشفع فينزل المطر في زمان الجفاف .

● طلب اليه الآب يوحنا رئيس دير ريثو ان يكتب « الالواح الروحية للناموس الجديد » لمنفعة الرهبان فأجاب طلبه . ويستنتج من رسالة الآب يوحنا ريثو ان القديس يوحنا كتب « السلم » وهو شيخ متقدم في السن .

● لا يعرف بالضبط مقدار الزمن الذي تولى فيه القديس يوحنا رئاسة دير جبل سيناء (٩) . ولكنه استقال من الرئاسة ليعود الى خلوته قبل وفاته . فخلفه في الرئاسة اخوه جورج الذي كان من رهبان الدير .

● تعيد له الكنيسة الارثوذكسية في ٣٠ آذار ، يوم وفاته ، وفي الاحد الرابع من الصوم الكبير .

● اما حقبة الزمن التي عاش خلالها القديس السلمي فكان من المقبول عامة انه عاش بين عامي ٥٢٥ و ٦٠٠ على وجه التقريب . ولكن احد العلماء طلع في بداية هذا القرن بنظرية جديدة استنادا الى بعض الاستنتاجات من « اخبار انستاسيوس » تقول بان السلمي عاش بين عامي ٥٧٩ و ٦٤٨ . الا ان هذه النظرية لم تحظ بالقبول التام لدى العلماء لأنها مبنية على استنتاجات غير ثابتة . ولكن ما يجعلها غير بعيدة عن الواقع ان يوحنا موسخوس كاتب « المرج الروحي » زار جبل سيناء بين عامي ٥٨٠ و ٥٩٠ وهو لم يذكر شيئا البتة عن القديس السلمي الذي كان من المفروض ان يكون قد اشتهر في تلك الحقبة لو انه توفي عام ٦٠٠ عن ٧٥ عاما .

---

(٨) وردت الحادثة في السيرة التي كتبها الراهب دانيال على ان القديس يوحنا ارسل تلميذه موسى في خدمة ، وعند الظهيرة نام هذا في ظل صخرة كبيرة واثناء نومه سمع صوت معلمه يوقظه فقفز فورا من تحت الصخرة التي هوت حالما ابتعد . وكان يوحنا قد رأى رؤيا نبهته الى ان تلميذه في خطر فقام وصلى من اجله .

(٩) يحدده احد العلماء باربع سنوات .

http://coptic-treasures.com

● هذا ويستشف من كتابه انه كان ذا شخصية قوية حرة . لقد شاهد وسمع في حياته امورا كثيرة فيرويها ويقيمها تقييما شخصيا غير آبه بمخالفته للآراء السائدة أحيانا : « اما انا فأقول ... » (انظر مثلا المقالة ١٥ : ٦٧ و ٢٥ : ٣) . ويبدو جليا انه مطلع كل الاطلاع على احوال الناس العائشين في وسط العالم وعلى آرائهم وعاداتهم ونفسيتهم (انظر مثلا المقالة ١ : ١٥ و ٨ : ٢٥ و ١٢ : ١٤) ، وانه يعرف النفس البشرية معرفة عميقة ويحللها تحليلا دقيقا (انظر مثلا ١٥ : ٧٩ و ٢٦ : ٥٨) جديرا بعلماء النفس اليوم (١٠) (انظر مثلا المقالة ٢٧ : ١٥ و ٢٦ : ٨٩ و ١٤٢ و ٢٧ : ٢٩ الخ ...) . وهو مستعد دائما للاقرار بضعفه (انظر مثلا المقالة ١٥ : ٤٢ و ١٨ : ٥ و ٢٦ : ١٢٨) . ويصورة عامة يستنتج من كامل مؤلفه انه متزن الشخصية سليمها يترك دائما مكانا للاعتدال ، على ما يتصف به من جد وصرامة .. مما يجعله من المعلمين الروحانيين الاكثر انسانية (انظر مثلا ٢٦ : ٢٥ و ٢٦ و ٣٢ و ٨٧ و ٩٨ و ١٠٥ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٣ و ١١١ و ١٥٥ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٧٦) .

(١٠) لقد قارن احدهم بينه وبين العالم النفساني يونغ وطريقة تحليله .

http://coptic-treasures.com

٢ ــ كتاب « السلم »

● كتب القديس يوحنا كتاب « السلم » بناء على طلب زميله الأب يوحنا رئيس دير ريثو ، كما سبق القول ، وذلك لمنفعة الرهبان . الا انه نافع لكل مسيحي يبتغي طريق الكمال (١) .

● عنوان الكتاب في الاصل اليوناني هو « السلم » وحسب (٢) ولكن الترجمات المختلفة تحمل عناوين مختلفة (مثال : سلم الصعود الالهي او السلم المقدسة او سلم الفردوس او سلم السماء ودرجات الفضائل) .

● تسمية « السلم » مستوحاة (٣) من رؤيا يعقوب (تكوين ٢٨ : ١٢ ــ ١٣) . وقد رتب القديس يوحنا في كتابه ثلاثين درجة اشارة الى سني يسوع الثلاثين قبل ظهوره للعالم (٤) . علما بأن رمز السلم يرد كثيرا في تاريخ الروحانيات على اختلافها ويعد من « المواضيع » الرئيسية في الحياة الروحية . وقد استخدمه الآباء والكتاب الروحانيون المسيحيون ، ابتداء من أورجنس خاصة ، في اشكال واطر مختلفة (٥) . وترمز السلم عندهم بصورة عامة الى مسيرة الكمال ، باعتبارها صعودا روحيا نحو الله ، او الى صليب المسيح ، باعتباره الطريق الوحيد الذي يجمع بين الارض والسماء .

● كتب كتاب « السلم » في زمن كان فيه الفتح الاسلامي موشكا ان يتسبب في انتقال قلب الحياة الرهبانية من الشرق الادنى الى جبل آثوس ، فكان ثمرة مرحلة انتقالية جمع ونظم فيها تعاليم آباء القرون الثلاثة الاولى للحياة الرهبانية والف منها مجموعة واحدة متناسقة منسجمة ، وهو يظل الى اليوم بمثابة مرجع ودليل للحياة الرهبانية « البيزنطية » .

● ذلك لأن روحانيته السينائية المتزنة قد اعتدلت بتأثير باسيليوس الكبير عن طابع العقلانية الافاغريوسية المتطرفة (٦) ، وذلك دون ان تتبنى تفضيل القديس باسيليوس لنظام الحياة الرهبانية المشتركة ، بل هي تعكس خبرة استقلال كل من حياة الشركة وحياة التوحد عن الاخرى ، مع تكميل الواحدة للأخرى ، وذلك بصفاء لا نجده عند كسيانوس مثلا . هذا فضلا عن ان السلمي لم يكتف بالبحث في بعض نواحي الحياة الروحية بل تناول وحدد بشكل متكامل ومنتظم كل مراحل الحياة النسكية والصوفية . ثم الحق السلم برسالة « الى الراعي » ضمنها (بتشديد الميم) صفات رئيس الدير وواجباته فكمل بها مؤلفه .

● والى جانب كونه مؤلفا متزنا متكاملا يمثل الى حد كبير التقليد الكنسي الذي آلت اليه الحياة الرهبانية في الكنيسة الارثوذكسية ويعد مرجعا عاما في هذا الصدد ، فان كتاب « السلم » يعد أيضا كتابا فريدا من نوعه ، نظرا لشخصية مؤلفه القوية

---

(١) من الحكمة ان لا يعمد احد الى « اتباعه » الا بارشاد اب روحي وذلك درءا لكل تهور وخطر . ويبقى صحيحا ان السلمي لم يكتب كتابه من اجل القديسين والابطال ولكن من اجل التائبين ..

(٢) غير ان بعض المخطوطات القليلة تحمل عنوان « الالواح الروحية » وفقا للعبارة الواردة في رسالة الاب يوحنا ريثو للقديس السلمي ، والتي تقابل « الواح » النبي موسى .

(٣) انظر المقالة ٣٠ : ٣٦ .

(٤) انظر الكلمة الختامية في كتاب السلم .

(٥) مثلا كسلم للفضائل او للتواضع او للمحبة او للصلاة ... تتراوح درجاتها بين ٣ و ٣٠ درجة ، وقد مثل الكثيرون العذراء مريم بتلك السلم ، وآخرون المسيح « سلمنا » الى الله .

(٦) كان لافاغريوس (القرن الخامس) تأثير كبير قبل السلمي ، وتتصف روحانيته بالعقلانية الشديدة وبتفضيل نظام حياة التوحد على الشركة ، دون اعتدال السلمي وواقعيته .

http://coptic-treasures.com

وسعة معرفته وعمق خبرته الروحية وطريقته في البحث ، متصفا ومتميزا بالانسجام والغنى معا .

● **اما قوام الكتاب ومحتواه** بصورة اجمالية فيمكن عرضه كما يلي :

ـ الدرجات الثلاث الاولى تبحث في **الزهد في العالم** ، كغربة خارجية وداخلية : المقالة ١ و ٢ و ٣ .

ـ الدرجات الاربع الاخيرة تبحث في **الاتحاد بالله** : في السكون والصلاة واللاهوى والمحبة : المقالة ٢٧ الى ٣٠ .

ـ بين الزهد في العالم والاتحاد بالله ، في الدرجات الثلاث والعشرين الباقية يتوسط السلم **الجهاد** (او « العمل » في الاصطلاح الآبائي) ،

مبتدئا بالفضائل الدعامة : الطاعة والتوبة وذكر الموت والنوح : المقالة ٤ الى ٧ ،

ومارا بمجاهدة الاهواء : من الغيظ الى الضجر ، فئة اولى : المقالة ٨ الى ١٣ (٧).

ومن الشره الى الزنى وحب المقتنيات ، فئة ثانية اكثر جسدانية : المقالة ١٤ الى ١٧ (٨) .

ومن عدم الحس الى الكبرياء ، فئة ثالثة اكثر دقة وخطرا : المقالة ١٨ الى ٢٣ (٩) .

ومنتهيا بثمرة ذلك الجهاد : الوداعة والتواضع والتمييز : المقالة ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ .

فما كان في البداية جهادا متعبا يصبح في النهاية نعمة تؤول الى حضور الروح .

● اما اسلوب السلمي ، الذي يتبع ايضا اسلوب زمانه في هذا النوع من الادب الروحي ولكنه يأتي به الى الكمال ، فهو لا يتضمن بحثا تأليفيا منتظما وفق ما نألفه او نتوقعه اليوم ، بل هو عبارة عن جمل او مقاطع قصيرة تتوالى حسب الافكار او الفضائل او الرذائل المتولدة فيما بينها . فنرى تعاريف تتلاحق وتتنوع في حقول واتجاهات مختلفة ، وجملا وجيزة ترصف الواحدة بجانب الاخرى على منوال الفسيفساء ، فضلا عن تشابيه غزيرة (انظر مثلا ٢٦ : ١٥) وآيات بشكل امثال (١٩ : ٨ و ٢٠ : ٣) ، وتمييزات دقيقة ، وحث وتحذيرات ، وقصص وذكريات للعبرة والتعليم (٤ : ٢٢) واسئلة او تساؤلات (١٥ : ٣١ و ٤٨ و ٢٦ : ١٧٢) مع قطع سياق البحث قبل استيفائه : « من يستطع ان يفهم فليفهم .. » (١٠) كل هذا في طابع شخصي وشيء من السخرية ، احيانا كثيرة ، يختلف عن طابع الكتب التقوية (انظر مثلا ١٧ : ٧ و ١٨ : ٣ و ٢٣ : ١٦) . ولا شك ان كتاب السلم هو من روائع الادب الروحي يمتاز بالدقة والظرافة والاقتضاب .

● اما فيما يتعلق بمصادر السلمي فقد كتب أحدهم ان كتاب السلم هو احد الكتب الروحية الاكثر فرادة (١١) . صحيح ان السلمي يغرف من التقليد الآبائي الذي هو متشبع منه ولكنه ، كما ذكرنا آنفا ، يبحث مواضيعه بصورة جد شخصية حتى انه يندر جدا ان نجد في مؤلفه اي ارتباط ادبي مباشر مع مؤلف آخر . اما الآباء

---

(٧) الغيظ والحقد والوقيعة واكثار الكلام والكذب والضجر .

(٨) الشره والزنى وحب المال والتعلق بالمقتنيات .

(٩) عدم الحس والنوم والجبن والعجب والكبرياء .

(١٠) وكان القديس يوحنا يتقصد الابهام وعدم الوضوح التام مرات كثيرة محافظا على وجه « سرية » المسيرة الى الله ، اذ لا يستطيع ان يعرض الامر دائما كشيء جلي واحد متساو للجميع لئلا يتوهم البعض انهم ادركوا اللامدرك ... هذا الى جانب معرفته لحدود فهمه ووقوفه عندها (انظر مثلا ١ : ١٤ و ١٥ : ٢٨ و ٣٢ و ٢٥ : ٥ و ٢٦ : ٢٧ و ٣٩ و ٢٧ : ٣٢) .

(١١) يكتب القديس السلمي نفسه في رسالته « الى الراعي » انه لا يليق بالمعلم ان يعلم استنادا الى مؤلفات الآخرين ، ولا شك في انه يتقيد بذلك الى حد بعيد .

http://coptic-treasures.com

الذين يرجع اليهم فهو في كتابه يذكر منهم كسيانوس وافاغريوس (١٢) وغريغوريوس اللاهوتي . ولكن بعض الابحاث الاخيرة قد بينت انه يرتبط ايضا بديادوخوس الفوتيكي (١٣) ، وبصورة خاصة بمدرسة غزة الروحية (دوروتيوس وبرصنوفيوس واسحق الاسقيطي) في الواقعية الروحية والمجال النسكي ، وايضا بمرقس الناسك .

● اخيرا ان المؤلف الذي وصل الينا تحت اسم القديس يوحنا السلمي يتضمن اولا سيرة القديس بقلم الراهب دانيال ثم رسالة الاب يوحنا رئيس دير ريثو وجواب السلمي ، ثم نص مقالات السلم الثلاثين ، ثم رسالة « الى الراعي » ، واخيرا عددا من الشروح والتعليقات يختلف بحسب المخطوطات (١٤) .

(١٢) ان السلمي يرتبط بافاغريوس في مجال وصف قتال الشياطين ومفهومي عدم الاحساس واللاهوى وعلاقة الجهاد بالمعاينة الالهية .

(١٣) فيما يتعلق بموضوع الصلاة الفريدة العبارة monologia ومفهوم « الحس الروحي » .

(١٤) ينسب قسم كبير منها للياس الكريتي والبعض ليوحنا ريثو واحد عشر شرحا للبطريرك فوتيوس الخ...

http://coptic-treasures.com

ا ــ العلمانيون والحياة الرهبانية

● لا يفرق السلمي في الاساس بين العلمانيين والرهبان . فكل من هو غير مرتبط بزواج يستطيع ان يترهب (١ : ٢) ، بل كلما ازداد المرء خطايا كلما احتاج الى سيرة التوبة بالاكثر (١ : ١٩) ، كما انه لا يلزم (بضم الياء) احد بالترهب (١ : ٣ و ٥) . فالمسيحي ، اي مسيحي ، هو من يتشبه بالمسيح قدر ما يستطاع ذلك للبشر (١ : ٤). وكل احد يستطيع ان يكون في سلام مع الله (١ : ٤١ و ٢٦ : ٨٨ و ٢٩ : ١٤) ، وصفاء اللاهوى الاخير انما يتوقف على التواضع (٢٥ : ٢٧ و ٣٠ و ٢٣ : ١٢ و ٢٦ : ١٤١).

● ولكن السيرة الرهبانية تتيح ذلك اكثر فتوفر الوسائط للتشبه بالمسيح ولتحقيق الفضائل (انظر المقالة ٢٣ : ١٥ بالنسبة لفضيلة التواضع مثلا) ، والنسك الرهباني يؤول بالنتيجة الى كمال اسمى (٢ : ٩) . علما بأن الكمال يقاس بحسب نقاوة حبنا لله وتشبهنا بمحبته ، لا بحسب كمية افعال المحبة وانتشار خبرها .

ب ــ افضلية الحياة الرهبانية

● ان افضلية الحياة الرهبانية (٢ : ٥) تتجلى في ان الرهبان هم « نور للناس » (٢٦ : ٣١) . فانهم يسهمون في خلاص العالم وجوديا باتباعهم طريق الكمال. فالراهب بمجرد اتباعه طريق الكمال هو « عامل » نقاوة وصحة في العالم . ذلك ان تاثير وجود الراهب يفعل بصورة سرية وغير منظورة في الكنيسة جسد المسيح ، وليس من حاجة لمعرفة الرهبان فائدة حياتهم ومنفعتها للكنيسة بقدر ما ليس من حاجة لمعرفة المختارين انهم قد اطعموا المسيح وسقوه في شخص المساكين (١٩:٦) (١).

● ولكن « تفوق » السيرة الرهبانية هذا يفرض على الرهبان ان لا يتركوا الملح يفسد (٢٦ : ٣١) .

ج ــ الانقطاع عن العالم

● هذا لأن الانخراط في الجندية الرهبانية يعني اتباع المسيح في العري التام (٢ : ١) وذلك بالابتعاد عن كل اهتمام آخر وتخطي الضجر ورد محاولات الشيطان الكثيرة والمتنوعة لاعادة المترهب الى العالم (٢) . وهذا القفز في النار (١ : ٩) يتم باستعمال اسلحة الصوم والسهر وانكار الذات بقيادة اب روحي يرشد ويتشفع (المقالة الاولى) .

● قد تختلف الدوافع للانقطاع عن العالم ودخول السيرة الرهبانية وقد يداخلها في البدء عوامل غير صافية كالمجد الباطل والخوف وطلب الاجر او ظروف زمنية .. الى جانب التوبة والمحبة وطلب الملكوت (١ : ٥ و ١٣) . ولكن لا عبرة للدافع الاول بل لما سيصير اليه المرء فيما بعد ، اذ يحدث احيانا ان يصبح الاولون آخرين والآخرون اولين (١ : ١٨) . ذلك لأن الزهد المثمر بالنتيجة ليس سوى الذي يتأصل

---

(١) ليس على الرهبان ان « يبشروا » وانما على العلمانيين ان « يبصروا » (٦ : ١) . والراهب السالك طريق الكمال اذا لم يقم باعمال تبشيرية منظورة لا يوبخه ضميره ، ولا يكون اطلاقا قد اخل في اتمام واجبه على اكمل وجه .

(٢) بداعي الصحة او التبشير او محبة الوالدين او القيام باعمال الرحمة او بدافع تواضع كاذب او للمجد الباطل او عبر الاحلام او افكار اليأس ..

http://coptic-treasures.com

في الايمان والرجاء والمحبة ، تلك الفضائل الالهية عينها التي تأتي بنا في نهاية المطاف الى الاتحاد بالله (المقالة ٢٦ والمقالة ٣٠) .

د ــ دعائم السيرة الرهبانية ونمطها

● ان الفضائل الاساسية التي يجب ان يبني الراهب حياته عليها هي الطاعة والتوبة وذكر الموت والنوح (المقالة الرابعة الى السابعة) . وهي بمثابة الدعائم الدائمة لسيرته بل هي « نمط » حياته . فأولئك « المطيعون » الذين يصفهم السلمي مطولا في المقالة الرابعة انما هم اناس « تائبون » ، اي انهم يعيشون باستمرار في حالة (انظر ٢٣ : ٢٤) توامها الطاعة والتوبة والنوح وذكر الموت . وبدون قلب متوجع اعمالنا كلها فاسدة زائفة (٧ : ٦٤) ، وعند وفاتنا سوف نلام فقط على عدم بكائنا (٧ : ١٠) ، والدمعة يجب ان تصبح « دمعة باطنة » (٧ : ١٢) .

● ذلك ليس لأن الله يحتاج الى ان يبكي الانسان بل بسبب وجود الخطيئة (٧ : ٤٥) . ولأن الدموع غسل للأهواء (٢٦ : ١٦٨) ، وهي اعظم من المعمودية (٧ : ٦) . ولأن النوح (أو « نخس القلب ») هو امتداد دائم نحو الله (٧ : ١) ، والحاجة القصوى لذكر الموت وكذلك الاشتياق الى الموت هما في فكر السلمي تعبير عن الامتداد الى اللافساد . ولذلك يسمي النوح « النوح الجالب الفرح » (٧ : ٤٩) .

● وبالتالي تدخل في نمط الحياة الرهبانية اتعاب التوبة ومشقاتها والاعتراف الدقيق بالخطايا (٤ : ١٢ و ٣٩) واحتمال الانتهارات القاسية .. على ان رباط الثقة والحب (٤ : ٢٦ و ٢٨) الذي يربط بين الراهب ورئيسه ، ممثلا يسوع المسيح ، هو الذي يحلل قساوة تعييراته ، وذلك في سبيل التكفير عن الخطايا فضلا عن الاصلاح والارشاد (المقالة ٤ و ٥) .

● هذا ويبقى النوح وذكر الموت موهبة من الله وهي تتبع سيرة التوبة هذه وتثبتها في اعماق القلب (المقالة ٦) .

هـ ــ مجاهدة الاهواء

● ان مجاهدة الاهواء تؤلف قلب كتاب السلم وموضوعه الرئيسي (المقالة الثامنة الى المقالة الثالثة والعشرين) وطريق التائب الى الله (٣) . فالراهب يتبنى سيرة التوبة والطاعة هذه لكيما ، انطلاقا منها ، ينكب على قهر اهوائه .

● ان الاهواء الرئيسية في نظر السلمي هي : الغيظ والضجر ، الشراهة والزنى وحب المال ، عدم الاحساس والكبرياء (٤) تتبعها اهواء اخرى ثانوية .

● ان الراهب يتبنى التوبة والطاعة كما ذكرنا اعلاه ، ولكنه حين لا يتقبل

---

(٣) ان نقاوة القلب من الاهواء هي المدخل الى « اللاهوت » ومعرفة الله ، والكلام عن الله خارجا عنها باطل . ولذا فمكافحة الاهواء هي مدرسة الرهبان وطريق تحصيلهم للاهوت (٣٠ : ١٩٩) .

(٤) يأخذ السلمي برأي « غريغوريوس اللاهوتي وغيره » الذين يجمعون بين العجب والكبرياء ، فيصبح عدد الاهواء الرئيسية سبعة بدلا من ثمانية الذي هو العدد التقليدي منذ افاغريوس (المقالة ٢٢) . ومع ذلك فان السلمي يبحث في كل من العجب والكبرياء على حدة . هذا ولا يتبنى السلمي ترتيب افاغريوس للاهواء الذي يبدأ بالشراهة ويصعد حتى الكبرياء ، لكنه يستوحي على ما يبدو ترتيبا مبنيا على تقسيم النفس الى ثلاثة « اجزاء » وواردا عند كسيانوس : الحماسة والشهوة والتفكير ، فينتج عن ذلك ثلاث فئات من الاهواء : الغيظ والضجر (مرتبطان بالحماسة) ، الشره والزنى (مرتبطان بالشهوة) ، عدم الاحساس والكبرياء (مرتبطان بالتفكير) وهي الاهواء الاساسية الستة التي يوليها السلمي اهمية رئيسية فيخصها « بمحاكمة » في نهاية كل بحث منها .

http://coptic-treasures.com

الملاحظات والانتهارات يستولي عليه الغيظ الذي يتنافى مباشرة مع سيرته . ثم من الغيظ يتولد الحقد فالوقيعة فاكثار الكلام فالكذب حتى يبلغ به الامر الى الضجر الذي هو « اثقل الاهواء كلها » (١٣ : ١١) و « موت لكل الفضائل » (١٣ : ٩) . وبالعكس اذا قاوم الغيظ وبناته والضجر يؤول به ذلك الى صمت اللسان فصمت الفكر فصمت القلب (٢٧ : ١٨) ، فينتقل الراهب تدريجيا من حالة الضيق والالم والخوف من الله الى حالة تلقائية من الفرح والرحمة . ويتم هذا في حياة الشركة (٥) بالاحتكاك اليومي مع الاخوة (المقالة ٨ الى ١٣) .

● اما الشراهة والزنى ومحبة المال (الفئة « الشهوانية » من الاهواء) فالزنى يحتل بينها ، بل في السلم كلها ، مكانة مركزية اذ هو بنحو ما نسيج طبيعتنا بعد السقوط . وتحليل السلمي له بدقة نادرة (انظر مثلا ١٥ : ٢٧ و ٧٤ و ٧٩) ، وباستفاضة ، يؤلف مثل صورة ونموذج للسلم التي نقهر على منوالها كل الاهواء : اولا بممارسة الاتعاب ثم بالاتضاع (١٥ : ١٤ و ١٥) ، واخيرا بحضور الله وبحضوره فقط (١٥ : ٧ و ٢٥ و ٢٦ : ٣٤ و ٣٥) . علما بأن جهاد العفة الصعب والجميل جدا (٦) يهدف الى استحالة طبيعة الجسد وتجليه قربانا مقدسا (٢٦ : ١٣٥) والى تحول الحب البشري الى حب الهي (١٥ : ٦٠ و ٣٠ : ١١) . وعلما ايضا بأن السلمي يعمد في خاتمة بحثه عن العفة (١٥ : ٨٧) الى نوع من « الدفاع » عن الجسد والرافة به نظرا « لالتباس » وضعه . فان الزنى ينبع من طبيعة الانسان عينها ولا يقهر بشريا بل بقوة الروح القدس . ويظهر السلمي هذا الاعتدال نفسه بالنسبة للشراهة (١٤ : ١ و ١٢) التي هي على مثال الزنى . اما حب المال والتعلق بالمقتنيات اللذان يقطعان المرء عن الله بمثابة عبادة الاوثان (١٦ : ٢ و ٣) فان التغلب عليهما يفتح الطريق نحو السماء (١٧ : ١) ويثبت الراهب ويعمقه في حالة النوح والتوبة (المقالة ١٤ الى ١٧) .

● اما اذا توانى الراهب بازاء الشراهة (٧) وتوابعها فيؤول به ذلك الى عدم الحس وهو حالة يرثى لها (١٨ : ٣) ، والى الغرور (الفئة الثالثة والاخيرة من الاهواء) . ومن مظاهر عدم الحس كثرة الميل الى النوم اثناء الصلوات الليلية والاسهار (المقالة ١٩ و ٢٠) . ويظهر ايضا الجبن والخوف الذي يستولي على الراهب المغرور وغير التائب الذي يتوخى ارضاء الناس اكثر من ارضاء الله (المقالة ٢١) . وقد ينتهي به ذلك الى الجنون في الحالات القصوى (٢١ : ٤ و ٥) . وهكذا يكون الغرور الخبيث (٢٣ : ٥ و ٢٧ : ٨٠) والكبرياء صنع الشياطين (٢٣ : ١ و ٢) علة لافساد كل ثروة الفضائل (٢٢ : ١٠ و ٢٣ : ١٣) و « للغرق في الميناء » (٢٢:٢) (المقالة ١٨ الى ٢٣) .

و ــ الاستنارة

● اذا جاهد الراهب الجهاد الحسن يصير الى حالة جديدة ، لأن المثابرة في مجاهدة الاهواء بالصبر وعلى اساس معرفة الذات (٢٥ : ٢٩) تتم شيئا فشيئا

---

(٥) ان فظاظة الاخوة تسهم في شفاء من يسعى للشفاء من الغيظ (٨ : ٢٥) ، ويتوصل المرء الى ان يتقبل الاهانات والكرامات بحال واحد على السواء (٨ : ٣) .

(٦) العفة « منافسة عجيبة للملائكة المعادمي الاجساد » (١٥ : ١) واخضاع الجسد بالكلية للنفس (١٥ : ١٠) و « سماء ارضية وبيت للمسيح محبوب جدا » (١٥ : ١) « واسم جامع لكل الفضائل » (١٥ : ٣) ومساوية للاهوى (٢٩ : ٧) ، فيحتقر هاجس الزنى في المرحلة الاخيرة احتقارا (١٥ : ١٢ و ٢٦ : ٧٩) .

(٧) الشراهة هي الطريق الواسع والرحب الذي يؤدي الى الهلاك (١٤ : ٢٩) .

http://coptic-treasures.com

فتؤدي الى نمو الراهب والى تغييره في ارتقائه نحو ملء قامة المسيح . فيتكون عنده حس روحي يميز به الايحاءات الصالحة والشريرة ويتبين مشيئة الله بيقين في كل حين وفي كل الحالات وعلى صعيدي المعرفة والعمل . وهذا الحس النير هو فضيلة التمييز بل موهبة (٨) التمييز . وهي مبنية (٢٤ : ١٠ و ٢٥ : الخاتمة) على فضائل الوداعة والبساطة والبراءة والتواضع التي تتوج جهاد الراهب ضد الاهواء (٩) وتملأه من روح التطويبات الانجيلية الجليلة بقدر ما كان العجب والكبرياء (العدوان الاخيران) يفسدان كل مسلكه (المقالة ١٤ الى ٢٦) .

● ان هذه الحالة الجديدة المفعمة بالمعرفة والنور بعيدة عن متناول الشيطان وبعيدة حتى عن الاستقصاء . فالتواضع فضيلة خفية (٢٥ : ٣ و ٤١) تفوق الادراك لا نتبينها الا من ثمارها (٢٥ : ٢٥) (١٠) ، وذلك على اختلاف مراحلها (٢٥ : ٤) . وهي في ذلك على شبه الله نفسه . انها بالفعل تشبه بالمسيح (٢٤ : ٦ والخاتمة) وباب للمحبة (٢٤ : ٥) وقرينة لها (٢٥ : ٣٧) وباب للملكوت (٢٥ : ٣٠) وام المواهب السامية (٢٥ : ١٤ و ١٦ و ٣٦ و ٥٢) بل دلالة الى الاتحاد بالله وسكناه فينا (٢٤ : ٥ و ٢٥ : ٣) .

ز — الاتحاد بالله

● ان الدرجات الاربع الاخيرة في السلم الى الله : السكون (او الهدوء) والصلاة واللاهوى والمحبة (المقالة ٢٧ الى ٣٠) تكاد تقوم الواحدة مكان الاخرى (٢٧ : ٦٢ و ٨٧ و ٣٠ : ٩) ، ذلك لأن « السكون » ليس هو « سيرة » عزلة وتوحد وحسب بل هو ايضا ، وبالضرورة ، « وضع » داخلي ، « وقوف دائم في حضرة الله » (٢٩ : ٣ و ٢٧ : ٦٦) . انه استنارة ومعرفة ولكنه ايضا حالة (٢٧ : ٤ و ٧٩) . وهذه الحالة هي حصيلة اعمال وحياة لا حصيلة كلام (٢٧ : ١١ و ٣٠ : ٢١ و ٢٣ و ٢٤) . لأن اساس معرفة الله انما هو « كمال الطهارة » (٣٠ : ٢٠) . ولذلك فدخول « سيرة السكون » قبل الاوان محفوف بالخطر وعواقبه وخيمة (٢٧ : ١٣ و ١٤ و ٣٦ و ٥٥) . الدوافع اليه مختلفة (٢٧ : ٢٩) ولكن المقياس الاخير هو العطش الى حب الله (٢٧ : ١٦ و ١٧ و ٢٨ و ٢٩) .

● ان سكون التوحد سماء داخلية تعبر بالانسان الى سلام الحياة الابدية . انه يحقق منذ الآن الحياة الملائكية والقيامة (٢٧ : ٢٨ و ٢٩ : ٣ و ٣٠ : ١٩ و ٣٥) . لا مكان فيه للغضب او العجب او الحقد (٢٧ : ٣٦) . الاهواء فيه تتلاشى وكلمات الصلاة تتبسط (٢٨ : ٩) وتقل (٢٨ : ١٠) ، ويقظة العقل والقلب التي لا بد من استمرارها بشجاعة (٢٧ : ٣ و ٦ و ٢٣ : ٢٦) تتراجع امام النور الالهي ونار الحب الالهية (٢٧ : ١٦ و ٢٨ : ٥١) اللذين يجتاحان النفس فتتجدد الى ما لا نهاية (٢٧ : ٢٨ و ٢٩ : ٥) . ولكن ينبغي دوام الانتباه للبقاء في هذه الحالة بلا انقطاع « كما يرصد الهر الفأرة » (٢٧ : ٧) ، في احساس قلبي بحضور الله ، في الايمان (٢٨ : ٢٦) ومخافة الدينونة والصبر (٢٧ : ٧٠) مع رصد التجارب بمعرفة واستمرار .

---

(٨) ان النعمة والطبيعة تشتركان معا في تغيير الانسان ونموه في الله سريا .

(٩) ان البساطة المطعمة من الخبث بالاتعاب افضل من البساطة الفطرية (٢٤ : ٢٥) .

(١٠) وهي معرفة الذات عند المبتدئين ، ومعرفة المشيئة الالهية عند المتقدمين ، والاستنارة ومعرفة الآخرين عند الكاملين : المراحل المختلفة لفضيلة التمييز (٢٦ : ١ و ٩٦ و ١٠٠ و ١١٠ و ١١٦ و ١١٧ و ١٣٧ و ١٦٣) .

http://coptic-treasures.com

● اما الصلاة ــ الصلاة « النقية » (١١) ــ فيعلمنا اياها الله (٢٨ : ٦٤ و ٢١) وينطق بها الروح فينا . مع العلم بأنها تهيء طريقها بنفسها . تمس القلب كلمة فيدوم فيها ما دام الاضطرام وما دامت العبرات (٢٨ : ٤٩) او ما دام ملاكنا الحارس يصلي معنا (٢٨ : ١١) . وتستمر الصلاة احيانا اثناء النوم (٢٠ : ٢٠) . هذا ويشترك الجسد نفسه في الصلاة (٢٨ : ٢٤) بعد ان يكون قد تجلى بالمحبة والافخارستيا . واخيرا كما يحمل الطفل بين ذراعي امه وكما يتأمل العاشق وجه معشوقه (٣٠ : ١٢ و ١٣) هكذا يتوغل الساكن المتوحد في حب الله ، تلك اللجة من الاستنارة الالهية التي لا تنضب (٢٦ : ١٥٣) .

د ــ الخلاصة

● ان « التشبه بالمسيح » الذي عرف به القديس السلمي الانسان المسيحي في المقالة الاولى ينتهي به في المقالة الثلاثين الى المحبة التي انما هي « التشبه بالله على قدر ما يتيسر هذا للبشر » (٣٠ : ٧) : بين هذين التعريفين يقوم كل تعليم السلمي . وهذا الجهاد المتكامل الذي استعرضناه بسرعة هو اشتراك في موت المسيح وفي قيامته في آن واحد . ولذا يجعل السلمي ذكر الموت صنوا للصلاة « كطبيعتين لأقنوم واحد » (٢٨ : ٤٦) . وهذا الاشتراك في موت المسيح هو الذي يفسر تلك القساوة التي تميز تعليم السلمي والتي تكاد تبدو عادمة الانسانية للوهلة الاولى .

● ولكنه جدير بالملاحظة ان السلمي ، حيثما يقتضي ، يرجح اخلاص القلب على صرامة اتعاب الجسد ، وذلك احيانا خلافا للتقليد الاكثر وقارا (انظر ٢٥ : ١٤ في موضوع الطاعة ، و ٢٢ : ٣٢ في موضوع نوال المواهب و ١٤ : ١ و ١٢ في موضوع الشراهة و ٢٣ : ٤٥ و ٤٦ في موضوع التجديف ..) . وهو في كل مناسبة يذكر بوجوب التمييز (١٢) والرجوع الى موقف القلب .

● ولذا يتكلم عن ذكر يسوع الذي « يلتصق بالنفس » (بفتح الفاء) (٢٧ : ٦١) والذي ليس من سلاح اقوى منه في السماء وعلى الارض (٢١ : ٧) مما سيؤول الى « صلاة يسوع » في روحانية جبل آثوس . وذلك تحررا من بلبلة كثرة الافكار وطلبا لملء داخلي وتوحيد كامل لقوى النفس في خدمة المحبة ويفعل المحبة في اتجاه الكيان نحو الله بصبر وثبات .

● هذا وان درجات السلم ليست مراحل نجتازها ونتخطاها بل يبقى توجع القلب الى النهاية (٢٧ : ٢٠ و ٦٩ و ٢٨ : ٨ و ١٣ و ١٤ و ٤٦) مجتمعا مع الاستنارة كاجتماع الناسوت واللاهوت في يسوع المسيح . وذلك ليس كعقدة ذنب بل تعبيرا عن الوعي بعجز الانسان وحاجته الى الله وسعيا وراء تغييره وتأليهه عن طريق مقارعة الموت الممتزج بالطبيعة البشرية .

---

(١١) انظر ١٧ : ٤ و ١٦ : ٧ و ١٩ : ٦ و ٢٨ : ١٦ و ٢١ و ٤٢ و ٥٩ .

(١٢) ليس من باب سلوك « حل وسط » تافه وانما لعدم مطالبة المرء باكثر مما يطالبه به الله ولعدم القيام بأمر قبل اوانه مع ضرورة القيام بكل ما يطلبه الله . وهكذا يستثمر المرء كل طاقته ويتقدم باستمرار ...

http://coptic-treasures.com

٤ ــ مدى انتشار كتاب السلمي وتأثيره في الشرق والغرب

● ان كتاب السلم من اكثر الكتب التي نسخت في العالم . وعدد مخطوطاته في اللغات المختلفة التي ترجم اليها ضخم يعسر حصره . ولذا على ما يبدو لم تظهر حتى اليوم اية دراسة عنها (عن عددها وتصنيفها ومواصفاتها وقيمتها العلمية) .

● لقد ترجمت « السلم » منذ القرن السابع من اصلها اليوناني الى اللغة السريانية وترجمت الى العربية منذ عام ٩٠١ (١) والى الارمنية في القرن العاشر (٢) والى السلافية في القرن الثاني عشر (٣) . هذا الى جانب الترجمات الى الرومانية والصربية (٤) واليونانية الحديثة (٥) وغيرها .

● اما الغرب فلم يكتشف « السلم » الا في بداية القرن الرابع عشر (٦) . ثم تتالت الترجمات الى اللغات الايطالية والبرتغالية والاسبانية (٧) والفرنسية (٨) والانكليزية (٩) والالمانية .

● اما تاثير السلمي فهو جلي اولا في نمو مذهب « السكون » في التوحد hésychasme . ففي جبل سيناء نرى هيسيخيوس يقتبس من السلم موضوعي « اليقظة » الروحية ، والصلاة المفرده العبارة ، ويتوسع فيهما . كما نرى فيلوثيوس يتناول موضوع حفظ القلب ويتعمق فيه . ثم نرى القديس سمعان اللاهوتي الحديث يتجه بتاثير السلم اتجاها روحيا مختلفا عن اتجاه القديس ثيودوروس الاسطوديتي السائد في القسطنطينية في القرن العاشر والمبني على تفضيل القديس باسيليوس الكبير للحياة الديرية المشتركة على حياة التوحد (١٠) . ثم عند قيام الجدل المشهور حول مذهب « السكون » في القرن الرابع عشر نرى انصار القديس غريغوريوس بالاماس يستشهدون بالسلمي بمثابة مرجع . وكان القديس غريغوريوس السينائي الذي ادخل مذهب السكون الى جبل آثوس قد اوصى بمطالعة السلمي ، والقديس مرقس

---

(١) وهي ترجمة جزئية تبعتها ترجمات غيرها كاملة وكثيرة جدا (ان اقدم مخطوطة كاملة معروفة باللغة العربية لكتاب السلم تعود للقرن الثالث عشر) . ولكن كتاب السلم لم يطبع بالعربية الا عام ١٩٣١ في ملخص مختصر للشيخ الصفي بن العسال (المتوفي قبل عام ١٢٦٠) وقد اعيد طبعه عام ١٩٤٦ ثم عام ١٩٧٣ في القاهرة (مكتبة الانبا رويس) بعنوان « سلم السماء ودرجات الفضائل » وهو يقع في تسعين صفحة من القياس الصغير (١٦ × ١١ سم) .

(٢) هناك خمس ترجمات ارمنية للسلم قبل انتهاء القرن الثامن عشر .

(٣) هناك ثلاث ترجمات الى اللغة الروسية منذ القرن السابع عشر وقد طبعت اقدمها عدة مرات .

(٤) منها ترجمتان اخيرتان عام ١٩٣٢ وعام ١٩٦٣ .

(٥) وذلك منذ القرن السادس عشر مما يدل على انتشار « السلم » في الاوساط الشعبية . مع العلم بان هناك طبعات جديدة في اللغة اليونانية الاصلية (عام ١٩٥٩ وعام ١٩٧٠) وفي اللغة الحديثة الشعبية بازاء اللغة الاصلية (ترجمة جديدة صدرت مؤخرا عام ١٩٧٨ لدير باراكليتوس في اليونان) .

(٦) في ترجمة لاتينية تبعتها ترجمة اخرى طبعت سبع مرات في القرن السادس عشر والسابع عشر . الا ان هناك مقاطع من السلم ترجمت الى اللاتينية منذ القرن الحادي عشر .

(٧) وقد قيل ان « السلم » كان اول كتاب طبع في القارة الاميركية (قبل عام ١٥٤٠) .

(٨) الترجمة الاخيرة صدرت مؤخرا عام ١٩٧٨ لبلاسيد دوسيل (بلفنتين) .

(٩) الترجمة الاخيرة عام ١٩٥٩ .

(١٠) فضلا عن ان المقالة الثامنة عشرة من كتاب السلم (في عدم الاحساس) دفعت سمعان في طريق القداسة .

http://coptic-treasures.com

الانسي يستخدم تعريفه للاستنارة الالهية لتحديد مفهوم الغبطة في مجمع فلورنسا في مواجهته للاتين .

● هذا ونرى السلمي في طليعة المراجع التي قامت عليها النهضة الرهبانية الروسية في القرن الخامس عشر (١١) ، اذ ان كتابه كان الملهم الرئيسي للقديس نيلس سورسكي احد باعثي تلك النهضة ولغيره منهم . ومن جهة ثانية يشهد كتاب « سائح روسي على دروب الرب » (١٢) بانتشار كتاب السلم في الاوساط الشعبية الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولكن هذا الانتشار يزداد اتساعا في كنيسة رومانيا حيث نرى آثاره في فن رسم الايقونات والفريسكات وفي الاساطير الشعبية (١٣).

● اما في الغرب فنرى « تيار » السلم في القرن الرابع عشر ينطلق من البلقان (حيث نفي بعض الروحانيين الفرنسيسكان وتعرفوا على السلم) فينتقل حتى هولندا عبر وادي نهر الرين فيتقبله الرهبان الغربيون سريعا ويملأ مكتبات البندكتيين والشارتريين وغيرهم ، ويتخذ حجة لتأييد متطلبات النقاوة الانجيلية والحرية الروحية التي كان يبتغيها البعض منهم .

● هذا وبعد فترة من النسيان النسبي لكتاب السلم بدأ في القرن الثامن عشر ، تعود الآن تصدر في الغرب طبعات كثيرة له ، كما راينا اعلاه .

● واخيرا لا بد من الاشارة الى ما ينعكس من تأثير السلم في مجال فن التصوير وتزيين المخطوطات حيث نرى عددا كبيرا من المخطوطات مزينا بصورة سلم يصعد عليها رهبان نحو الرب يسوع وتحاربهم الشياطين ويحثهم السلمي على الصمود .. او بصورة القديس يوحنا السلمي نفسه .. فضلا عن الايقونات او الفريسكات في كنائس الاديار ، التي تمثل السلمي والسلم .

(١١) يلاحظ وجود كتاب السلم في دير مغاور كييف منذ القرن الثالث عشر .

(١٢) مطبعة النور ، بيروت ، طبعة ثانية عام ١٩٦٦ صفحة ١٣٠ .

(١٣) ان القديس بايسي فليشكوفسكي الذي امضى اكثر ايامه في دير نيامتسو في رومانيا استمر حتى وفاته ينسخ كتاب السلم ويترجمه ترجمات جديدة . وهذا القديس كانت له اليد الطولى في قيام النهضة الرهبانية في روسيا وكل البلقان في القرن الثامن عشر . ومما يذكر ايضا بصدد تأثير السلم في البلقان ان الطاغية الصربي جورج برنكوفيتش كان يطالع السلم بشغف وامتنان وقد امر الراهب داود عام ١٤٣٤ بترجمتها ترجمة جديدة وبنسخها ..

http://coptic-treasures.com

٥ ــ هذه الترجمة

● ليس هناك بعد نص يوناني واحد ثابت لكتاب « السلم » موضوعا على اساس نقد علمي ودراسة وافية لمخطوطاته المختلفة الكثيرة ، ولا يزال هذا العمل ينتظر من يقوم به من ذوي العلم والاختصاص . اما نحن ، في هذه الترجمة الجديدة باللغة العربية ، فقد استانسنا ، الى جانب رجوعنا الى النص اليوناني في طبعة دار النشر « استير » في اثينا عام ١٩٧٠ (المستندة الى طبعة صوفرونيوس اريميتو في القسطنطينية عام ١٨٨٣) ، بترجمة الارشمندريت لازرس مور باللغة الانكليزية (الصادر عام ١٩٥٩ لدى فابر أند فابر في لندن) وبترجمة مسيو ارنو داندييه بالفرنسية (« الطبعة الجديدة » عام ١٦٥٨ لدى لوبوتي في باريس) وبنسخة بيد اسبيرو جبور عن مخطوطة عربية كانت موجودة في دير المعمدان في دوما (لم نطلع عليها) وبمخطوطة عربية اخرى موجودة في دير مار جرجس دير الحرف يعود نسخها لعام ١٧٦٦ بيد الراهب المتوحد مكاريوس بن جرجس جنحو ، وقد أوقفت لدير مار جرجس المذكور سنة ١٧٨٠ .

● يختلف تقسيم بعض المقالات وترقيمها بين مخطوطة واخرى وكذلك تقسيم الفصول وترقيمها ضمن كل مقالة ، وقد اعتمدنا تقسيم الارشمندريت لازرس مور في ترجمته المشار اليها اعلاه .

● ان السلمي يورد آيات الكتاب المقدس غيبا على الاغلب ويدخلها عادة في صلب النص . وهو يرجع الى الترجمة السبعينية فيما يخص آيات العهد القديم . فتقيدنا اجمالا بنصه ، مع الاشارة في الحواشي الى ارقام الفصول والآيات .

● ان بعض الكلمات او العبارات في كتاب السلمي تنتمي بشكل خاص الى « لغة » الحياة الرهبانية وقاموسها (مثال « العمل » بمعنى الجهاد النسكي ، و « المعاينة » بمعنى معاينة الله في التأمل ، و « الصحو » بمعنى يقظة العقل والقلب و « السكون » بمعنى التوحد في الصمت والهدوء ، و « النوح » بمعنى توجع القلب في التوبة ..) فيجب فهمها على هذا الاساس ضمن اطار مفهومها كما يتضح من سياق البحث عند السلمي .

● لقد توخينا في ترجمتنا هذه قبل كل شيء وضوح المعنى (١) ، فضلا عن بساطة العبارة وسهولة الاسلوب ، قدر الامكان (٢) ، دون الابتعاد عن النص اليوناني الاصلي . لكننا نعي النواقص الكثيرة التي لا تزال تشوب هذا النص العربي الجديد ونتمنى لو يتقدم غيرنا بعدنا ، ممن هم اكثر كفاءة منا ، على تحسين عملنا المتواضع . ولا يسعنا هنا الا ان نشكر جميع الذين تكرموا بالاطلاع على ترجمتنا هذه واسهموا في تبسيطها وجعلها مقبولة ، جزاهم الله نعمة وقداسة .

---

(١) بالمقارنة بين النصوص المذكورة التي كثيرا ما تختلف فيما بينها من حيث المعنى ، او يكتنفها الغموض والالتباس .

(٢) ان المخطوطات العربية مكتوبة كلها بلغة قديمة غير مألوفة العبارة والاسلوب بالنسبة لنا اليوم .

http://coptic-treasures.com

٦ ــ المراجع

١ ــ قاموس الروحانية النسكية والصوفية باللغة الفرنسية ، كلمة « سلم » (بوشين باريس عام ١٩٥٨) وكلمة « يوحنا السلمي » (بوشين باريس عام ١٩٧٢) .

٢ ــ مقدمة م. هيبل لترجمة الارشمندريت لازرس مور لكتاب السلم باللغة الانكليزية (فابر اند فابر لندن عام ١٩٥٩) .

٣ ــ مقدمة الأب بلاسيد دوسيي لترجمته للسلم باللغة الفرنسية (بلفنتين عام ١٩٧٨) .

٤ ــ مقال الأب ايرني هاوزر اليسوعي عن « لاهوت الرهبانية عند القديس يوحنا السلمي » باللغة الفرنسية في كتاب «لاهوت الحياة الرهبانية» (اوبيه عام ١٩٦١) .

٥ ــ مقدمة موسيو ارنو دنديسي لترجمته لكتاب السلم باللغة الفرنسية (باريس عام ١٦٥٨) .

٦ ــ مقدمة الارشمندريت اغناطيوس لترجمته لكتاب السلم باللغة اليونانية (دير باركليتوس عام ١٩٧٨) .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة الاولى

في الزهد في هذا العالم الباطل واعتزاله

١ ــ لما كان الهنا وملكنا الصالح بل الكلي الصلاح والفائق الصلاح (اذ يحسن ان نستهل كلامنا بذكر الله ما دمنا نكتب الى خدام الله) قد كرم سائر خلائقه الناطقة ، من ملائكة وبشر ، بالحرية الذاتية ، فاننا نرى قسمين من هم احباؤه ، ومن هم له خدام مخلصون ، او عاطلون ، ومن هم غرباء عنه بالتمام ، ومن هم ، على ضعفهم ، معاندون له. اما احباؤه فاقصد بهم ، انا الحقير ، ايها الرئيس الجليل ، الجواهر العقليين العادمي الاجساد الذين يحيطون به . واما خدامه المخلصون فهم الذين عملوا ويعملون مشيئته المقدسة بدون كسل ولا تقصير . واما خدامه العاطلون فهم الذين يظنون انهم قد اهلوا لمعموديته الالهية ، لكنهم نكثوا العهود التي قطعوها على انفسهم حينذاك . واما الغرباء المقصون عنه فأعني بهم غير المعمدين او الهراطقة . واما محاربوه فهم الذين لا يكتفون برفض وصايا الرب ونبذها ، بل يعمدون ايضا الى محاربة العاملين بها محاربة شديدة.

٢ ــ وبما ان كلا من الفئات السابق ذكرها تستوجب افراد بحث خاص بها ، فلا يوافقنا نحن الجهلة ان نتورط في تناولها كلها بالشرح والتفنيد . ولذلك دعونا بالحري نذعن للطاعة ونمد يدنا العاجزة الى فئة خدام الله المخلصين الذين يقتسروننا بتقواهم ويضطروننا بثقتهم فنتسلم قلم الكلام من معرفتهم ونغمسه في حبر تواضعهم الخاشع والمشرق معا ونسطر على قلوبهم البيضاء النقية الاقوال الالهية ، وكأننا نسطرها على رقوق بل على الواح روحية فنقول :

٣ ــ الله هو لجميع الذين يختارونه . وكذلك الحياة والخلاص فهما لجميع الناس ، مؤمنين كانوا او غير مؤمنين ، عادلين او ظالمين ، اتقياء او كافرين ، خطاة او صديقين ، رهبانا او علمانيين ، حكماء او بسطاء ، اصحاء او مرضى ، احداثا او شيوخا ، وذلك على غرار اندفاق النور وشروق الشمس وتوالي فصول السنة من اجل الناس كافة على السواء . نعم وليس الامر على خلاف ذلك لأنه « ليس عند الله محاباة » (١) .

٤ ــ فالكافر كائن ذو نفس ناطقة وطبيعة فانية يقصي ذاته عن الحياة باختياره اذ يحسب ان خالقه الازلي غير موجود . والمتعدي الشريعة هو من يحرف شريعة الله

---

(١) رو ٢ : ١١ .

http://coptic-treasures.com

طبقا لفساد بصيرته ويبتدع ما يضاده تعالى ظانا انه يؤمن به . والمسيحي هو من يتشبه بالمسيح في اقواله وافعاله وافكاره قدر استطاعة الانسان ويؤمن بالثالوث الاقدس ايمانا قويما خاليا من العيب . والمحب الله هو من يحسن استعمال الخيرات الطبيعية ولا يتوانى في عمل الصالحات قدر طاقته . والضابط هواه هو الذي يحاول بكل قوته ، في وسط التجارب والمكايد والقلاقل ، ان يماثل حال الذين لا يبالون ولا ينفعلون في القلاقل . والراهب هو من يحقق ، في جسد مادي هيولي وسخ ، رتبة العادمي الاجساد وسيرتهم . الراهب هو الحافظ وصايا الله وحدها في كل زمان ومكان وعمل . الراهب هو الذي لا يكف عن كبح طبيعته وحفظ حواسه . الراهب جسد عفيف وفم طاهر وذهن مستنير . الراهب نفس حزينة لا تنفك تلهج بالموت في النوم واليقظة . واعتزال العالم هو مقت طوعي وجحود للطبيعة لأجل البلوغ الى ما يفوق الطبيعة .

٥ ــ ان جميع الذين بادروا الى الزهد في العالم لا بد انهم زهدوا فيه اما في سبيل الملكوت الآتي او لكثرة خطاياهم او حبا بالله . وان كان اعتزالهم العالم ناجما عن سبب آخر فهو اعتزال احمق ؛ غير ان الهنا الصالح واضع هذا الجهاد ينتظر نهاية سعيهم ليحكم عليه .

٦ ــ من اعتزل العالم لكي يزيل عنه حمل خطاياه فليماثل الجالسين بين المقابر خارج المدينة ، ولا يكفن عن سكب الدموع السخينة وعويل القلب الخفي حتى يرى يسوع آتيا اليه ومدحرجا عن قلبه حجر القساوة ؛ وحالا لعازر عقله من جدائل خطاياه وموعزا الى خدامه الملائكة بأن يحلوه من اهوائه ويدعوه يمضي الى اللاهوى المبارك ؛ والا فلا يكون قد انتفع من تركه العالم شيئا .

٧ ــ نحن الراغبين في الخروج من مصر هربا من وجه فرعون نحتاج حتما بعد الله الى موسى آخر يتوسط لنا عند الله فيقف بين العمل والتأمل ويرفع يديه من اجلنا الى ان نعبر بارشاده بحر خطايانا ونهزم عماليق اهوائنا . فالذين يتكلون على انفسهم ويتوهمون انهم لا يحتاجون الى مرشد يرشدهم هم مخدوعون . ان الذين خرجوا من مصر قد اتخذوا موسى مرشدا لهم ، والذين هربوا من سدوم كان الملاك هاديهم. فالذين يسعون الى شفاء اهواء النفس بعناية الاطباء يمثلون الخارجين من مصر . اما الهاربون من سدوم فهم المتوخون استخراج نجاسة الجسد ولذا هم بحاجة الى ملاك ، اعني الى انسان معادل للملاك لكي يعينهم . لأننا بمقدار ما يزداد تقيح جروحنا نحتاج الى طبيب اكثر مهارة .

٨ ــ ان الذين يعتزمون الصعود الى السماء بأجسادهم يلزمهم بالحقيقة اقتسار ذواتهم وتكليفها آلاما متواصلة ، لا سيما في بدء زهدهم ، الى ان يتحول خلقنا المحب اللذة وقلبنا الفاقد الاحساس الى خلق عفيف ومحب لله نتيجة توبة صادقة . لأنها في الحقيقة مشقة كبيرة وكبيرة جدا ومرارة لا تحتمل ، لا سيما للعائشين منا في التواني والكسل ، الى ان نجعل ذهننا ، ذاك الكلب الشغوف بفضلات اللحوم لدى ابواب القصابين ، محبا للعفة ولمراقبة الذات عن طريق روح البساطة وعدم الغضب بتاتا والاجتهاد . اما نحن معشر الضعفاء المستعبدين للأهواء فلنتشجع ونعترف للمسيح بضعفنا وعجزنا بايمان غير مرتاب فنحصل على معونته بالتأكيد اكثر مما نستحق ، اللهم اذا تواضعنا باستمرار الى قعر الاتضاع .

٩ ــ ليعلم جميع الذين يدخلون هذا الجهاد الصالح ، الذي هو قاس وصعب وفي الوقت نفسه سهل ، انهم انما يقدمون على القفز في النار ان كانوا يريدون ان تسكن فيهم النار الروحية . فليمتحن اذا كل واحد ذاته ثم يأكل خبز الزهد المعجون بالمرارة ويشرب كأسه الممزوجة بالعبرات ، لئلا يجلب على نفسه الدينونة . ان كان المعمدون

http://coptic-treasures.com

لا يخلصون جميعهم بالضرورة فسأصمت عن الرهبان .

١٠ ــ على الذين يتقدمون الى هذه السيرة ان يجحدوا كل شيء ويستهينوا بكل شيء ويهزاوا بكل شيء ويطرحوا عنهم كل شيء لكيما يضعوا اساسا صالحا . والاساس الصالح المثلث الركائز هو الاقلاع عن الشر ، والصوم ، والاعتدال . فليبتدىء الذين ما زالوا بعد اطفالا في المسيح بممارسة هذه الفضائل الثلاث مقتدين بالاطفال . فانه ليس عند هؤلاء شر او خداع ، وليس عندهم نهم او تخمة ، ولا جسد بهيمي ملتهب بالشهوة ، اذ انهم لا يزيدون غذاءهم الا بقدر ما يحتاج نموهم الى حرارة .

١١ ــ ولعمري انه لقبيح حقا ومؤذن بالخطر ان يجبن المصارع حال دخوله حلبة المصارعة فيعطي الكل الدليل على قرب سقوطه . هذا ولا شك في ان ابتداءنا في السيرة الرهبانية بنشاط يفيدنا فيما بعد في اوقات التواني ، لان ذكر الهمة الاولى ينخز النفس الشهمة اذا مالت الى الاسترخاء . ولذلك كثيرا ما استعاد البعض اندفاعهم بفعل هذا النخز .

١٢ ــ اذا اضاعت النفس حرارتها المباركة فلتبحث عن العلة بعناية ولتقاومها بكل عزمها وحرصها . اذ ليس لها ان تستعيد حرارتها المنشودة الا من الباب الذي خرجت منه .

١٣ ــ من يزهد في الدنيا خوفا من العقاب قد يشبه يوما البخور الذي تفوح رائحته الزكية اول ما يحرق ثم ينتهي بدخان . ومن يزهد طمعا بالثواب يشبه حمار الطاحون الذي يدور دائما على منوال واحد . ومن يعتزل العالم حبا بالله يمتلك للحال نارا كالتي اذا ما القيت في غابة تضرم كل يوم نارا اشد اشتعالا .

١٤ ــ يبني البعض فوق الحجارة لبنا . ويشيد غيرهم على التراب اعمدة . ويعدو آخرون مسافة فتسخن منهم الاوصال والاعصاب فيزداد عدوهم اسراعا . من يستطع ان يفهم هذا القول الرمزي فليفهم .

١٥ ــ ما دامت ايامنا معدودة فلنسع بهمة ونشاط كمن دعاهم الهم وملكهم لئلا نوجد بلا ثمر يوم الوفاة فنهلك جوعا . ولنرض الرب كما يرضي الجند الملك لاننا سنطالب بدقة ما دمنا قد انخرطنا في خدمته . ولنخش الرب كما نخشى الوحوش ، لاني رايت اناسا ذاهبين ليسرقوا وهم لا يخافون الله ، ولكنهم اذ سمعوا في المحلة صوت كلاب رجعوا ادراجهم في الحين ، فما لم يصنعه خوف الله صنعه خوف الوحوش . ولنحب ربنا كما نجل اصدقاءنا ، لاني كثيرا ما شاهدت اناسا قد اساؤوا الى الله ولم يبالوا بذلك البتة ، ثم رايتهم هم انفسهم قد اسخطوا اخلاءهم لسبب تافه فسعوا لتلافي الامر بكل وسيلة وحيلة وندم واعتذار ، مباشرة او عن طريق الاصدقاء ، غير ضانين بالهدايا لكيما يستعيدوا حبهم الاول .

١٦ ــ من البين اننا نمارس الفضائل في اوائل زهدنا بتعب ومرارة . واذا تقدمنا في الطريق لا نعود نحس بغم ، او نشعر بقليل من الغم في ممارستها . اما اذا اجتاحت الغيرة قلبنا واستولت عليه فنعود نمارس الفضائل بكل فرح وهمة وشوق وباضطرام الهي .

١٧ ــ بمقدار ما يجب الثناء على الذين يمارسون الفضائل ويتممون الوصايا بفرح وهمة منذ بدء زهدهم ، بذلك المقدار ينبغي التحسر على الذين يطول زمانهم في النسك ولا يزالون يمارسون الفضائل بتعب وان كانوا يمارسونها .

١٨ ــ لا نرذلن او نذمن الزهد الناجم عن ظروف عارضة ، فاني رايت اناسا كانوا هاربين فصادفوا الملك آتيا نحوهم فاضطروا الى الانضمام الى مرافقيه اضطرارا ودخلوا معه قصره واكلوا على مائدته . وشاهدت بذارا قد سقطت على ارض عرضا

http://coptic-treasures.com

فاثمرت ثمرا يانعا بوفرة ، ولكني شاهدت العكس ايضا . ورايت ايضا انسانا مريضا قدم الى المستشفى لحاجة ما غير الاستشفاء ، ولكن لطف الطبيب اسره فعولج مرغما فازيلت الغشاوة عن عينيه . وهكذا صارت الاعراض الكرهية عند البعض اثبت من الافعال الطوعية وانفذ .

١٩ ــ لا يتذرعن احد بثقل خطاياه وكثرتها مدعيا انه غير مستحق للاسكيم الرهباني ، وهو لاجل تمتعه باهوائه يظن انه يتواضع في حين انه يتعلل بعلل الخطايا . لانه حيث يكثر التقيح تشتد الحاجة الى التداوي في سبيل استخراج النتن . اما الاصحاء فلا يذهبون الى الطبيب .

٢٠ ــ لو استدعانا ملك من ملوك الارض ورغب الينا في ان نخدم بين يديه لما تنصلنا او تاخرنا البتة عن تلبية دعوته بل لتركنا كل شيء وبادرنا بنشاط الى الالتحاق به . فان كان ملك الملوك ورب الارباب واله الآلهة يدعونا الى خدمته السماوية فلنحترس بالتالي لئلا نستعفي من الخدمة بدافع التهاون والتواني فنوجد بلا عذر في يوم الدين . ولعمري فان من يرتبط بهموم هذا العمر واغلاله الحديدية قد لا يعجز عن المشي ولكنه يمشي بعناء . لان المصفدة ارجلهم في الحديد قد يمشون الا انهم لا ينفكون يتعثرون ويتجرحون . اما المرتبط باعمال هذا الدهر دون ان يكون متزوجا فيشبه من اوثقت يداه فقط ولذا لا يوجد ما يمنعه من الانخراط في السيرة الرهبانية متى شاء . واما المتزوج فيماثل من قيدت يداه ورجلاه معا .

٢١ ــ قال لي ذات مرة اناس عائشون في العالم بالتواني : كيف نستطيع ان نسلك رهبانيا ونحن متزوجون ومنهمكون في هموم الحياة ؟ فاجبتهم : افعلوا ما استطعتم من الصالحات ، لا تعيروا (بتشديد الياء) احدا ، لا تخدعوا احدا ، لا تسرقوا احدا ، لا تتشامخوا على احد ، لا تمقتوا احدا ، لا تنقطعوا عن صلوات الكنيسة ، اعطفوا على المحتاجين ، لا تعثروا احدا ، لا تقتربوا من نصيب غيركم بل اكتفوا بنسائكم . ان فعلتم هذا فلن تكونوا بعيدين عن ملكوت السماوات .

٢٢ ــ لنعد (بضم الدال) في الجهاد الصالح بفرح وخشية ولا نخف اعداءنا لانهم انما يراقبون وجوه نفوسنا وهم غير منظورين ، فان راوها متغيرة من الخوف فطنوا لجبننا حالا وهاجمونا باكثر ضراوة . فلنقاتلهم اذا بشجاعة وشهامة ، لان من يحارب بشهامة لا يهاجمه احد .

٢٣ ــ ان الرب يخفف القتال عن المبتدئين وذلك سياسة منه لئلا يخوروا فيرجعوا للحال الى العالم . فافرحوا اذا بالرب في كل حين يا سائر عبيده ، واعلموا ان هذه انما هي العلامة الاولى لمحبة السيد لنا ولدعوته ايانا . ولكن الله ايضا ، اذا ما راى نفوسا شجاعة ، كثيرا ما يعرضها للقتالات منذ البدء ، كما هو معروف ، مبتغيا ان يكللها سريعا . وهو يخفي عن العائشين في العالم مشقة معركة الزهد ، (بل سهولتها في الحقيقة) ، لانهم لو عرفوها لما زهد في الدنيا اي ذي جسد .

٢٤ ــ قدم للرب اتعاب شبابك فتفرح في شيخوختك بغنى اللاهوي . فان ما يدخر في الصبا يغذي الذين يضعفون في الشيخوخة ويعزيهم . فلنبذل اذا جهدنا في حداثتنا ونجد في السير ساهرين لان ساعة الموت مجهولة ، واعداءنا اشرار حقا وشرسون ، مخادعون ومحتالون ، اشداء لا ينامون قط ، وهم غير منظورين ولا جسديون ، وفي ايديهم نار يرغبون ان يحرقوا بها هيكل الله لانقاذ حسدهم . فلا يقبلن احد في شبابه مشورة اعدائه الشياطين القائلين له : لا تضن جسدك لئلا تنتابك الامراض والاسقام . لاننا نكاد لا نجد شابا ، لا سيما في جيلنا الحاضر ، يعزم على اماتة جسده حقيقة والى النهاية ، وان كان يحرم ذاته كثيرا من الاطعمة اللذيذة . وغرض الابالسة من ايحائهم هذا ان يجعلوا دخولنا في معركة الزهد مشوبا

http://coptic-treasures.com

بالاسترخاء والتواني منذ البدء ، وبالتالي ان يجعلوا النهاية مطابقة للبداية .

٢٥ ــ على الذين عزموا على خدمة المسيح حقيقة ان يعمدوا قبل كل شيء الى اختيار المكان والطريقة والسكنى والممارسات النسكية التي تلائمهم ، وذلك باستطلاعهم الشخصي ومعونة الآباء الروحيين ، لان الاديرة ذات المعيشة المشتركة لا توافق كل الناس من جهة الشراهة ، وكذلك فان مواضع العزلة والسكون ليست للجميع من جهة الغضب . فليفحص كل واحد اذا ما يوافقه .

٢٦ ــ تنحصر السيرة الرهبانية كلها في مناهج ثلاثة وهي الاعتزال في جهاد منفرد ، او الاخلاد الى السكون برفقة شخص او شخصين آخرين ، او الاقامة بصبر في دير ذي معيشة مشتركة . ويقول الكتاب : لا تمل يمنة ولا يسرة (٢) ، بل اسلك الطريق الملوكية (٣) ، لان الطريقة الوسطى بين المناهج الثلاثة الآنفة الذكر تلائم الكثيرين ، وقد قيل : « ويل لمن هو وحده لانه ان وقع » في ضجر او غفوة او توان او يأس « فليس له من يقيمه » (٤) ، لكن « حيث اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي اكون في وسطهم » يقول الرب (٥) .

٢٧ ــ فمن هو يا ترى الراهب الامين الحكيم ؟ هو من يحفظ غيرته متقدة الى النهاية ، ولا يزال حتى الممات يزيد كل يوم على ناره نارا وعلى اضطرامه اضطراما وعلى شوقه شوقا وعلى همته ونشاطه همة ونشاطا دون انقطاع .

هذه درجة اولى ، ومن وطئها فلا يعودن الى الوراء .

---

(٢) امثال ٤ : ٢٧ .
(٣) عدد ٢٠ : ١٧ .
(٤) الجامعة ٤ : ١٠ .
(٥) متى ١٨ : ٢٠ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

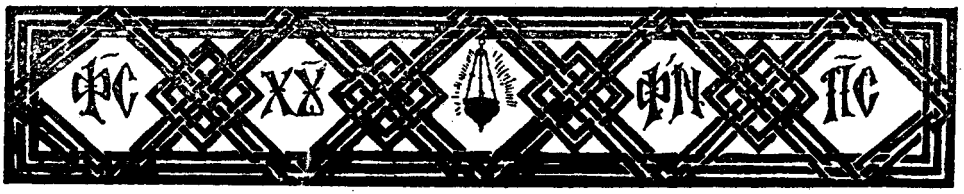

المقالة الثانية

التخلي عن كل شيء

١ ــ ان من يحب الله حقيقة ، ويلتمس الملكوت حقيقة ، ويتوجع حقيقة لهفواته ، ويلهج حقيقة بذكر الدينونة والعذاب الأبدي ، وتلازمه حقيقة مخافة ساعة الموت ، لن يتعلق ولن يهتم ولن يبالي بأموال او املاك او والدين او مجد دنيوي او اصدقاء او اخوة او اي شيء ارضي على الاطلاق ، لكنه اذ قد طرح عنه كل ارتباط وكل انشغال بأمور الارض ، بل مقت جسده قبلها ، فهو يتبع المسيح عاريا بلا هم ولا تثاقل ، متطلعا دوما الى السماء ومتوقعا المعونة من هناك ، حسب القول المبارك : « التصقت نفسي بك» (١) والقول الآخر : « انني لم اكل في اتباعي اياك ولم اشته يا رب يوم انسان ولا راحة انسان » (٢) .

٢ ــ انه لخزي عظيم ان نترك امور الدنيا بدعوة من الله لا من الناس ثم نعود نهتم بما لا ينفعنا في اوان الشدة اعني في ساعة الموت . لأن هذا هو الالتفات الى الوراء الذي قال عنه السيد انه لا يصلح لطلاب ملكوت السموات (٣) . واذ عرف الرب سرعة عطبنا وزللنا ، نحن المبتدئين ، واحتمال رجوعنا الى العالم بأيسر مرام اذا عاشرنا العلمانيين او تحدثنا معهم ، قال لمن استأذنه ان يمضي ويدفن اباه : « دع الموتى يدفنون موتاهم » (٤) .

٣ ــ ويوصي الينا الشياطين بعد تركنا العالم ان نغبط العلمانيين الشفوقين المحسنين الى الفقراء ونرثي لانفسنا لحرماننا فضيلة اولئك جملة . وغرض اعدائنا أن يعيدونا الى العالم بتواضع كاذب ، او ان يوقعونا في اليأس ان بقينا رهبانا . هذا وقد يحدث ان نستخف بأهل العالم بدافع الغرور او نعمد الى ازدرائهم في غيابهم هربا من القنوط والتماسا للرجاء .

٤ ــ لنصغ الى ما قاله الرب للشاب الذي كان قد حفظ معظم الوصايا : « تعوزك

---

(١) مز ٦٢ : ٨ .

(٢) ارميا ١٧ : ١٦ (كثيرا ما يورد السلمي آيات الكتاب غيبا وبالتالي بشيء من التصرف) .

(٣) لو ٩ : ٦٢ .

(٤) متى ٨ : ٢٢ .

http://coptic-treasures.com

واحدة بعد : ان تبيع ما لك وتعطي الفقراء » (٥) ، وتصير انت فقيرا تتقبل الصدقة .

٥ ــ لنتأمل ونفطن ، نحن الذين عزمنا على السير سيرا حثيثا دؤوبا ، كيف حكم الرب بأن جميع المقيمين في العالم هم اموات وان كانوا احياء ، وذلك حين قال : « دع الموتى (العلمانيين) يدفنون الموتى (بالجسد) » (٦) . لم تكن ثروة ذلك الشاب حائلا بينه وبين اقتباله المعمودية (٧) ، وبالتالي باطل هو قول القائلين بأن الرب قد اوعز اليه ببيع ما له في سبيل المعمودية وليس في سبيل الترهب ويكفينا هذا دلالة على مدى سمو دعوتنا الرهبانية .

٦ ــ ان الذين يذوون ذواتهم في العالم بأسهار واصوام واتعاب وانواع من الحرمان والنكد ، متى انقطعوا عن الناس واتوا الى المعيشة الرهبانية كالى ميدان امتحان او قتال لا يعودون يمارسون نسكهم السابق الفاسد والكاذب . فقد رأيت غروسا كثيرة من الفضائل المختلفة غرسها الذين هم في العالم وكان العجب يسقيها (كما من حماة خفية) والتباهي يفلحها والمدائح تسمدها . ولكنها لما نقلت الى ارض مقفرة لا يسلكها العلمانيون ولا يسقيها ماء الغرور المنتن جفت للحال . هذا لأن الغروس المعتادة على الري لا تثمر في الاراضي القاحلة العديمة الماء .

٧ ــ من ابغض العالم نجا من الحزن ، ومن تعلق بشيء من المنظورات لم يعتق منه بعد . اذ كيف لا يحزن لفقده ما يحب ؟ اننا نحتاج في كل شيء الى تيقظ بليغ ولكن علينا ان نتنبه قبل اي شيء آخر للأمر التالي : اني رأيت كثيرين قد افلتوا في العالم من هيجان الجسد وذلك من جراء الهموم والشواغل والثرثرات والاسهار العالمية . ولكن لما اتوا الى الحياة الرهبانية وانقطع عنهم كل اهتمام دنيوي دنستهم حركة الجسد تدنيسا يرثى له .

٨ ــ لنحذر ان نضل انفسنا فنقول اننا سالكون الطريق الضيقة الضاغطة في حين اننا متمسكون بالطريق العريضة الواسعة . فمعالم الطريق الضيقة انما هي التضييق على البطن ، والوقوف ما طال الليل ، وشرب الماء بالمعيار ، وعدم الشبع من الخبز ، وتجرع الاهانات المطهرة ، والتعرض لصنوف الاستهزاء والسخرية والتهكم ، وقطع المشيئة الذاتية ، والصبر على الصدمات ، وعدم التذمر من الهوان ، واحتمال المسبات ، والتجلد بازاء الظلم ، وعدم الاغتياظ من الثلب ، وعدم الغضب بسبب الازدراء ، والتواضع امام الادانة والحكم . طوبى للناهجين هذا الطريق فان لهم ملكوت السموات .

٩ ــ لن يدخل احد الخدر السماوي مكللا ما لم يزهد الزهد الاول والثاني والثالث اعني التخلي اولا عن كل شيء وعن جميع الناس وعن الوالدين ثم قطع المشيئة الذاتية ، واخيرا طرح الغرور الناجم عن الطاعة . « اخرجوا من بينهم واعتزلوا ولا تمسوا نجسا من نجاسات العالم يقول الرب (٨) . لأنه من من اولئك اجترح يوما عجائب ؟ من اقام موتى ؟ من طرد شيطانا ؟ لا احد . فهذه المعجزات كلها انما هي جوائز خاصة بالرهبان ولا مكان لها في العالم ، والا لكان النسك والتوحد فضلة زائدة .

١٠ ــ اذا عمد الشياطين ، بعد اعتزالنا العالم ، الى اذكاء ذكر والدينا واخوتنا

---

(٥) مز : ١٠ : ٢١ .

(٦) متى ٨ : ٢٢ .

(٧) بل بينه وبين الترهب .

(٨) ٢ كو ٦ : ١٧ .

http://coptic-treasures.com

في قلوبنا فلنتدرع ضدهم بالصلاة ونلهب نفوسنا بذكر النار الابدية لكيما نخمد بها النار المقلقة التي في قلبنا .

١١ — من يظن انه غير متعلق بشيء يملكه ويغتم لفقده هو مخدوع تماما .

١٢ — على الشباب الذين يميلون الى عشق الاجسام ورخاء العيش ، ويرغبون في دخول السيرة الرهبانية ، ان يبادروا ويجدوا (بتشديد الدال) في التدرب على التيقظ والاحتراز ويعقدوا النية على الاحجام عن كل تنعم وكل مساءة لئلا « تصير اواخرهم شرا من اوائلهم » (٩) . ان الميناء مكان للنجاة وللاخطار في آن ، والسالكون في البحر العقلي يعرفون ذلك . ولعمري انه مشهد يرثى له ان يرى الذين نجوا في اللجة يغرقون في الميناء .

هذه درجة ثانية ، يا من دخلها لا تشابه امراة لوط ، بل اجر هاربا الى الامام مماثلا لوط ذاته .

(٩) متى ١٢ : ٤٥ .

http://coptic-treasures.com

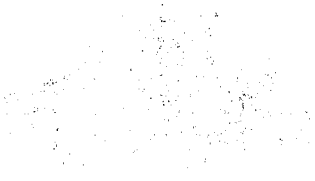

http://coptic-treasures.com

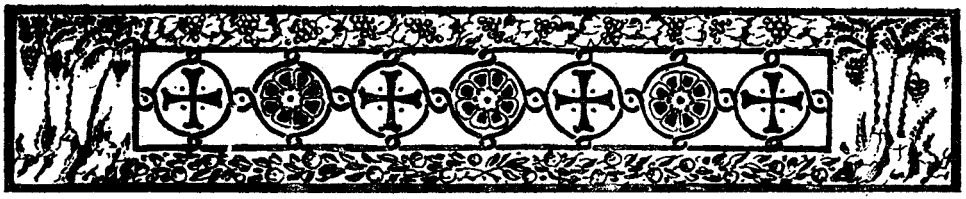

المقالة الثالثة

في الغربة

١ ــ الغربة هي الاعراض النهائي عن كل شيء يعيقنا في وطننا عن بلوغ التقوى التي نشدناها . الغربة خلق عديم الدالة ، وحكمة مجهولة عند الناس ، وفطنة مخفية عنهم ، وعيشة محتجبة ، وغاية مكتومة ، وتدبير خفي ، وتوق الى التذلل ، واشتهاء للضيق ، ومنطلق للشوق الى الله . هي كثرة الحب ، وجحود العجب ، وتوغل في الصمت .

٢ ــ ان الهاجس الذي يلح عادة على محبي الرب الحاحا لجوجا ومتواصلا كأنه نار الهية هو هاجس يحث عشاق الكمال ، في بدء زهدهم ، على الابتعاد عن الأهل طلبا للتذلل . ولكن هذا الفكر الصالح ، بقدر ما هو سام وجدير بالمدح ، يتطلب تمييزا كثيرا في اتباعه اذ ليست كل غربة قصوى حسنة .

٣ ــ ان كان « ليس لنبي كرامة في وطنه » كما قال الرب (١) ، فلنحذر الا تصير لنا الغربة باعثا على العجب . لأن الغربة هي الانفصال عن كل شيء بغية بقاء الذهن غير منفصل عن الله . انها شغف بالنوح الدائم على الخطايا أو سبب له . الغريب هو من يهرب من كل اتصال بأهله وبالغرباء عنه على السواء .

٤ ــ اذا حزمت امرك وقصدت الغربة او الوحدة لا تؤجل ذهابك منتظرا ان يرافقك احد ممن يحبون العالم لأن اللص يتخفى . فكثيرون حاولوا ان يخلصوا معهم اناسا آخرين متوانين او مترددين فهلكوا سوية ، اذ خبت مع الزمن نار نفوسهم . فأنت متى اقتبلت ذاك اللهب امض مسرعا لأنك لا تعلم متى ينطفىء ويتركك تتسكع في الظلام . اما تخليص الآخرين فلسنا كلنا مطالبين به لأن الرسول الالهي يقول : « لا بد لكل واحد منا يا اخوة ان يعطي لله حسابا عن نفسه (٢) » ، وايضا : « يا من

---

(١) يو ٤ : ٤٤

(٢) رو ١٤ : ١٢ .

http://coptic-treasures.com

تعلم غيرك اما تعلم نفسك ؟ (٣) » فلا شك ان الجميع مطالبون بتخليص نفوسهم .

٥ ــ احترس في تعربك من شيطان الجوع المحب اللذه . فان الغربه تتيح له الفرص .

٦ ــ صالح هو التجرد عن كل شيء ، والغربة تلده . فمن تغرب لأجل الرب فلا يتعلقن بشيء ميت بعد بل يظهر وكأنه يدور في سبيل اهوائه .

٧ ــ يا من تغرب عن العالم لا تعد تدنو اليه ، لان الاهواء من طبعها تطلب العودة .

٨ ــ لقد نفيت حواء من الفردوس كرها ، وتغرب الراهب عن وطنه طوعا . اما تلك فلانها لو بقيت لكانت ستشتهي شجره المعصية ثانيه ، واما هو فلانه لو بقي لكان ولا شك قد عرض نفسه للخطر كل يوم من جراء اهله بالجسد .

٩ ــ اهرب من اماكن السقطات هربك من السياط ، لانك لا تشتهي الثمرة اشتهاء متواصلا اذا كانت غائبه عنك .

١٠ ــ لا يخف عليك نهج اللصوص وغشهم . فانهم يوحون الينا الا نفارق اهل العالم زاعمين اننا انما نجني توابا عظيما اذا شاهدنا النساء وضبطنا ذواتنا . فينبغي الا نصدق ذلك بل الاولى بنا ان نعمل بخلافه .

١١ ــ متى فارقنا ذوينا مدة سنة او اكثر واجتنينا لانفسنا قليلا من الورع ، او نخس القلب ، او الامساك عن الاهواء ، تقف حينذاك بنا افكار البطل الكاذبة وتوحي الينا بالعودة الى الوطن لكي نبني كثيرين ونكون ، على زعمها ، مثالا ومنفعه لمن شهدوا اعمالنا الفاسده فيما سلف . اما ان كنا قد بلغنا شيئا من الفصاحة والمعرفة فتوسوس لنا حينذاك بالرجوع الى العالم بمنزلة معلمين ومخلصين للنفوس حتى نبدد في اللجة ما جمعناه حسنا في الميناء . فلنجتهد بالتالي ان نماثل لوط لا امراته ، اذ ان النفس التي تعود الى المكان الذي خرجت منه تفسد وتصير في توانيها كعمود ملح بلا حراك . اهرب من مصر ولا تلتفت الى الوراء لأن القلوب التي رجعت اليها لم تعاين اورشليم ، ارض الانعتاق من الاهواء . وقد يحدث ان يبدا فيترك البعض ذويهم لطفولتهم في الحياة الروحية ثم يتطهروا تطهيرا كاملا فيعودوا اليهم عودا موافقا نافعا ، لعله في سبيل تخليص آخرين بعد تخليصهم انفسهم ، علما بأن موسى الذي عاين الله وارسل من قبله تعالى لانقاذ بني جنسه قد صادف في مصر اخطارا كثيرة ، هي ظلمات العالم .

١٢ ــ حسن ان نحزن الوالدين ولا نحزن الرب ، لأن الرب خلقنا وخلصنا ، اما الوالدون فكثيرا ما تسببوا في هلاك الذين احبوهم ، ودفعوهم الى العقاب .

١٣ ــ متغرب حقا هو من يساكن قوما ويكون بينهم كمن لغته غير لغتهم ، وذلك بمعرفة وليس عن جهل .

١٤ ــ نحن لا نفارق ذوينا كرها بهم او ببلدنا ، لا سمح الله ، بل تجنبا للضرر الذي قد يلحقنا بسببهم . لقد صار المسيح مرشدا ومعلما لنا في هذا الصدد ايضا . اذ من البين انه كثيرا ما ترك والديه بالجسد ، ولما سمع البعض يقولون : « ان امك واخوتك يطلبونك » اظهر حالا ، كمعلم صالح ، كراهية خالية من الهوى ، اذ قال : « امي واخوتي هم الذين يصنعون مشيئة ابي الذي في السموات » (٤) .

١٥ ــ ليكن اباك من يرضى ويستطيع ان يتعب معك في رفع حمل خطاياك عنك . ولتكن امك التوبة القادرة على غسلك من ادرانك . وليكن اخاك من يكد ويناضل معك في الطريق الى العلى . واقتن قرينة لا تنفصل عنك هي ذكر الموت .

---

(٣) رو ٢ : ٢١ .

(٤) متى ١٢ : ٤٩ .

http://coptic-treasures.com

ولتكن انات قلبك اولادك الاحباء . واملك جسدك عبدا لك ، ولتكن اصدقاءك القوات القدوسة القادرة ان تنفعك وقت خروج نفسك . « فهذا هو جيل الذين يبتغون الرب » (٥) .

١٦ ــ الشوق الى الله يلاشي الشوق الى الوالدين . ومن يزعم انه يمتلك كلا الشوقين معا يضل نفسه اذ يسمع قول القائل : « لا يقدر احد ان يخدم ربين » (٦) . . . ويقول الرب ايضا « ما جئت لالقي على الارض سلاما » ، اي محبة الوالدين والاخوة ، للمزمعين ان يخدموني ، « بل حربا وسيفا » (٧) يفصل محبي الله عن محبي العالم ، والجسدانيين عن الروحانيين ، والمتكبرين عن المتواضعين . لان الرب يسر بمن ينفصلون عن العالم من اجل حبه .

١٧ ــ انظر واحذر لئلا تتراءى لك كل الاشياء بهية ندية من جراء تعلقك وكلفك بممتلكات ذويك ، فتنجرف وتغرق معهم في طوفان حب العالم . لا تشفق على دموع والديك واصدقائك والا فانت مزمع ان تبكي الى الابد . فمتى احاط بك اهلك كالنحل ، وبالاحرى كالزنابير ، منتحبين عليك ونادبين ، اشخص حالا بنظر النفس الى ساعة موتك ، وسياق حياتك ، ولا تلتفت اليهم ، لكي يمكنك ان ترد حزنا بحزن . وقد يخدعنا اهلنا ، وهم في الوقت نفسه ليسوا باهلنا ، فيعدوننا بأن يقضوا لنا كل ما نحب ، مبتغين بذلك عرقلة مسيرتنا الفاضلة واستمالتنا الى غايتهم .

١٨ ــ لننصرف من بلدنا الى مكان اقل تعزية وشرفا واكثر اتضاعا ، والا فسنهرع اليه مصطحبين معنا اهواءنا .

١٩ ــ اكتم شرف نسبك ولا تتباه بسمعتك لئلا تكون في اعمالك على غير ما انت عليه في اقوالك .

٢٠ ــ لم يستسلم احد لمثل غربة ذاك الذي سمع النداء التالي : « اخرج من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك » (٨) ، مع ان ذلك العظيم كان مدعوا للذهاب الى ارض غريبة ، غير متحضرة ، ولغة اهلها غير لغته .

٢١ ــ ان هناك من تغرب على مثال ذاك الجليل فمجده الله تمجيدا اعظم (٩) . ولكن ، وان كان مثل هذا المجد عطية من الله ، فحسن ان يرد بترس التواضع .

٢٢ ــ اذا اثنى علينا الشياطين او الناس بسبب غربتنا كأننا اكملنا عملا عظيما فلنذكر من تغرب من السماء الى الارض لأجلنا . فنجد انفسنا حينذاك عاجزين الى ابد الابد عن وفائه .

٢٣ ــ ان التعلق بأحد من ذوينا او من الغرباء عنا لا يخلو من خطر اذ انه قادر على اجتذابنا شيئا فشيئا الى العالم وعلى اخماد نار توبتنا بالكلية . فكما انه يستحيل الاشارة بعين واحدة الى السماء وبالعين الاخرى الى الارض هكذا يستحيل ان لا يتعرض للخطر من لا يتغرب بالتمام فكرا وجسدا عن جميع ذويه وغير ذويه .

٢٤ ــ ان الخلق الصالح القويم لا يثبت فينا الا بتعب وكد جزيل . ولكن ما حققناه بكد جزيل يمكن ان يتلاشى في لحظة واحدة . لأن المحادثات الرديئة ، الشائنة منها او العالمية البطالة على السواء ، تفسد الطبائع الصالحة . من يخالط او يجاور

---

(٥) مز ٢٣ : ٦ .
(٦) متى ٦ : ٢٤ .
(٧) متى ١٠ : ٣٤ .
(٨) هو ابراهيم في سفر التكوين ١٢ : ١ .
(٩) ربما يقصد به يوسف بن يعقوب .

http://coptic-treasures.com

اهل العالم بعد زهده في العالم لا بد ان يؤخذ في حبائلهم او ان يدنس قلبه بالتفكير في احوالهم . وان لم يندنس يدين المتدنسين ومن ثم يتدنس هو بدلك .

في احلام المبتدئين

٢٥ ــ ليس بمقدوري ان اخفي عجز عقلي عن المعرفة وامتلاءه من كل جهل ، لانه كما ان الحلق يميز الاطعمة كذلك يميز السمع تعبير الافكار ، وكما تكشف الشمس ضعف البصر تفضح الكلمات جهل النفس . ولكن شريعة المحبة تضطرني الى القيام بما يفوق قدرتي . وبناء عليه فاني ارى (ولا اجزم) انه ينبغي ان يدرج هنا ، بعد الكلام عن الغربة ، او بالحري في سياقه ، شيء عن الاحلام ، حتى نكون على بينة من مكر الماكرين في هذا المضمار .

٢٦ ــ الحلم هو تحرك الذهن عند رقاد الجسد . الرؤيا خدعة للعين عند هجوع العقل . الرؤيا سهو للذهن في يقظة الجسد . الرؤيا مشهد لا اساس له في الواقع .

٢٧ ــ لا يخفى ان السبب الذي دعانا نرتئي التكلم عن الاحلام بعد الغربة هو ان الشياطين ، متى تركنا بيوتنا واهلنا لاجل الرب ، وبعنا ذواتنا للغربة حبا بالمسيح ، يحاولون اقلاقنا عن طريق الاحلام ، فيصورون لنا اهلنا اما نادبين او محتضرين او مسجونين وفي عناء بسببنا . فمن يصدق الاحلام يشبه بالتالي من يركض وراء ظله .

٢٨ ــ ان شياطين العجب يتنبأون لنا في النوم عن امور وشيكة الحدوث يستدلون عليها بمكرهم . واذا تحقق ما رأيناه في الحلم تعجبنا وتكبرنا كأننا اوشكنا على اقتناء موهبة معرفة المستقبل . وكثيرا ما يكون هذا الشيطان بمرتبة نبي عند الذين يصدقونه . ولكن خداعه ينفضح دائما عند الذين يزدرونه . لانه انما يشاهد ما يحدث في الهواء ، كونه روحا ، واذا فطن لاحتضار احد يسبق فينبىء عن موته في الحلم اكثر الاخوة خفة وغباوة . الا ان الشياطين لا يعلمون شيئا عن المستقبل من قبيل سابق المعرفة . وقد يستطيع الاطباء ايضا ان « يتنبأوا » لنا عن الموت .

٢٩ ــ كثيرا ما يغير الشياطين شكلهم الى ملائكة نور او هيئة شهداء ويصورون لنا في الحلم انهم يظهرون لنا . واذا افقنا من النوم غمرونا بعجب وفرح باطلين . ولكن اليك هذه العلامة لفضح مكرهم : ان الملائكة الحقيقيين انما يصورون لنا العقاب والدينونة والانفصال عن الله فنستيقظ مرتعدين مغمومين . اما اذا اخذنا نصدق الشياطين في احلام النوم فانهم سيلعبون بنا في اليقظة . من يصدق الاحلام هو عادم الخبرة بالكلية . ومن يكذبها كلها فهو حكيم . صدق فقط الذين يبشرونك بالعقاب والدينونة . ولكن ان الم بك يأس من جراء ذلك فاعلم ان هذه الاحلام ايضا هي من الشياطين .

هذه درجة ثالثة تساوي عدد الثالوث ، فمن بلغها لا يلتفت يمنة او يسرة .

http://coptic-treasures.com

المقالة الرابعة

في الطاعة المغبوطة الدائمة الذكر

١ ــ لقد وصلنا الآن في سياق بحثنا الى الكلام عن المصارعين صراع الطاعة حبا بالمسيح . اذ انه كما تعقب الثمرة الزهرة كذلك تعقب الطاعة التغرب بالجسد والمشيئة . لأن الطاعة المقدسة انما تصعد الى السماء بواسطة هذين التغربين بالجسد والمشيئة اللذين هما بمثابة جناحيها الذهبيين . ولعلهما المقصودان بما قاله داود بالروح مترنما : « من يعطيني جناحين كالحمامة فأطير » بالعمل « واستريح » (١) بالتأمل والاتضاع .

٢ ــ فلا نهملن اذا ، ان شئتم ، وصف قتال هؤلاء المحاربين الشجعان ، مبينين باسهاب كيف يقتنون الايمان بالله ترسا ، اذا جاز القول ، يردون به كل ارتياب او تردد ، وكيف يشرعون سيف الروح كل حين يقطعون به كل مشيئة ذاتية تقترب اليهم . وكيف يتدرعون بالدرع الحديدي درع الصبر والوداعة فيحطمون به كل طعنة وتعيير او تكبر ، وكيف يحتمون بخوذة خلاص هي صلاة رئيسهم ، وكيف لا يضمون رجلا الى اخرى بل يمدون الواحدة الى العمل والخدمة ويثبتون الثانية في الصلاة .

٣ ــ الطاعة جحود تام للنفس يتجلى في اعمال الجسد . او لعلها بالعكس اماتة الجسد فيما الفكر حي . الطاعة اقدام بدون بحث ، موت طوعي ، سيرة بلا تعقيد ، عدم الاكتراث للأخطار ، حماية تلقائية من لدن الله ، عدم الخوف من الموت ، ابحار امين ، يسفر اثناء النوم . الطاعة تبر للمشيئة وقيامة للاتضاع . فالميت لا يناقض او يباحث لا في الصالحات ولا في ما يحسب انه من غير الصالحات . لأن الذي اسلم اليه الراهب روحه حبا بالله سوف يجيب عنه بشأنها كلها . الطاعة هي التخلي عن التمييز في ومرة من التمييز .

٤ ــ في بداية اماتة الجسد والمشيئة مشقة ، وفي منتصفها بعض المشقة ، اما في نهايتها فزوال الشعور بأية مشقة ، بل يشقى ذلك المطيع المغبوط ، الحي والميت

---

(١) مز ٥٤ : ٦ .

http://coptic-treasures.com

في آن واحد ، ويتألم فقط اذا لاحظ انه يصنع ارادته ، وذلك خوفا من عبء المشيئة الذاتية وتبعتها .

٥ ــ انتم الذين عزمتم ان تخوضوا معركة الشهادة ، انتم الذين آثرتم ان تحملوا نير المسيح ، انتم الذين بادرتم الى القاء حملكم على عنق غيركم ، انتم الذين اسرعتم باختياركم الى كتابة صك عبوديتكم راغبين ان يكتب لكم العتق والحرية بالمقابل ، انتم الذين تعبرون هذا البحر الكبير مرفوعين على ايدي غيركم ، اعلموا انكم قد عزمتم ان تسلكوا طريقا قصيرة بقدر ما هي وعرة ، طريقا فيها ضلالة واحدة : هي اتباع الانسان هواه . لأن من جحد اتباع هواه جحودا كاملا حتى في ما يبدو له صالحا وروحيا ومرضيا لله قد وصل قبل انطلاقه للسفر . وذلك ان الطاعة هي عدم وثوق المرء بنفسه حتى آخر عمره في تقدير ما هو صالح له .

٦ ــ متى ازمعنا بدافع الاتضاع وطلبا للخلاص ان نخضع ذواتنا لشخص آخر ونأتمنه في الرب ، فلنعمد اولا الى الفحص والتدقيق بل الى اختبار مرشدنا اذا جاز القول ، لا سيما اذا كنا على شيء من الخبث او التكبر ، وذلك لئلا نصادف نوتيا بدلا من ربان ، ومريضا بدلا من طبيب ، وانسانا مستعبدا للأهواء بدلا من انسان متحرر منها ، ولجة بدلا من ميناء ، فنلاقي غرقا وشيكا لنفوسنا . اما بعد دخولنا ساحة التقوى والطاعة فلا نعودن ندين مرشدنا في اي شيء بالكلية ولو رأينا فيه زلات ذميمة ، ما دام انسانا . والا فلا ينفعنا خضوعنا شيئا .

٧ ــ لا بد للطالبين ان يؤمنوا بأوليائهم ايمانا راسخا لا ريب فيه ان يحفظوا في قلوبهم حفظا لا يمحى ما احكمه هؤلاء من الفضائل وان يذكروه على الدوام ، حتى اذا زرعت الشياطين فينا عدم الثقة بهم نسكتها بذكر تلك الفضائل الثابت فينا . لأنه بمقدار ما تنمو الثقة في القلب ينشط الجسد في الخدمة . اما اذا عثر احد في الشك فقد سقط ، « لأن كل ما ليس من الايمان فهو خطيئة » (٢) . فاهرب من الفكر الموحي اليك بالفحص عن رئيسك او الحكم عليه هربك من فكر الزنى . ولا تفسح لهذه الحية اي مجال البتة للدخول اليك . بل قل لذلك التنين : ايها المحتال انا ليس لي سلطان ان احكم على رئيسي بل هو له سلطان ان يحكم علي . لست انا قاضيا عليه بل هو قاض علي .

٨ ــ لقد حدد الآباء ان تلاوة المزامير سلاح والصلاة سور والدمعة النقية حميم . اما الطاعة المغبوطة فقد حكموا بأنها شهادة لن يبصر الرب بدونها احد من المستعبدين للأهواء .

٩ ــ من يخضع ذاته لغيره يحكم هو على نفسه فينجو من الدينونة . لأنه ، اذا كانت طاعته كاملة لأجل الرب ، وان ظن انها غير كاملة ، فهو « يستهلك » دينونته . اما اذا صنع مشيئته في شيء ما ، فانه يحمل وزر نفسه ، ولو ظن نفسه مطيعا . فاذا عمد الرئيس الى توبيخه دون انقطاع فقد ينتفع . اما ان سكت عنه فليس لي ما اقول في امره . ولعمري ان الذين يخضعون لغيرهم بكل بساطة في الرب يعبرون الميدان بسلام ولا يحركون على انفسهم مكر الشياطين بميلهم الى التدقيق .

١٠ ــ لنقر بخطايانا لقاضينا الصالح وحده قبل اي انسان . وان امرنا فلنعترف بها لكل الناس . لأن الجراحات اذا شهرت لا تصير الى حال اسوأ بل تشفى .

١١ ــ شهدت مرة في دير راع وقاض صالح حكما مريعا . فقد اتفق لما كنت هناك ان لصا محترفا تقدم الى السيرة الرهبانية ، فأمر ذلك الراعي الفاضل

---

(٢) رو ١٤ : ٢٣ .

http://coptic-treasures.com

والطبيب الحاذق ان ينعم اللص براحة كاملة مدة اسبوع يقتصر فيها على ملاحظة النظام المتبع في الدير . وبعد انقضاء الاسبوع استحضره الراعي على انفراد وسأله ان كان يرضى بالسكنى معهم . ولما راه راضيا بذلك بكل صدق سأله ايضا عن طبيعة المعاصي التي ارتكبها في العالم . ولما رآه قد بادر الى الاعتراف بها بنشاط قال ممتحنا اياه : اريدك ان تشهر اعمالك هذه بحضرة جميع الاخوة . واذ كان قد مقت خطيئته حقا ، ولم يبال بالخجل قط ، قبل بهذا بلا ارتياب وقال : ان شئت فاني اعترف بها في وسط الاسكندرية . وفي يوم الاحد التالي جمع الراعي كل اغنامه الناطقة البالغ عددها مائتين وثلاثين راهبا ، وبعد تلاوة الانجيل اثناء اقامة الخدمة الالهية احضر ذلك المجرم المزكى ، يجره بعض الاخوة ويلطمونه برفق ، وقد كتفت يداه وراء ظهره ، والبس مسحا من شعر ، ونثر على رأسه رماد . فانذهل الجميع لهذا المشهد واخذوا يجهشون بالبكاء ، اذ لم يكن احد على علم بما يجري . ولما وصل الى باب الكنيسة على هذه الحال صرخ به ذلك الرئيس القديس والقاضي الرؤوف بصوت عظيم قائلا : قف عندك ، فانك لست اهلا ان تدخل الى هنا . فانذهل من صوت الراعي الذي اتاه من الهيكل كل الانذهال (اذ ظن انه لم يسمع صوت انسان بل صوت رعد ، على ما اكد لنا بقسم فيما بعد) ، وجثا على وجهه للحال ، مرتجفا بجملته ومرتعشا من الخوف . واذ كان طريحا على الارض يبلها بدموعه امره ذاك الطبيب العجيب مجددا ان يبوح امام الجميع بكل ما اجترمه وذلك لكيما يحقق خلاصه ويجعله للجميع مثالا للخلاص والاتضاع . فاعترف بالتفصيل ، وهو مرتعد ، بكافة جرائمه وقد استغربها واستهولها كل من سمع بها . اذ ان خطاياه لم تكن خطايا جسدية ، طبيعية وغير طبيعية ، اقترفها مع الناس والبهائم وحسب ، لكنها بلغت الى جرائم التسميم والقتل وغيرها مما لا يجوز سماعه او كتابته . ولما اتم اقراره هذا امر الرئيس حالا بقص شعره واحصائه في عداد الاخوة .

١٢ ــ فعجبت لحكمة ذاك البار وسألته على انفراد : لماذا صنعت به هذا الامر الغريب ؟ فأجابني ذلك الطبيب الحقيقي قائلا : للغرضين اثنين ، اولهما لكيما اخلصه من الخزي الآتي بواسطة الخزي الحاضر ، وهذا ما تم فعلا ، لانه بالحقيقة ، يا اخي يوحنا ، ما ان نهض عن الارض حتى كان قد حظي بالصفح عن خطاياه كلها . لا تشك بصحة ذلك فان احد الاخوة الحاضرين اسر لي بأنه قد رأى شخصا رهيبا يمسك ورقة مكتوبة وقلما ، فكان يشطب بقلمه على كل خطيئة يقر الطريح بها . وهذا بعدل وانصاف ، لانه قيل : « قلت اعترف للرب بذنبي وانت صفحت عن خبائة قلبي » (٣) . اما الغرض الثاني فهو ان عندي بين الاخوة من قد اقترفوا ذنوبا لم يكشفوها فبهذه الطريقة استحثهم على الاعتراف بها ، اذ بدون هذا الاعتراف لا ينال احد الصفح عن زلاته .

١٣ ــ ولقد شاهدت عند ذلك الراعي النبيه وفي رعيته امورا اخرى جديرة بالاعجاب والذكر ، وسأحاول ان اورد لكم اكثرها . لاني اقمت عندهم زمانا ليس بيسير اتتبع سيرتهم وادهش كل الدهش لمعاينتي هؤلاء الارضيين يماثلون السماويين .

١٤ ــ كان رباط المحبة بينهم قد اصبح لا ينفصم ، والامر الاعجب من هذا ان محبتهم كانت خالية من كل دالة وكل كلام بطال . كانوا يحرصون قبل كل شيء على ان لا يجرح احد وجدان اخيه في اي حال ، واذا ابدى احدهم مقتا لرفيقه نفاه الراعي الى الدير الخاص بالمذنبين . وقد حدث مرة ان عير احد الاخوة رفيقه بحضرة الراعي

---

(٣) مز ٣١ : ٥ .

http://coptic-treasures.com

فأوعز الكلي البر على الفور بطرده قائلا : لست اسمح ان يكون في الدير شيطان منظورا كان او غير منظور .

١٥ — ورايت عند هؤلاء القديسين اعمالا خيرة حقا وجديرة بالاعجاب . رايت اخوة متحدين وملتحمين في الرب يجودون في العمل والتأمل الى درجة مذهلة ؛ لانهم كانوا يدربون انفسهم على ممارسة الاعمال الالهية باستمرار ، حتى انهم كادوا يستغنون عن تنبيه الرئيس لهم ؛ اذ كانوا ينبهون بعضهم بعضا تلقائيا الى التيقظ الالهي . فكانت لهم ممارسات مقدسة مدروسة وثابتة ، فان اشارة خفية معينة كانت كافية في غياب الرئيس لتنبيه من اخذ يعير او يدين غيره او ينطق بمجرد كلام بطال . وفي حال عدم انتباهه عمد من يذكره الى السجود له الى الارض ثم انصرف. واذا وجب الكلام فيما بينهم كان ذكر الموت والدينونة حديثهم الدائم الذي لا ينضب .

١٦ — ولن اصمت عن ذكر الفضيلة النادرة التي تحلى بها طاهي ذلك الدير فاني لما رايته يتأمل باستمرار ويبكي اثناء خدمته تضرعت اليه ان يخبرني كيف اهل لنعمة كهذه . فاجاب مرغما : لم افكر يوما اني اخدم الناس بل الله ، واذ حكمت على ذاتي بأني لا استحق اية راحة (٤) فان هذه النار المنظورة تذكرني كل حين باللهيب الآتي .

١٧ — ولنسمع عنهم فضيلة نادرة اخرى ؛ فان هؤلاء المغبوطين لم يكونوا ليكفوا عن العمل العقلي اذ اعتادوا ان يذكروا بعضهم بعضا بالصلاة الداخلية حتى اثناء الطعام . وذلك باشارة او علامة خفية معينة . وكنا نراهم يفعلون ذلك ليس فقط على المائدة بل في كل لقاء واجتماع .

١٨ — وكان اذا اذنب احدهم يتضرع اليه الاخوة رفاقه ان يدعهم يعتذرون عن الذنب لدى الراعي ، لاقتبال التوبيخ عوضا عنه . فاذ درى هذا العظيم بذلك كان يخفف العقوبة لعلمه بأن من يحتملها غير مذنب . ولم يكن بالطبع يفحص عمن ارتكب الذنب بالفعل .

١٩ — اين منهم الكلام البطال او المزاح ؟ اذا شرع احدهم يناثر قريبه كان من يجتاز بهما يعمد الى السجود له ليزيل بذلك غيظه . وان شعر بأنهما حاقدان كان لتوه يخبر بأمرهما الراعي الثاني بعد الرئيس وكان هذا يعمل على مصالحتهما قبل غروب الشمس . اما اذا استمرا على تصلبهما فكان يعاقبهما بعدم تناول الطعام الى ان يتصالحا او يطردا من الدير .

٢٠ — ولم يمارسوا هذا التشدد المحمود باطلا ، اذ قد اينع ثمرا وافرا ، فان كثيرين من هؤلاء الابرار قد برزوا في ميدان العمل والتأمل ، في التمييز والاتضاع . وكنت ترى مشهدا مهيبا ملائكيا : آباء وقورين جليلين مقبلين على الطاعة كالاطفال ؛ وكان تواضعهم هذا فخرا عظيما لهم . ورايت بينهم من كانوا يقيمون في الطاعة منذ حوالي خمسين سنة ، فتوسلت اليهم ان يفيدوني عن اية تعزية جنوها من مثل هذا التعب . فاجاب البعض بأنهم انحدروا الى قعر التواضع الذي يبعد عنهم كل قتال ، وقال آخرون انهم حازوا عدم التألم بل عدم الانفعال بالكلية ازاء التعييرات والشتائم .

٢١ — ورايت بين هؤلاء الدائمي الذكر آخرين ذوي شيبة ملائكية يشعون براءة عميقة وبساطة حكيمة تلقائية ملهمة من الله ، وليس كالشيوخ الفاقدي الادراك الذين الف الناس في العالم ان ينعتوهم بالخرف ، بل كانوا في ظاهرهم لطيفين عطوفين وديعين مشرقين ، بلا تكلف ولا تصنع ولا غش ، في كلامهم وفي طباعهم على

---

(٤) قد يقصد هنا هدوء التوحد .

http://coptic-treasures.com

السواء ، وهذا ما يندر وجوده . اما في داخلهم فكانوا يستمدون الروح كاطفال انقياء من الله نفسه ومن ابيهم الرئيس ويثبتون نظر ذهنهم بجراة في وجه الشياطين .

٢٢ — لا يكفي زمان حياتي ، ايها الرئيس الجليل والجماعه المحبوبة من الله . لأخبركم بفضائل هؤلاء الرهبان المباركين وسيرتهم السماوية . غير انه من الافضل ان اجمل حديثي لكم بذكر بعض اتعابهم واعراقهم من ان اعمد الى نصائحي التافهة لانهاض غيرتكم الى محبة الله ، لانه « بدون اي مشاجرة ، الادنى يجمل (بتشديد الميم وفتحها) من الاسمى » (٥) . فأسألكم فقط ان لا يظن احد اني اكتب ما اكتب لكي اغركم ، فان الارتياب يبطل الفائدة . فلنعد اذا الى سياق حديثنا .

٢٣ — ان رجلا اسمه ايسيدوروس من رتبة القضاه في الاسكندرية كان قد ترك العالم منذ بضع سنين وقصد الدير المذكور حيث وجدته . فلما استقبله في الدير ذاك الراعي البار ، لاحظ انه شرير الطبع ، فظ ، شرس ومتعجرف جدا . فعمد الكلي الحكمة ، في سبيل التغلب على الشياطين ، الى الاحتيال على خبثهم بحيلة بشرية وقال لايسيدوروس : ان كنت عزمت على حمل نير المسيح اريدك ان تحكم الطاعة قبل سائر الفضائل ، فأجاب : اني اطاوعك كما يطاوع الحديد الحداد ايها الاب القديس. فاغتنم الرئيس العظيم هذا التشبيه حالا ليروض « ايسيدوروس الحديد » وقال : اريدك يا اخي في الطبيعة ان تقف عند باب الدير وتسجد سجدة واحدة لكل من يدخل ويخرج منه قائلا : يا ابتاه صل من اجلي فاني مصروع . فاطاعه ايسيدوروس طاعة الملاك للرب ، وامضى واقفا هناك سبع سنوات بلغ في نهايتها الى اقصى الاتضاع وتوجع القلب . حينئذ رأى الرئيس الجليل ، بعد انقضاء السنين القانونية السبع وبالنظر لصبر ايسيدوروس المنقطع النظير ، انه اهل لأن يحصى مع الاخوة الرهبان ويشرطن كاهنا . اما هو فتضرع الى الراعي بلجاجة وبواسطة رهبان آخرين وبواسطتي انا الحقير ليدعه يتابع سعيه هناك مقيما على حاله السابق ، واشار بقول خفي الى قرب وفاته ودعوة الرب له . وهكذا كان . فانه اذ سمح له المعلم بأن يبقى حيث كان رقد بالرب بعد عشرة ايام مشرفا من جراء رفضه التشريف . وفي اليوم السابع لرقاده اخذ الرب اليه بواب الدير الذي كان قد وعده ايسيدوروس المغبوط بانهما سوف يجتمعان قريبا اجتماعا لا ينقطع ان حظي بدالة لدى الرب . وهذا ما جرى في الواقع لأجل وفرة طاعته العظيمة غير المعابة وتواضعه الالهي .

٢٤ — وقد سألت ايسيدوروس العظيم ، حين كان على قيد الحياة ، عن افكاره لما كان واقفا بالباب ، فلم يكتم عني الامر ، متوخيا منفعتي ، وقال : كنت اتصور في البداية اني قد بعت بسبب خطاياي ، ولذا كنت اسجد السجدة بكل مرارة ومشقة ودم . وبعد انقضاء عام واحد اصبحت لا آغتم بل اتوقع من الله اجر طاعتي . وبعد مرور سنة اخرى كنت افكر بكل صدق اني غير مستحق لسكنى الدير ولا لمعاينة الآباء ومخاطبتهم ، ولا لتناول الاسرار الالهية او النظر الى وجه احد . فكنت اطرق الى الارض بنظري واتذلل اكثر بفكري متوسلا الى الداخلين والخارجين ان يصلوا لأجلي .

٢٥ — وحدث مرة بينما كنا جالسين الى المائدة ان ذاك المعلم الكبير امال فمه المقدس الى اذني وقال : اتشاء ان اريك نبلا الهيا في شيبة قصوى ؟ فالتمست منه ان يمن علي بذلك ، فنادى راهبا عن المائدة الثانية اسمه لفرنيتوس كان في الدير منذ حوالي ثمان واربعين سنة وهو الكاهن الثاني في الشركة . فلما جاء جثا على ركبتيه امام الرئيس طلبا للبركة . وعند وقوفه لم يقل له الرئيس شيئا البتة بل تركه امام

---

(٥) انظر عب ٧ : ٧ .

http://coptic-treasures.com

المائدة منتصبا ، والبقية يأكلون (وكان ذلك حين دخولنا الى الطعام) ، فلبث واقفا اكثر من ساعة بل حوالي الساعتين . وكنت اخجل ان اتطلع الى وجه ذلك المجاهد ذي اللحية البيضاء البالغ الثمانين من عمره . فلما مكث هكذا الى النهاية دون ان يكلمه الرئيس بشيء وقمنا عن المائدة ارسله البار ليقول لايسيدوروس العظيم ان يتلو له بداية المزمور التاسع والثلاثين (٦) .

٢٦ ــ ولم يفتني انا الكثير الخبث ان اجرب الشيخ بسؤالي اياه عما كان يفكر اثناء وقوفه لدى المائدة فاجاب : لقد وضعت صورة المسيح على الراعي امامي ولم احسب قط انه هو الذي يأمرني بل الله . لذلك يا ابت يوحنا كنت احسب كأني واقف امام مذبح الله اصلي وليس امام الناس ، ولم يخالجني اي ظن سيء نحو الرئيس اطلاقا وذلك لايماني به وحبي له . لانه قيل : « المحبة لا تظن السوء » (٧) فاعلم ايها الاب انه اذا بذل احد ذاته طوعا للبساطة ومباينة الشر فلن يتيح للخبيث مكانا او فرصة للدخول اليه فيما بعد .

٢٧ ــ وقد نظر الله الى ذاك الراعي الفاضل والمخلص الحقيقي للأغنام الناطقة بتأييده تعالى فأرسل له آخر نظيره نادر العفة والوداعة ليكون مدبرا للدير . واتفق في يوم من ايام الآحاد ان انتهره الشيخ الكبير قاصدا منفعة الآخرين وامر بطرده من الكنيسة بلا سبب موجب . واذ علمت انه بريء مما نسب اليه دافعت عنه على حدة امام الرئيس العظيم . فأجاب الحكيم : انا اعرف هذا ايضا يا ابت ولكن كما انه لا يصح انتزاع قطعة الخبز من فم طفل جائع بل هو امر يدعو للشفقة والترثي كذلك فان المشرف على النفوس يظلم ذاته ومن معه اذا لم يوفر لهم في كل مناسبة اكاليل الصبر على الشتائم والاهانات وصنوف الاستهزاء والاحتقار ، بحسب تقديره لطاقة كل منهم في الاحتمال . لانه يفوت بذلك ثلاث فوائد جليلة ، الاولى : يفقد اجر الانتهار ، والثانية : يستطيع ان ينفع البعض من فضيلة غيرهم ولا يفعل ، والثالثة وهي الاهم : ان الذين يظنون انهم صبورون على الضيقات كثيرا ما ينقدون ما عندهم من وداعة وصبر اذا اهملهم رئيسهم زمانا طويلا بدون تقريع او توبيخ كونهم متأسسين في الفضيلة . لأن نقصان ماء الهوان من شأنه ان يجعل ارضهم ، وان كانت جيدة ومخصبة ، تعشب وتنبت شوك الغرور وفساد الاخلاق والاستهتار . وهذا ما ادركه الرسول العظيم فبعث يقول لتيموثاوس : « وبخ وعظ في وقت موافق وغير موافق » (٨) .

٢٨ ــ فاعترضت انا ذاك المرشد الحقيقي مذكرا اياه بضعف البشر وبأن كثيرين قد ينفصلون عن الرعية بسبب توبيخ باطل او ربما توبيخ محق . فعاد ذاك الراعي الكلي الحكمة واجاب : ان نفسا ارتبطت بحب راعيها والايمان به من اجل المسيح لا تنفصل عنه ولو كلفها هذا بذل دمها ، لا سيما اذا كان قد احسن اليها بمداواة جراحها لانها تذكر القائل : « فانه لا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا اية خليقة اخرى يمكنها ان تفصلنا عن محبة المسيح » (٩) . اما اذا كانت النفس غير مرتبطة بالراعي ولا مقيدة به وملتصقة على هذه الصورة فاني لأعجب كثيرا ان كانت لا تعيش في ذلك الدير باطلا . لأنها انما تكون مرتبطة به بطاعة كاذبة . وفي الواقع لم يخب

---

(٦) وهي الآية : « انتظرت الرب بصبر فاصغى الي .. » .
(٧) اكو ١٣ : ٥ .
(٨) انظر تي ٤ : ٢ .
(٩) انظر رو ٨ : ٣٨ .

http://coptic-treasures.com

هذا العظيم في سعيه بل ارشد وقاد الى الكمال وقرب للمسيح اغناما كثيرة لا عيب فيها .

٢٩ ــ لنسمع ونندهش لحكمة الله المستودعة في آنية ترابية . فاني قد عجبت هناك لايمان المبتدئين وثباتهم وصبرهم الجميل على فنون انتهارات الرئيس وتعييراته وطرده لهم احيانا ، وليس على تعييرات الرئيس فحسب بل من هم دونه بكثير ايضا . فقد استوضحت مرة لأجل بنياني احد الاخوة اسمه اباكريس كان قد قضى في الدير خمس عشرة سنة مظلوما مضاما من الجميع تقريبا ، وكان خدام المائدة يطردونه احيانا لانه لا يقوى على ضبط لسانه عن شيء من الثرثرة ، وقلت له : مالي اراك يا اخي اباكريس تطرد كل يوم من المائدة وكثيرا ما تنام بلا عشاء ؟ فأجابني : صدقني يا ابي ان آبائي يمتحنوني ليروا ان كنت اصلح للرهبنة ، وهم لا يفعلون ذلك عن قساوة حقيقية . وبما اني علمت بقصد ابينا الكبير وقصد الاخوة هذا فاني اصبر على هذا الضيم بلا استثقال . وها انه لي خمس عشرة سنة لا ازال افكر ، كما قالوا لي عند دخولي الدير ، انهم يختبرون الآتين اليه حتى تمام ثلاثين سنة . ولعمري فانهم يفعلون هذا بحق يا ابت يوحنا ، لأن الذهب لا يصير ذهبا صافيا خالصا ما لم يمتحن في الكور .

٣٠ ــ فلبث هذا الراهب الاصيل اباكريس سنتين في الدير بعد قدومي اليه ثم انتقل الى الرب وقد قال للآباء عندما فاضت روحه : اني اشكر الله واياكم شكرا جزيلا لأني بسبب امتحانكم لي لأجل خلاصي قد بقيت مدى سبعة عشر عاما غير مجرب من الشياطين . حينئذ حكم الراعي العادل بأن يوضع جسده باستحقاق في الموضع الخاص بالقديسين منزلا اياه منزلة المعترف .

٣١ ــ هذا ولا ريب اني سأظلم الاخوة الغيورين ان سكت عن ذكر فضيلة مكدونيوس رئيس الشمامسة وجهاده . فقد حدث مرة انه التمس من الراعي بالحاح الذهاب الى الاسكندرية قبل عيد الظهور الالهي بيومين لقضاء حاجة ماسة له واعطى وعدا بأن يعود عاجلا للاستعداد للعيد . ولكن الشيطان ماقت الخير عاقه فتأخر عن الموعد الذي حدده له الرئيس . ولما وصل الى الدير بتأخير يوم واحد اقاله الراعي من الشموسية وجعله مع المبتدئين . اما « شماس الصبر » هذا بل « رئيس شمامسة الثبات » فقبل قرار الأب الرئيس بهدوء تام كأن القصاص موجه الى غيره لا اليه . ولما قضى اربعين يوما في رتبة المبتدئين اعاد له الراعي الحكيم رتبته الاولى . ولكن لم يكد يمضي يوم واحد حتى طلب من الرئيس ابقاءه في وضع المبتدئين قائلا : اني اجترمت في المدينة ذنبا عظيما لا يغتفر . فعلم البار ان هذا القول غير صادق وانما طلب مكدونيوس ذلك حبا بالتواضع والهوان ، فلبى رغبته . فكان عندئذ مشهد غريب : شيخ وقور كل الشيب هامته يقضي ايامه كمبتدىء ويتضرع الى الكل باخلاص ليصلوا من اجله قائلا : اني سقطت في زنى عدم الطاعة . ولكن مكدونيوس العظيم هذا اسر لي انا الحقير سبب التماسه الطوعي لهذا الوضع الذليل فاكد لي قائلا : لم اشعر قط في حياتي بمثل هذه الراحة من كل حرب وبمثل حلاوة النور الالهي التي احس بها الآن . واستطرد قائلا : ان الملائكة لا يسقطون وربما يستحيل عليهم السقوط ، كما يقول البعض . اما الناس فيستطيعون ان ينهضوا كلما سقطوا مهما تكرر ذلك . ولكن الشياطين وحدهم اذا سقطوا لا ينهضون من بعد .

٣٢ ــ وقد صادقني مدبر الدير فأسر لي قائلا : عندما كنت شابا ومكلفا الاعتناء بدواب الدير سقطت مرة سقطة روحية كبيرة ، ولكني ، اذ اعتدت الا اخفي البتة حية ما في وكر قلبي ، اشهرتها حالا للطبيب . فربت على خدي بوجه مبتسم وقال :

http://coptic-treasures.com

«اذهب يا بني وتابع عملك كالسابق ولا تخف اطلاقا » . واذ قبلت ذلك منه بايمان ملتهب احسست يقينا بشفائي بعد ايام قليلة واكملت طريقي بفرح وخوف معا .

٣٣ ــ وكما ان هنالك فوارق كثيرة بين افراد الفئة الواحدة من كل فئات الخلائق ، على ما يقول البعض ، كذلك كانت هناك فوارق بين اخوة تلك الشركة سواء في النمو او في الطباع . ولذا لما لاح لذاك الطبيب ان البعض منهم يحبون التظاهر والتباهي عند قدوم اهل العالم لزيارة الدير عمد الى تعييرهم امام هؤلاء بأقسى التعييرات والى الزامهم بأحقر الاعمال ، حتى انهم صاروا ينصرفون عاجلا عند حضور الناس ، وحتى اصبح هذا الحضور عينه مدعاة لتغلبهم على انفسهم . فكنت ترى مشهدا عجيبا غريبا : الغرور يطارد ذاته ويهرب من الناس .

٣٤ ــ واذ لم يشأ الرب ان يحرمني صلاة اب قديس ، اخذ الله اليه قبل مغادرتي الدير بأسبوع واحد رجلا عجيبا يدعى ميناس كان الرجل الثاني في الشركة بعد الرئيس وقد عاش في الدير تسعا وخمسين سنة اضطلع فيه خلالها بمختلف الاعمال . وفي اليوم الثالث لرقاده ، بعد اتمامنا الصلوات التجنيزية عليه ، ملأت فجاة المكان كله رائحة زكية . فأمرنا الرئيس بكشف التابوت الذي كان قد وضع فيه ، وعند كشفه راينا جميعا طيبا زكيا يفيض من قدميه الكريمتين كمن ينبوعين . فقال المعلم اذ ذاك للجميع : انظروا ، ان عرق قدميه واتعابه الكثيرة قد قرب لله بمنزلة طيب وقبل حقا . هذا وقد حدثنا الآباء عن الكثير من نوادر ذاك القديس ميناس ومن جملتها الحادث التالي : اراد الرئيس مرة ان يمتحن صبره فلما اتى ميناس اليه عند المساء وسجد له الى الارض طالبا تعليماته كالعادة تركه الرئيس هكذا منطرحا مدة طويلة الى ان حان ميعاد الصلاة وعندئذ فقط باركه . وبعد ان وبخه لأجل حبه للظهور وعدم صبره انهضه . لقد علم الرئيس القديس ان ميناس سوف يحتمل كل ذلك بشجاعة وبالتالي صنع هذا لبنيان الآخرين . وقد اكد لنا احد تلامذة القديس ميناس صحة ذلك واضاف قائلا : لقد سألته عما اذا كان النوم قد تغلب عليه اثناء سجوده امام الرئيس فأكد لي انه تلا غيبا سفر المزامير بكامله اثناء انطراحه على الارض .

٣٥ ــ ولن يفوتني ان ارصع تاج هذه المقالة بالدرة التالية ايضا . فقد اثرت مرة ، مع بعض الشيوخ الأكثر شهامة بين الاخوة ، موضوع المفاضلة بين حياة الشركة وحياة التوحد ، فقالوا لي بوجه طلق وخلق باش : يا ابانا يوحنا بما اننا جسدانيون نحن نتبع سيرة جسدانية . لاننا راينا ان نخوض الحرب على قدر ضعفنا ، وحسبنا ان الافضل ان نصارع الناس ، الذين يستشيط غيظهم حينا ويندمون حينا آخر ، من ان نصارع الشياطين الذين يتحفزون ويثورون علينا كل حين .

٣٦ ــ ومرة اخرى قال لي بلطف احد اولئك الآباء الدائمي الذكر الذي كان قد احبني حبا جما في الرب واقتنى دالة علي : « ان كنت قد اقتبلت القوة التى فعلت في القائل من كل قلبه « استطيع كل شيء بالمسيح الذي يقويني » (١٠) ، وان كان قد حل عليك الروح القدس مع ندى الطهارة كحلوله على البتول ، وان كانت قوة العلي قد ظللتك بالصبر ، فانهض ايها الحكيم عن عشاء التوحد ، ومنطق حقويك بازار الطاعة كما فعل المسيح الاله واغسل ارجل الاخوة بروح منسحق ، بل الق بذاتك تحت اقدام الجماعة باتضاع واقم على ابواب قلبك حراسا صارمين لا ينامون واضبط فكرك الشارد باضناء جسدك ، واحكم هدوءا عقليا وسط اضطراب حواسك ،

---

(١٠) في ٤ : ١٣ .

http://coptic-treasures.com

بل كن في وسط الانفعال غير منفعل ، اكبح لسانك عن جموحه وقفزه في الحجج ، سبعة في سبعين مرة في اليوم اقمع هذا العاتي ، سمر عقلك في نفسك كما على صليب ، مضروبا بالمطرقة كالسندان ، مهزوءا به ، مثلوبا ، مقرعا ، مظلوما ، دون ان ينكسر او ينثلم قط ، بل مستمرا في كامل هدوئه وعدم انفعاله . اخلع مشيئتك الذاتية كمن يخلع ثوب خزي وانزل الى المعترك ، تسربل درع الايمان النادر الوجود ولا تنثلم او تنجرح بعدم الايمان برئيسك . اضبط بلجام العفة لمسك غير المحتشم واكبح بذكر الموت جموح عينيك المشغوفتين دوما برونق الاجسام وجمالها . ابكم عقلك المنشغل باهتماماته الخاصة ، والمتسرع في ادانة الاخوة ، واظهر كامل حبك وودك لقريبك عمليا وفي كل مناسبة . فبهذا يا ابت العزيز يعلم الجميع اننا تلاميذ المسيح حقا ، ان كان لنا حب بعضنا لبعض ضمن شركة الاخوة » . ثم قال لي هذا الصديق الكريم : « هلم هلم واسكن معنا ، تعال واشرب الاستهزاء كل ساعة بمنزلة ماء حي ، فان داود لما تقصى كل الخيرات التي تحت السماء انتهى الى القول بانذهال : « هوذا ما احسن وما اجمل ان تسكن الاخوة معا » (١١) . فاذا كنا لم نؤهل بعد لهذا الخير اعني لمثل هذا الصبر وتلك الطاعة فالافضل لنا ان نعرف ضعفنا ونقف بعيدا عن ميدان الجهاد ونغبط المجاهدين وندعو لهم بالصبر » .

فانغلبت للحجج الوجيهة التي اتاني بها على منوال انجيلي ونبوي ذلك الأب والمعلم الفاضل ، بل الصديق الكريم ، ووافقته كل الموافقة على تفضيل سيرة الطاعة المباركة على سيرة التوحد .

٣٧ ــ هذا وقد تذكرت فضيلة مفيدة اخرى من فضائل هؤلاء المغبوطين النابعة كمن فردوس ، سأوردها قبل ان اعود الى اشواك اتوالي وقحطها العادم النضارة والنفع . فقد لاحظ الراعي بعض الاخوة يتحادثون مرارا وقت الصلاة الجماعية فأمرهم بالوقوف على باب الكنيسة اسبوعا كاملا والسجود لكل من الداخلين والخارجين رغم انهم كانوا من الاكليريكيين بل من الكهنة .

٣٨ ــ ولاحظت مرة اثناء تلاوة المزامير ان احد الاخوة يقف مصليا باحساس قلبي يفوق احساس الكثيرين وانه يبدو على وجهه وكأنه يخاطب قوما قد الف مخاطبتهم . فسألته مستفسرا امره . ولما كان يعلم انه لا يجوز اخفاء ما هو للمنفعة قال : يا ابانا يوحنا اني قد اعتدت عند بدء التسبيح ان اجمع افكاري وعقلي ونفسي وادعوها صارخا بها : « هلموا نسجد ونركع للمسيح ملكنا والهنا » .

٣٩ ــ وراقبت مرة الاخ المكلف بغرفة الطعام فلاحظت انه يحمل على الدوام دفترا صغيرا معلقا في زناره ، ثم علمت انه يكتب عليه كل يوم خلاصة افكاره ليكشفها للأب الرئيس . ثم رايت ان كثيرين آخرين يصنعون كذلك ايضا ، وقيل لي ان هذا انما هو بأمر مرشدهم العظيم .

٤٠ ــ وحدث يوما ان طرد الرئيس احد الاخوة لانه وشى برفيقه ناعتا اياه بالثرثرة والهذر . فلبث الراهب المطرود على باب الدير اسبوعا كاملا متوسلا من اجل العودة والغفران . ولما علم به الرئيس المحب النفوس وتحقق انه لم يتناول شيئا من الطعام ستة ايام كاملة قال له : ان كنت ترغب كل الرغبة في ان تبقى في الدير فسأنزلك الى رتبة التائبين . ولما قبل الراهب التائب ذلك بفرح امر الراعي بارساله الى الدير الخاص بالمنتحبين على زلاتهم . وهكذا كان . وما دمنا قد ذكرنا هذا الدير فلنتكلم عنه قليلا .

---

(١١) مز ١٣٢ : ١ .

http://coptic-treasures.com

٤١ ــ كان ذلك سجنا بعيدا عن الدير مقدار غلوة واحدة (١٢) يخلو من كل تعزية . لم يكن يرى هناك نار لطبخ الطعام قط ولا خمر ولا زيت ولا شيء اخر ، سوى الخبز والبقول الخفيفة . وكان الراعي يسجن فيه الذين يرتكبون الزلات بعد زهدهم في العالم . ولم يكونوا يسكنون معا بل كلا على حدة او اثنين اثنين على الاكثر . وكانوا يبقون هناك الى ان يعلن الرب تقويمهم للرئيس . وكان قد اقام عليهم رجلا عظيما اسمه اسحق كان يلزمهم بصلاة تكاد تكون بلا انقطاع . وكان عندهم كمية كبيرة من الخوص لضفر السلال منعا للضجر . تلك هي حال الذين « يلتمسون حقا وجه اله يعقوب » (١٣) ، وتلك هي حياتهم وسيرتهم .

٤٢ ــ ولعمري ان الاعجاب بأتعاب القديسين حسن والاقتداء بهم يؤول الى الخلاص . اما مماثلة سيرتهم دفعة واحدة فأمر متعذر وغير معقول .

٤٣ ــ اذا كان ضميرنا ينخسنا بسبب مخازينا فلنثابر على ذكر خطايانا بتوجع الى ان يرى الرب صبرنا ، صبر من يغصبون ذواتهم من اجله ، فيمحوها وينقل حزن قلبنا الى فرح ، لانه قيل « ككثرة اكداري في قلبي فرجت تعزياتك عن نفسي (١٤) . وايضا : « ما اكثر وما امر الاحزان التي اريتني لكنك عدت فأحييتني ومن اعماق الارض أصعدتني » (١٥) .

٤٤ ــ مغبوط هو من يعير ويزدرى به كل يوم فيضبط نفسه من اجل الرب ، فانه سينضم الى مصف الشهداء ويناجي الملائكة . مغبوط الراهب الذي يحتسب نفسه مستوجبا كل حين لكل مهانة وتحقير . مغبوط هو من يميت ارادته حتى النهاية ويسلم امره لمرشده في الرب ، فانه سيقف عن ميامن المصلوب . اذا ابى احد ان يقبل توبيخا ، محقا كان او غير محق ، فقد رفض خلاص نفسه ، واذا قبل التوبيخ بتعب ، او حتى بغير تعب ، حظي سريعا بغفران خطاياه .

٤٥ ــ اظهر لله بالروح ايمانك بأبيك وحبك الصادق له وهو عز وجل سيوحي اليه بطرق يعلم بها ان يعطف عليك حسب ميلك انت اليه .

٤٦ ــ من يشهر لمرشده كل افعى من افاعي افكاره يظهر ان له ايمانا جليا به . اما من يخفيها فهو لا يزال تائها في قفار لا طريق فيها ولا دليل .

٤٧ ــ يعرف المرء صدق حبه لأخيه ومودته له متى حزن لهفواته وفرح لتقدمه وما يناله من النعم .

٤٨ ــ من يبتغي اقامة قوله في الحديث (١٦) ولو كان قوله حقا فليعلم انه مريض بمرض الشيطان (١٧) . وان كان يفعل ذلك مع اترابه فقد يشفيه يوما انتهار من هم اكبر منه . اما اذا كانت هذه حاله مع من هم اكبر منه واوفر حكمة فلا شفاء لمرضه عند البشر .

٤٩ ــ من لا يكون مطيعا في كلامه فمن البين انه لن يكون مطيعا في عمله . لان غير الامين في القليل غير امين في الكثير وعديم الانصياع . انه يتعب عبثا ولن يجني من الطاعة المقدسة سوى دينونة لنفسه .

٥٠ ــ من كان ضميره نقيا كل النقاوة من جهة طاعته لأبيه فذاك ينتظر الموت

---

(١٢) نحو ١٨٥ مترا .
(١٣) مز ٢٣ : ٦ .
(١٤) مز ٩٣ : ١٩ .
(١٥) مز ٧٠ : ٢٠ .
(١٦) اي ترجيح قوله على قول الآخرين .
(١٧) اي بالتكبر .

http://coptic-treasures.com

كل يوم كأنه نوم بل كأنه حياة ولا يرتاع منه لعلمه اليقين بأنه عند انتقاله لن يحاسب هو بل يحاسب رئيسه عنه .

٥١ ــ من تسلم طوعا عملا ما من ابيه في الرب فتعرض فيه لسقطة غير متوقعة فلا ينسبها الى من سلم السلاح بل الى من استلمه ، لأنه استلمه لمحاربة العدو ولكنه عطفه الى قلبه . اما اذا كان قد الزم نفسه بقبول ذلك العمل من اجل الرب بعد ان بين ضعفه لمن امره به فليتشجع فانه لم يمت وان كان قد سقط .

٥٢ ــ لقد فاتني ايها الاصدقاء ان اضع امامكم كخبز لذيذ الطعم الفضيلة الآتية ، فاني رايت في ذلك الدير رهبانا يعرضون (بتشديد الراء) ذواتهم طوعا للتعيير والهوان من اجل الله لكي يهيئوا بهذا انفسهم ولا يعودوا يخشون الهوان العارض لهم من الآخرين .

٥٣ ــ اذا عزم المرء على الاعتراف بخطاياه على الدوام فان هذا العزم يكون له بمثابة لجام يردعه عن ارتكاب الخطيئة ، لأن ما لا نعترف به نفعله دون خوف كما في الظلام .

٥٤ ــ متى غاب رئيسنا فتصورنا وجهه امامنا وحسبنا انه واقف معنا ، وتراجعنا عن كل لقاء او كلام او طعام او نوم او غيره مما يكرهه فينا ، فلنعلم ان طاعتنا هي طاعة حقيقية لا غش فيها . ان اولاد الحرام يفرحون بغياب معلمهم ، اما اولاد الحلال فيعدونه خسارة .

٥٥ ــ سألت مرة احد الرهبان الاكثر خبرة كيف تأتي بنا الطاعة الى التواضع فقال : ان المطيع الفطن ، وان اقام الموتى وحاز موهبة الدموع والعتق من القتال ، يعتقد كل الاعتقاد ان صلاة ابيه هي التي فعلت ذلك ، فيبقى بالتالي غريبا عن الغرور اذ كيف يقدر ان يتكبر وهو نفسه يقول ان ما حظي به انما كان له بمعونة ابيه وليس بجهده ؟

٥٦ ــ اما المتوحد فليس كذلك لأن اتعابه النسكية توحي له انه قد احكم ما احكم باجتهاده الذاتي فتبعث فيه الغرور .

٥٧ ــ من يعيش بالطاعة يتخطى فخين اثنين ويستمر خادما مطيعا للمسيح الى الابد .

٥٨ ــ فان الشيطان يقاتل (١٨) العائشين في الطاعة بتدنيسهم وتقسية قلوبهم احيانا ، واحيانا اخرى بالقائهم في اضطراب غير اعتيادي ، او يجعلهم جافين وعقيمين ، شرهين وكسالى في الصلاة ، غافلين ومظلمين ، وذلك ليكفهم عن جهادهم موهما اياهم بأنهم لم ينتفعوا من الطاعة شيئا بل عادوا الى الوراء . لأنه لا يدعهم يفطنون الى ان فراغنا من الصالحات كثيرا ما يؤول بنا بتدبير الهي الى تواضع اعمق .

٥٩ ــ ولكن كثيرا ما يهزم البعض هذا الماكر الخداع بالصبر ، الا انه ما ان يصمت حتى يقف بنا شيطان آخر محاولا ان يخدعنا بصورة اخرى (١٩) . فقد رايت رهبانا مطيعين قد اصبحوا بحماية ابيهم الروحي سريعي التوجع على خطاياهم ، عطوفين ، ضابطين انفسهم عن الاهواء ، نشيطين ، غير محاربين (بفتح الراء) ، حارين بالروح . ولكن الشياطين وقفوا بهم واوحوا اليهم انهم اصبحوا قادرين على حياة التوحد وانهم سيدركون فيها الجعالة الاخيرة الا وهي التحرر من الاهواء . فانخدعوا وغادروا الميناء الى اللجة حيث دهمتهم العاصفة . واذ لم يكن لهم مدبر تورطوا تورطا يرثى له في خطر هذا البحر الوسخ المر .

---

(١٨) انه الفخ الأول .

(١٩) وهو الفخ الثاني .

http://coptic-treasures.com

٦٠ ــ لا بد ان يتعكر هذا البحر ويضطرب ويهتاج حتى يرد (بتشديد الدال) الى اليابسة ما جرفته اليه انهر الاهواء من اخشاب واعشاب وكل عفن . فاننا اذا انتبهنا نجد ان سكونا عميقا يخيم على البحر بعد كل عاصفة تهب عليه .

٦١ ــ من يطيع اباه احيانا ويعصاه احيانا اخرى يشبه رجلا يقطر في عينيه دواء احيانا ، واحيانا احد الحوامض . وقد قيل : « واحد بنى وآخر هدم فماذا انتفعنا سوى التعب ؟ » (٢٠) .

٦٢ ــ ايها الابن والعبد المطيع للرب لا تنخدع بروح الغرور فتكشف ذنوبك لمرشدك كأنها ذنوب شخص آخر . فانك لا تستطيع الهرب من العار الا بالعار . من عادة الشيطان في كثير من الاحيان ان يقنعنا بألا نعترف البتة او بأن نعترف وكأننا نقر بخطايا غيرنا ، او ان نلقي اللوم في خطيئتنا على الآخرين . اكشف جرحك للطبيب مجردا عاريا . قل ولا تخجل : يا ابت هذا الجرح جرحي ، هذه الضربة ضربتي ، قد حدثت من توانى فقط . انا احدثتها باهمالي وحسب ولا يلام بسببها انسان ولا روح ولا جسد ولا شيء آخر سوى تهاوني ...

٦٣ ــ حين اعترافك بخطاياك انسحق بخلقك ومظهرك وفكرك كأنك مجرم تحاكم . اطرق براسك الى الارض وبل بدموعك ان امكنك قدمي قاضيك وطبيبك كأنه المسيح .

٦٤ ــ ان كان كل شيء يخضع للعادة ويتبعها فبالاحرى كثيرا ممارسة الاعمال الصالحة لأن الله منجد عظيم لها .

٦٥ ــ يا بني ان انت سلمت ذاتك في بدء طريقك ، ومن كل نفسك ، الى مكاره الهوان فلن تتعب سنين كثيرة حتى تجد السلام .

٦٦ ــ لا تستصغر ان تعترف بخطاياك بانسحاق كأنك تعترف بها لله معينك ، فاني رايت مجرمين قد لينوا صرامة القاضي وحولوا غضبه الى رأفة بفضل خلقهم المنسحق واعترافهم الصادق الحار وضراعتهم . ولذلك كان يوحنا السابق ايضا يسأل القادمين اليه ان يعترفوا قبل اعتمادهم ، ليس لأنه كان محتاجا الى اعترافهم بل تحقيقا لخلاصهم .

٦٧ ــ لا نعجبن لاستمرار القتال علينا بعد اعترافنا بخطايانا فان مصارعة الافكار افضل من مصارعة الغرور .

٦٨ ــ لا تثبرنك اخبار الآباء المتوحدين وتحركنك الى اقتفاء آثارهم فانك منتظم في جيش الشهيد الاول (٢١) . واذا سقطت فلا تنصرف من الميدان لأننا حينذاك نحتاج الى طبيب اكثر من اي وقت آخر . فان من صدم بحجر رجله مع الاعانة كان عتيدا بدون اعانة لا لأن يعثر فقط بل لأن يموت .

٦٩ ــ عندما نكون مطروحين ارضا تسارع الشياطين الى الوقوف بنا ، مغتنمة فرصة سقطتنا كحجة معقولة ، وبالحري غير معقولة ، لتحضنا على ايثار حياة التوحد على حياة الطاعة . وغاية اعدائنا من ذلك ان يزيدونا جروحا بعد سقوطنا .

٧٠ ــ اذا تذرع الطبيب بعجزه عن مداواتك فلا بد من الذهاب الى طبيب آخر اذ يندر شفاء احد بدون طبيب . ومن ذا الذي يخالفنا في ان السفينة التي تغرق بادارة ربان محنك سوف تفقد كليا بلا ربان ؟

٧١ ــ يتأتى التواضع من الطاعة ، واللاهوى من التواضع ، « لأن الرب في

---

(٢٠) ابن سيراخ ٣٤ ــ ٢٣ .

(٢١) المسيح .

http://coptic-treasures.com

مذلتنا ذكرنا وخلصنا من اعدائنا » (٢٢) فليس اذاً ما يمنع من القول بأن اللاهوى يتأتى من الطاعة ، اما التواضع فيعود ويكتمل باللاهوى . لأنه وان كان قد ولد اللاهوى ، كما اعطى موسى الشريعة ، غير ان الابنة تكمل (بتشديد الميم) الأم بنورها كما كملت مريم مجمع اليهود .

٧٢ ــ ان النفوس المريضة التي تتداوى لدى طبيب وتنتفع منه ثم تتركه قبل ان تشفى تماما ، مفضلة عليه طبيبا آخر ، تستحق كل قصاص من الله . لا تفلت من يدي الذي حملك الى الرب فانك لن تجل في حياتك احدا نظير اجلالك له .

٧٣ ــ ان الجندي العادم الخبرة الذي ينفصل عن جماعة الجند وينفرد في القتال لا يسلم من الخطر . وكذلك الراهب الذي ينفصل عن جماعة الاخوة ويتوحد قبل ان يختبر نفسه مدة طويلة متبينا اهواءها ومتدربا على محاربتها يعرض نفسه للخطر ، فالاول يغامر بجسده اما الثاني فبنفسه ، وقد قال الكتاب : « اثنان خير من واحد » (٢٣) اي خير ان يشارك الأب ابنه في مجاهدة اهوائه بقوة الروح الالهي . من يعدم الاعمى مرشده والقطيع راعيه والضال هاديه والطفل اباه والمريض طبيبه والسفينة ربانها يعرضهم جميعا للخطر . وكذلك فان الارواح الشريرة تميت من يصارعها خلوا من عضد .

٧٤ ــ على الداخلين الى المستشفى بياس اوجاعهم ، وعلى القادمين الى الطاعة اظهار اتضاعهم . لأن سكون اوجاع الاولين وازدياد ملامة الآخرين لأنفسهم هما العلامة الثابتة الوحيدة لشفائهم .

٧٥ ــ حسبك أن يكون ضميرك مرآة لطاعتك .

٧٦ ــ ان العائشين في التوحد خاضعين لأب روحي تعاندهم الشياطين فقط . اما العائشون في جماعة الاخوة فيتصارعون مع الشياطين والبشر . الاولون هم تحت نظر معلمهم على الدوام ولذا يحفظون اوامره بدقة ، اما الآخرون فبسبب عدم حضور معلمهم بقربهم حضورا متواصلا كثيرا ما لا يتقيدون بوصاياه . غير ان الغيورين منهم والمجتهدين يعوضون عن هذا التقصير بصبرهم على الصدمات والمضايقات فيجنون اكاليل مضاعفة .

٧٧ ــ لنحترس لأنفسنا كل الاحتراس لأن السفن تحطم بعضها بعضا بسهولة في الميناء اذا كان مزدحما لا سيما المنخورة منها بالفيظ كما بدودة خفية .

٧٨ ــ لنحكم غاية الاحكام الصمت والجهل في حضرة رئيسنا . فان الرجل الصامت هو ابن للحكمة يزداد معرفة على الدوام .

٧٩ ــ رأيت راهبا بارعا في التقاط الحديث من فم رئيسه . ولما رأيته منقادا للتباهي بذلك وليس للاتضاع يئست من طاعته .

٨٠ ــ لنتيقظ كل التيقظ ونتنبه ونرصد كي نعرف متى وكيف يجب تفضيل الخدمة على الصلاة ، لأنه لا ينبغي تفضيلها كل حين ولا على الاطلاق .

٨١ ــ انتبه لنفسك حين وجودك مع الاخوة ولا تبادر قط في اي ظرف كان ان تظهر اوفر برا منهم ، فانك تعمل بهذا شرين : تقرعهم بغيرتك الكاذبة وتوجد لنفسك سببا للاستعلاء .

٨٢ ــ كن غيورا في داخلك ولا تظهر غيرتك البتة لا بحركاتك ولا بهيئتك ولا بكلامك ولا بتلميحك . هذا اللهم اذا كنت قد كففت عن ازدراء قريبك . اما اذا كنت لا تزال تجنح الى ازدرائه فصر بالحري شبيها باخوتك لا مختلفا عنهم بغرورك .

---

(٢٢) مز ١٣٥ : ٢٣ ــ ٢٤ .

(٢٣) جامعة ٤ : ٩ .

http://coptic-treasures.com

٨٣ ــ رايت تلميذا بطالا يتباهى لدى بعض الناس بما احكمه معلمه من الفضائل ظانا انه يدخر لنفسه مجدا من قمح ليس له ولكنه سبب لنفسه بالاحرى هوانا لما قالوا جميعهم : « كيف افرعت شجرة جيدة غصنا بلا ثمر ؟ » .

٨٤ ــ لا نحكمن بأننا صبورون اذا احتملنا استهزاء ابينا بشجاعة بل اذا احتملنا الاستهزاء من اي انسان نستهين به ، لاننا انما نخشى ابانا فنحتمله عن اضطرار .

٨٥ ــ اشرب الاستهزاء برغبة بمثابة ماء حي من كل انسان يتوخى ان يسقيك دواء منقيا لفسقك ، فتشرق في نفسك حينذاك طهارة عميقة ولن يغيب نور الله عن قلبك .

٨٦ ــ لا يفتخرن احد في قلبه اذا رأى انه قد اراح جماعة الاخوة فان السراق يحيطون به ، بل لنذكر دائما القائل : « اذا عملتم ما امرتم به فقولوا اننا عبيد بطالون ، انما صنعنا ما توجب علينا » (٢٤) . ولسوف نعرف قيمة اتعابنا عند وفاتنا .

٨٧ ــ الدير سماء ارضية فلنحث اذا قلوبنا على ان نكون فيه كملائكة يخدمون الرب . ان قلوب القاطنين في هذه السماء تكون احيانا قاسية كالحجر ، ولكنهم احيانا اخرى ينعمون بالتعزية من خلال نخس التوبة ، وذلك لكي ينجوا من الغرور ، فتخفف الدموع وطأة اتعابهم .

٨٨ ــ نار قليلة تلين شمعا كثيرا ، وهوان يسير كثيرا ما يلين ويسكن فجاة كل نزق قلبنا وغفلته وقساوته ويزيلها .

٨٩ ــ شاهدت مرة اثنين جالسين يرصدان خفية اتعاب المجاهدين ويستمعان الى تأوهاتهم . اما الواحد فبغية التشبه بهم واما الآخر فلكي يشهر يوما ما سمع وذلك ازدراء بعمال الله وليقطعهم عن عملهم الصالح .

٩٠ ــ لا تكن صامتا ابكم اذا كان هذا يسبب قلقا ومرارة للآخرين ، ولا تكن كسولا متباطئا في خطواتك اذا امرت ان تسرع ، والا فقد صرت شرا من الهائجين الفائرين . وكثيرا ما رأت عيني كما يقول ايوب (٢٥) نفوسا تنزعج من المتمهلين المتباطئين ، ولكني رأيت غيرها تنزعج من النشيطين العجولين . فعجبت لتنوع الشر .

٩١ ــ لا يستطيع الراهب في وسط الجماعة الاستفادة من ترتيل المزامير بقدر استفادته من الصلاة الداخلية ، لأن اختلاط الاصوات يشوش المزمور ويشتت الانتباه اليه .

٩٢ ــ صارع فكرك بلا انقطاع وكلما شرد طائشا عد واجمعه . لأن الله لا يطلب من العائشين في الطاعة صلاة خالية من شرود الذهن . فلا تقلق اذا ان اختلس انتباهك ، بل تشجع واسترجع دائما ذهنك اليك ، فان الملاك وحده لا يسلب انتباهه .

٩٣ ــ من عقد النية في سريرة نفسه على الا ينصرف من ميدان المصارعة حتى النفس الاخير ، ولو تحمل الوف الميتات في جسده ونفسه ، لن يعثر بسهولة بأي من هذه الشوائب وامثالها لأن ارتياب القلب وعدم امانته للمكان يؤولان به دائما الى التعثر والسقوط . فالجانحون الى الانتقال من مواضعهم بأيسر مرام يفشلون كليا . اذ لا شيء كعدم الصبر ينشىء عدم الاثمار .

٩٤ ــ ان اتيت الى طبيب ومستشفى لا تعرف شيئا عنهما فكن بمثابة مجتاز

---

(٢٤) لو ١٧ : ١٠ .

(٢٥) ايوب ١٢ : ١ .

http://coptic-treasures.com

بذاك المكان ، واختبر سرا جميع الذين هناك . فان شعرت بفائدة في مداواة امراضك لدى الاطباء والمساعدين ، ولا سيما في ما تتوخاه من علاج لانتفاخ النفس فاقدم حينذاك وبع ذاتك لهم بذهب التواضع وصك الطاعة ، بأحرف الخدمة وشهادة الملائكة . ومزق في هذه الصفقة صك مشيئتك الذاتية تمزيقا . لانك ان تمسكت بها فلسوف تتسبب في ابطال فداء المسيح لك . وليصر لك ذاك المكان قبرا قبل القبر ، فانه لا يخرج احد من القبر قبل القيامة . وان كان قد خرج البعض من ديرهم فانظر : انهم قد ماتوا . فنتوسل الى الرب الا يصيبنا مثل هذا .

٩٥ ــ اذا وجد الكسالى ان الاوامر في الدير ثقيلة عمدوا الى تفضيل الصلاة على الطاعة . واذا وجدوها خفيفة هربوا من الصلاة هربهم من النار .

٩٦ ــ يوجد من اذا كان يباشر عملا وطلب اليه احد الاخوة ان يقوم به عوضا عنه يسمح به من اجل اراحة الأخ . ويوجد من يسمح به بدافع الكسل ، او لا يسمح به بدافع المجد الباطل ، كما يوجد من لا يسمح به لغيرته ونشاطه .

٩٧ ــ ان كنت قد التزمت فارتبطت بالمكان ثم لاحظت ان عين نفسك لا تزداد فيه استنارة فلا تطلب ان تحل التزامك . فالصالح صالح في كل مكان والعكس بالعكس . ان التعيير يؤول في العالم الى الافتراق . اما في جموع الرهبان فان الشراهة تولد السقوط ومن ثم الارتحال ، فان تسلطت على سيدك (٢٦) فأينما اقمت تبلغ الى التحرر من الاهواء . اما اذا تسلط هو عليك فما دمت خارج القبر فسوف تكون في خطر حيثما حللت .

٩٨ ــ الرب الذي يعطي الحكمة للعميان (٢٧) ينبه الحاظ المطيعين الى فضائل مرشدهم ويغمضها عن نقائصه . اما ماقت الخير فيفعل عكس ذلك .

٩٩ ــ ليكن لنا « الزيبق » يا اخوة رسما للطاعة الفضلى ، فانه من ساعته يرسو في العمق تحت كل شيء ولا يختلط بأي وسخ .

١٠٠ ــ ليتنبه المجتهدون الى عدم ادانة المتوانين لئلا يقعوا تحت دينونة اعظم . ويلوح لي ان لوطا قد تبرر لأنه وهو يقيم بين المتوانين لا يبدو قط انه قد ادانهم يوما .

١٠١ ــ لنبق على الدوام هادئين غير قلقين ، خاصة في الكنيسة وقت التسابيح . فان غرض الشيطان من اقلاقنا هو ملاشاة صلاتنا .

١٠٢ ــ ان خادم الله هو الذي اثناء الصلاة يقرع بعقله السماوات فيما جسده بين الناس .

١٠٣ ــ ان الشتائم والاهانات وامثالها هي عند المطيع كمرارة الافسنتين ، في حين ان المدائح والاكرام والتأييد عند محبي اللذة هي كالعسل تولد كل حلاوة . ولكن فلننظر الى طبيعة كل من الافسنتين والعسل : فالاول يطهر من كل عكر داخلي بينما الثاني يزيد في افراز مادة الصفراء المرة .

١٠٤ ــ لنأتمن المتقلدين امرنا في الرب باطمئنان ولو امرونا بما يبدو منافيا لخلاصنا . لانه حينذاك وحينذاك فقط يختبر ايماننا بهم كما في اتون من الاتضاع . لان علامة الايمان الاكثر صدقا هي ان نطيع اولياءنا دون تردد حين يأمروننا بعكس ما نرجو او نتوقع .

١٠٥ ــ يتولد التواضع من الطاعة كما سبق القول ، ومن التواضع التمييز كما يعلم كسيانوس العظيم بحكمة فائقة السمو في مقاله عن التمييز . ومن التمييز تتولد الفطنة . ومن الفطنة التبصر في الامور وادراكها قبل وقوعها . فمن ذا الذي لا يعدو

---

(٢٦) بطنك .

(٢٧) مز ١٤٥ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

في طريق الطاعة هذه وهو يرى هذه الخيرات المعدة له ؟ ولقد قال فيها ذلك المرنم الجليل : « لقد هيأت بصلاحك للفقير المطيع يا الله حضورك في قلبه » (٢٨) .

١٠٦ ــ لا تنس مدى حياتك ذاك المجاهد العظيم الذي لم يسمع من رئيسه ، بأذنيه الخارجيتين طيلة ثماني عشرة سنة ، كلمة « علك تخلص » . اما بأذنيه الداخليتين فكان يسمع من الرب ليس كلمة « علك تخلص » التي هي مجرد تمن غامض ، بل « انت خالص » ، التي هي تأكيد واضح .

١٠٧ ــ ان بعض العائشين في الطاعة يستغلون تساهل رئيسهم ولطفه ليستأذنوه في اتباع ما يوافق رغائبهم . ولكن فليعلم هؤلاء انهم بحصولهم على ما يريدون يحرمون انفسهم كليا من اكليل الجهاد . لأن الطاعة غريبة عن المداهنة والرغبات الخاصة .

١٠٨ ــ هناك من يتلقى امرا ثم يدرك ان من اصدره لا يرضى ولا يرغب في تحقيقه ، فيمتنع عن تنفيذه . وهناك من يفطن لذلك ولكنه يطيع فينفذ الامر على علاته . ترى من منهما أحسن التصرف اكثر ؟

١٠٩ ــ لا يمكن ان يوحي الينا الشيطان بما ينافي ارادته . وليقنعك بهذا الذين يقضون حياة سهلة مسترخية وهم يقيمون سواء في منسك او في دير لا يجربهم الشيطان بالانصراف . بل فلتكن تجربة الانصراف من مكاننا اذا حاربنا الشيطان بها برهانا على حسن ارضائنا لله فيه ، ما دامت تلك التجربة علامة على اننا في نضال وحرب .

١١٠ ــ لن اكون بخيلا ظالما باحتفاظي لنفسي بما لا يجوز السكوت عن الاخبار به . فقد حدثني يوحنا الساباوي الذائع الصيت عن اعمال جديرة بالسماع ؛ وانت تعرف بالخبرة ايها البار ان ذاك رجل متحرر من الاهواء ، متطهر من كل كذب ومن كل عمل او كلام شرير ، فقال : « ان احد الشيوخ في ديري في آسيا الصغرى (اذ كان قد قدم من هناك) كان متوانيا وفظا جدا . واقول هذا لأكون صادقا ولست ادينه . هذا الشيخ لا اعلم كيف اقتنى تلميذا عجيبا اسمه اكاكيوس ؛ كان بسيط الخلق ، فطنا ، وقد صبر على مصاعب جمة لا تصدق انزلها به شيخه ، الذي لم يكن يعذبه كل يوم بالشتائم والاهانات وحسب بل بالضرب ايضا . ولم يكن صبره هذا عن حماقة . وكنت اراه كل يوم شقيا بمنزلة عبد حقير فأقول له حين اصادفه : ما هذا يا اخي اكاكي ؟ كيف حالك اليوم ؟ فكان يريني للوقت عينه مسودة متورمة او رقبته متهشمة او رأسه مفدوغا . ولعلمي انه مجاهد كنت اقول له : حسنا حسنا ، اصبر تنتفع . هذا اقام مدة تسع سنوات مع ذلك الشيخ الظالم ومضى الى الرب . وبعد دفنه في مدفن الآباء بخمسة ايام ذهب معلمه الى احد الشيوخ الكبار وقال له : يا ابانا لقد مات الأخ اكاكيوس . فما ان سمع هذا حتى اجاب : في الحقيقة ايها الشيخ لا اصدق ! فقال : تعال وانظر ، فنهض مسرعا حتى وصل الى المدفن بصحبة معلم ذاك المجاهد المخبوط ، وصاح كأنه يخاطب شخصا حيا راقدا : يا اخانا اكاكي هل مت ؟ فأوضح المطيع طاعته حتى بعد الممات واجاب : يا ابت كيف يمكن ان يموت انسان قد حفظ الطاعة ؟ حينئذ ارتاع معلمه المزعوم وسقط على وجهه يذرف الدموع . وعلى اثر ذلك طلب الى رئيس الدير قلاية كانت ملاصقة لذاك القبر وعاش هناك بقية عمره بتعقل قائلا للآباء : « انني قد ارتكبت جريمة القتل » . ويبدو لي يا ابت ان يوحنا العظيم هذا هو الذي كلم الميت . لأن ذاك

---

(٢٨) انظر مز ٦٧ : ١٠ .

http://coptic-treasures.com

المغبوط روى لي قصة اخرى عن شخص كأنها عن غيره ، في حين انها كانت عنه ، كما استطعت ان اتأكد من ذلك فيما بعد .

١١١ ــ روى فقال : « وكان في ذلك الدير نفسه في آسيا راهب آخر متتلمذا لشيخ وديع لطيف هادىء . واذ لاحظ ان الشيخ يكرمه ويراعيه راى صوابا ان هذا التصرف غير آمن للجميع ، فتضرع اليه ان يطلقه فتم ذلك بسهولة اذ كان للشيخ تلميذ آخر . وهكذا ذهب مزودا برسالة من معلمه ودخل ديرا في البنطس . وفي اثناء ليلته الاولى في الدير ابصر في الحلم رجالا اتوا يطالبونه بدين عليه تبين بعد حساب دقيق ومرعب انه يبلغ مئة ليرة ذهبية . وعندما افاق من نومه ادرك معنى الحلم وقال مخاطبا نفسه : ايها المسكين انطيوخوس (اذ كان هذا اسمه) نعم ان علينا ديونا باهظة يجب ايفاؤها . ثم تابع حديثه قائلا : وبعد ان بقيت لهذه الغاية ثلاث سنوات في ذلك الدير اطيع طاعة كلية غير مشروطة وقد سمح الله ان يعدني الاخوة غريبا عن الشركة (اذ لم يكن هناك راهب آخر غريبا غيري) وان يحتقروني ويضايقوني رأيت في الحلم من جديد رجلا جاءني واعطاني وصلا بعشر ليرات ذهبية من اصل ديني . فلما افقت من نومي ادركت ما رأيت وقلت : اواه لم اف بعد الا عشر ليرات فقط ؟ فمتى يا ترى استطيع ايفاء الباقي ايضا ؟ عندئذ قلت لنفسي : ايها المسكين انطيوخوس لا بد لك من مزيد من الاتعاب والاهانات . فبدات منذ ذلك الحين اتصرف كأنني مختل العقل ، ولم اكن مع ذلك اهمل تأدية اية خدمة للأخوة اجمعين . ولما رآني الآباء العادمو الشفقة في هذا الاستعداد وهذه الغيرة صاروا يكلفونني بكل اعمال الدير الثقيلة . وبقيت على هذه الصورة مدة ثلاث عشرة سنة رأيت في نهايتها في الحلم الرجال انفسهم الذين ظهروا لي في المرة الاولى ، فأعطوني وصلا بايفاء كامل ديني . ومما لا شك فيه اني كلما كان رهبان الدير يضايقونني بشيء كنت اذكر ديني واحتملهم بشجاعة » . لقد روى لي ذلك يوحنا الكلي الحكمة يا ابت كأنه عن شخص آخر سماه انطيوخوس ولكنه بالحقيقة هو الذي مزق صك دينه بالصبر بتلك الشجاعة الكبيرة .

١١٢ ــ ولنسمع اي تمييز صار اليه هذا البار بفضل طاعته القصوى . فانه لما اقام في دير القديس سابا قصده يوما ثلاثة من الشبان يبتغون التتلمذ له . فاستقبلهم بسرور واضافهم بلطف لريحهم من تعب السفر . وعند انتهاء اليوم الثالث قال لهم : « في الحقيقة يا اخوتي انا اميل بطبعي الى الزنى ولا اقدر ان اقبل واحدا منكم » . فلم يرتابوا اذ كانوا قد سمعوا بسيرته . ولما لم يقدروا ان يقنعوه رغم تضرعهم اليه كثيرا ارتموا على قدميه وتوسلوا اليه ان يرسم لهم على الاقل كيف واين ينبغي لهم ان يعيشوا . فأجاب الشيخ سؤالهم اذ عرف انهم سيتقبلون قوله بتواضع وانصياع فقال لأحدهم : « ان ربنا يشاء منك يا بني ان تقيم في مكان عزلة مع اب روحي تكون في طاعته » . وقال للثاني : « اذهب وبع ارادتك لله واحمل صليبك مقيما بثبات في دير للاخوة فتملك كنزا في السماء لا محالة » . وقال للثالث : « اذكر مع كل نفس من انفاسك قول القائل : من يصبر الى المنتهى فهذا يخلص ، واذهب ولا تسمح ان امكن ان يكون بين البشر مروض اكثر تقريعا واوفر صرامة من مروضك في الرب ، واثبت عنده واشرب استهزاءه وتهكمه كل يوم كمن يشرب لبنا وعسلا » . فأجاب الأخ : يا ابتاه ان كان مروضي هذا يعيش في التواني فماذا اعمل ؟ فقال الشيخ : ولو شاهدته يزني فلا تنزح من عنده بل قل لذاتك : يا صاحب لماذا جئت الى هنا ؟ وحينئذ تبصر الصلف يتلاشى فيك والشهوة تضمحل .

١١٣ ــ لنناضل بكل قوتنا نحن الذين اخترنا خوف الرب لئلا نحصل في مدرسة الفضيلة خبثا ورذيلة وحبا للايذاء وخداعا ودهاء وغيظا . وقد يحدث ذلك ولا عجب ،

http://coptic-treasures.com

فان المرء ما دام مواطنا عاديا او بحارا او فلاحا لا يمنع اعداء الملك في محاربته . اما اذا رأوه قد اتخذ راية الملك وتناول الترس والرمح والسيف والقوس وارتدى زي الجندي فحينئذ يصرون عليه بأسنانهم ويبذلون كل وسعهم في اهلاكه . لذلك لا نغفون يا أخوة .

١١٤ — رأيت اطفالا انقياء صالحين جاؤوا المدرسة طلبا للحكمة والأدب والمنفعة ، ولكنهم بمعاشرتهم للصبيان الآخرين ، لم ينشأوا فيها الا على حب الايذاء والرذيلة . من له عقل فسوف يفقه ذلك .

١١٥ — يستحيل على من يتعلمون صناعة ما برغبة كلية الا يتقدموا فيها يوميا . الا ان البعض يدركون تقدمهم والبعض الآخر ، بتدبير الهي ، يجهلونه . لا شك ان الصراف الحريص يحسب ربحه وخسارته كل مساء ، لكنه لن يعرفها بالضبط ما لم يقيد حسابه على دفتر ساعة فساعة . لأن حساب كل ساعة يظهر جملة حساب اليوم .

١١٦ — اذا عير الجاهل او انتهر يلذع ويمتعض فيحاول ان يجيب ويناقض او تراه يسجد بسرعة لمن أنبه ولكن لا تواضعا منه بل ليكف عن نفسه مكاره التعيير . اما انت فاذا هزىء بك فاسكت وتقبل هذه النار المحرقة بل المطهرة والمنيرة لنفسك . ومتى سكن حنق الطبيب فحينئذ تب اليه واستغفر فلعله لا يقبل اعتذارك في غضبه .

١١٧ — في نضالنا ضد الاهواء فلنقاتل نحن العائشين في الاديار اثنين منها بصورة خاصة في كل حين اعني الشراهة والحدة ، لأنهما انما يجدان مادتهما في حياة الشركة .

١١٨ — يثير الشيطان في العائشين في الطاعة شهوة الى فضائل متعذرة عليهم . وكذلك يشير على المتوحدين بممارسة فضائل غير مناسبة لهم . فاذا فتحت ذهن المبتدئين العادمي الخبرة تجد فيه اهتماما مخدوعا : شهوة لتوحد ، لصوم اقصى ، لصلاة بلا طياشة ، لنجاة كلية من المجد الباطل ، لذكر مستمر للموت ، لخشوع دائم ، لعدم غضب كامل ، لصمت عميق ، لطهارة فائقة . ولما كانوا ، بتدبير الهي ، لا يبلغون الى هذه الفضائل في بداية ترهبهم فانهم يسعون وراءها بانطلاقهم على غير هدى الى حياة اخرى وهم مخدوعون . لأن العدو انما يجعلهم يطلبون هذه المحامد قبل اوانها لئلا يصبروا فيمتلكوها في حينها . اما المتوحدون فالمحتال الماكر يطوب لديهم فضائل العائشين في الطاعة ، كضيافة الغرباء والخدمة والمحبة الاخوية ، والعيشة المشتركة ، وافتقاد المرضى ، وذلك لكي يجعلهم فاقدي الصبر في وحدتهم كأولئك في حياتهم المشتركة .

١١٩ — ان سيرة التوحد هي لعمري لأفراد قليلين : لأولئك فقط الذين حظوا بالعزاء الالهي استنهاضا لهم في الاتعاب ونجدة في القتال .

١٢٠ — لنميز ونتبين الاهواء التي فينا لنختار ما يلائمنا من انواع الطاعة . فاذا كنت جانحا الى الشهوة الجسدية فالأفضل لك ان يكون مروضك متقشفا لا يقبل بأية تعزية في الطعام من ان يكون صانعا للعجائب ومستعدا في كل حين لاستقبال الضيوف وبسط المائدة . اما اذا كنت متكبرا فاختر لك مروضا حاد الخلق متشددا ، غير وديع ولا واد للناس . لا تفتش عن مرشدين يعرفون المستقبل ويرون الحوادث قبل وقوعها ، بل بالحري عمن هم متواضعون وتوافق طريقتهم وسيرتهم الامراض التي فيك . واعمل بطريقة البار ابكاريوس الآنف الذكر ، فانها صالحة للطاعة ، وهي ان تفتكر دائما ان رئيسك يختبرك واذ ذاك لا يخيب سعيك البتة . اذا كان رئيسك يقرعك بلا انقطاع وانت تحفظ له حبا جما وتؤمن به ايمانا كبيرا

http://coptic-treasures.com

فاعلم ان الروح القدس قد حل فيك غير منظور وان قوة العلي قد ظللتك .

١٢١ — ولكن متى احتملت الشتائم والاهانات بشجاعة فلا تفتخر ولا تسر بل الاولى بك ان تنوح لانك عملت ما يستوجب التعيير واوغرت صدر رئيسك عليك . لا تدهشن مما اعتزم ان اقوله ، لأن لي في ذلك موسى سندا : الاوفق لنا ان نخطأ الى الهنا من ان نخطأ الى ابينا ومرشدنا ، لاننا اذا اغضبنا الله يستطيع مرشدنا ان يستعطفه لنا . اما اذا ازعجنا مرشدنا فليس لنا من يسترحمه من بعد . ومع ذلك يبدو لي ان خطيئتنا في كلا الحالين تؤول الى نهاية واحدة .

١٢٢ — لنفحص بانتباه ونميز متى ينبغي ان نحتمل طعن الآخرين بنا لدى الراعي شاكرين وصامتين ، ومتى ينبغي أن نوضح له حقيقة الامر . ويلوح لي انه علينا ان نصمت في كل الحالات التي تسبب لنا الهوان ، لأنها مناسبات ربح لنا . اما في الوشايات التي تسيء الى شخص آخر غيرنا فيجب الدفاع عنه وذلك حفاظا على رباط المحبة والسلام .

١٢٣ — ان الذين طفروا من الطاعة يخبرونك عن منفعتها لأنهم قد ادركوا الآن في اية سماء كانوا يقيمون .

١٢٤ — من يعدو محاضرا الى اللاهوى ومن ثم الى الله يحسب كل يوم لا يعير فيه خسارة كبيرة له . وكما ان الاشجار التي تهزها الرياح تتأصل اصولها في الارض كذلك تترسخ نفوس المقيمين في الطاعة فلا تضطرب ولا تتزعزع .

١٢٥ — من توحد ثم عرف ضعفه فعاد وباع ذاته للطاعة فقد استعاد نظره بلا مشقة (بعد ان كان اعمى) وابصر المسيح .

١٢٦ — اثبتوا ، اثبتوا يا اخوتي المجاهدين واقول ايضا اثبتوا سائرين في جهادكم قدما ، اذ تسمعون الحكمة تقول عنكم عاليا : لقد محصهم الله تمحيص الذهب في البودقة ، او بالحري في شركة الاخوة ، وقبلهم في احضانه كذبيحة محرقة (٢٩) ، له المجد والسلطان الى الابد مع ابيه الازلي وروحه القدوس . آمين .

هذه درجة رابعة تساوي الانجيليين عددا فيا ايها المجاهد اثبت في سعيك بلا خوف .

(٢٩) حكمة ٣ : ٦ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة الخامسة

في التوبة الدائبة المتواصلة الظاهرة جليا في سيرة الرهبان المعاقبين الابرار وفي السجن المخصص لها

كما ان يوحنا سبق بطرس يوما (١) هكذا تقدمت الطاعة الآن على التوبة ، لأن الذي سبق كان رمزا للطاعة واما الآخر فللتوبة .

١ ــ التوبة تجديد للمعمودية . التوبة عهد مع الله لبدء حياة اخرى . التائب هو من يبتاع التواضع . التوبة هي التخلي الدائم عن التعزيات الجسدانية . التوبة هي الحكم على الذات والاهتمام بالنفس دون الارتباك بأي شيء آخر . التوبة ابنة للرجاء وجحود لليأس . التائب مجرم غير مرذول . التوبة مصالحة مع الرب بعمل الصالحات المضادة للزلات السابقة . التوبة تطهير للوجدان . التوبة صبر على كافة المكدرات . التائب هو من يبتدع العقوبات لذاته . التوبة تضييق شديد على المعدة وتقريع حاد للنفس .

٢ ــ اسرعوا وتقدموا يا جميع الذين اغضبوا الله . تعالوا اسمعوا فأخبركم ؛ اجتمعوا وتفهموا ما اعلنه الله لي لأجل بنيانكم . لنقدر ونجل اولئك المجاهدين ، المرذولين والمكرمين معا ، الذين سنروي قصتهم . لنسمع ونتيقظ ونعمل نحن جميع الذين سقطوا سقطة سمجة غير منتظرة . قوموا واجلسوا ايها الواقعون . اصغوا يا اخوتي الى حديثي واميلوا آذانكم الي يا من تريدون ان تتصالحوا مع الله بتوبة صادقة .

٣ ــ فاني اذ سمعت ، انا الهزيل ، بسيرة خارقة وتواضع غريب يسلكهما المتعائشون في الدير المنفرد المدعو حبسا والتابع للدير الرئيسي المشع الآنف الذكر توسلت الى الرئيس البار ان اذهب الى هناك . فأجابني الى طلبي اذ لم يشأ يوما ان يكدر احدا البتة .

٤ ــ فلما قدمت الى ذلك الدير ؛ وهو حقا دار التائبين ومحلة النائحين ؛ رأيت

---

(١) يو ٢٠ : ٤ .

http://coptic-treasures.com

افعالا لم تبصرها قط ، اذا جاز القول ، عين انسان متوان ، ولم تسمع بهـا اذن مضجع ، ولم تخطر على قلب كسلان (٢) . رأيت افعالا واقوالا تقدر ان تفسر الله ، وممارسات ومواقف من شانها ان تستعطف سريعا محبته للبشر .

٥ ــ رأيت بعضا من اولئك المؤدبين الابرياء واقفين في العراء الليـل كله حتى الصباح وهم ثابتو الاقدام يحنيهم نعاس الطبيعة احناء يرثى له ولكنهم لا يتيحـون لانفسهم اية راحة ، بل ينتهرون ذواتهم بعنف ويطردون النوم بالتعييرات والشتائم .

٦ ــ وغيرهم يتفرسون في السماء تفرسا يرثى له مستغيثين بالله بالصيـاح والعويل .

٧ ــ وآخرون يقفون في صلاتهم كاتفين ايديهم وراء ظهورهم على مثال المجرمين يطرقون بوجوههم الكالحة الى الارض اذ حكموا على انفسهم بأنهم غير مستحقين ان يرفعوا الى السماوات الحاظهم . وفي حيرة افكارهم وضميرهم لم يكونوا ليجدوا ما يتلفظون به او ما يصلون امام الله او كيف وبماذا يبدأون تضرعهم . فكانوا في غمرة ظلمتهم ويأسهم المطلق يقدمون لله نفسا خرساء وذهنا ابكم وحسب .

٨ ــ وغيرهم يجلسون ارضا بالمسح والرماد ساترين وجوههم بركبهم وقارعين الارض بجباههم .

٩ ــ وآخرون يقرعون صدورهم على الدوام مصورين في فكرهم حالة نفسهم وسيرتهم السابقة . ومنهم من كانوا يبلون الارض بدموعهم . ومنهم من اعوزتهم الدموع فكانوا يهشمون انفسهم بالضرب تهشيما . ومنهم من يولولون على انفسهم كالنادبين موتاهم عاجزين عن احتمال ضيق قلوبهم . ومنهم من كانوا يزأرون في قلوبهم مانعين عويلهم عن الصعود الى افواههم . وكانوا احيانا يصرخون فجـأة لعجزهم عن ضبطه .

١٠ ــ وقد شاهدت هناك قوما يبدون كأنهم ساهـون عن ذواتهم ، غارقين كليا في الظلام لفرط اكتئابهم لا يشعرون البتة بما يجري حولهم ، غائصين بعقلهم في لجة التواضع ومجففين بنار الغم دموع عيونهم .

١١ ــ وآخرون جالسون وعقلهم مجتمع ، مطـرقين الى الارض ، يحركـون رؤوسهم بلا انقطاع مزمجرين وآنين كالأسود من صميم قلوبهم ، مصطكة اسنانهم في افواههم . وكان بينهم من يستغفرون مبتغين بحسن رجائهم صفحـا كاملا عن زلاتهم . وغيرهم قد قضوا على ذواتهم باتضاع لا يوصف بأنهم غير مستحقين للصفح ، صارخين بأنه لا عذر لهم امام الله ، والبعض يتوسلون ان يعاقبوا في هـذه الدنيا ويرحموا في الآخرة . وآخرون قد سحقهم ثقل ضميرهم فكانوا يقولون بسذاجة : حسبنا ان لا نقاصص هناك وان لم نحظ بالملكوت .

١٢ ــ وعاينت في ذلك الحبس نفوسا متواضعة منسحقة قد حناها ثقل وقرها ، قادرة ان توجع الحجارة عينها ، وهي تصرخ الى الله مطرقة الى الارض وقائلة : قد علمنا اننا أهل ، وبحق ، لكل عقاب وعذاب لأننا لسنا اكفاء للتكفير عن كثـرة ديوننا حتى ولو جمعنا المسكونة كلها لتنوح علينا . وانما نسأل ونتضرع ونلتمس هذه المنة الواحدة فقط وهي ان « لا توبخنا بغضبك ولا تؤدبنـا برجـزك » (٣) ولا تقاصصنا بحكمك العادل بل بشفقتك ، ويكفينا ان ننعتق من وعيدك العظيـم ومن التعذيبات الرهيبة التي لا تسمى . لأننا لا نجترىء ان نلتمس صفحا كاملا اذ كيف نجترىء على ذلك ونحن لم نحفظ عهدنا بلا عيب بل دنسناه بعد العطف الاول علينا والصفح عنا .

---

(٢) ١ كو ٢ : ٩ .

(٣) مز ٦ : ١ .

http://coptic-treasures.com

١٣ ــ فهناك حقا ايها الاحباء هناك يمكن ان نعاين تحقيق اقوال داود النبي جليا اذ نشاهد « قوما اشقياء قد تحدب ظهرهم الى آخر حياتهم يمشون مغمومين اليوم كله ، قد انتنت وقاحت جراحاتهم (٤) ، وهم غير مبالين ، ساهين عن اكل خبزهم ومازجين شرابهم بدموعهم وآكلين التراب والرماد مع الخبز ، وعظامهم لاصقة بلحمهم وقد يبسوا كالحشيش » (٥) ، لا تسمع منهم اقوالا غير هذه : ويلي ويلي ، ويحي ويحي ، انه لحق لحق ، اصفح اصفح يا سيد ، ومنهم من يقول : ارحم ارحم ، وآخرون بصورة ادعى للشفقة : اغفر يا سيد ان امكن اغفر لنا .

١٤ ــ وكان يرى بينهم من كانت السنتهم ملتهبة ومتدلية من فمهم كالسنة الكلاب . وكان بعضهم يعذبون انفسهم بالحر الشديد وآخرون بالبرد القارس ومنهم من كانوا يذوقون قليلا من الماء ليقيهم الموت عطشا وحسب ثم يتوقفون عن الشرب . ومنهم من كانوا يتناولون يسيرا من الخبز ويرمونه عنهم بعيدا قائلين انهم غير مستحقين تناول طعام الناس ما داموا قد عملوا اعمال البهائم .

١٥ ــ اين الضحك منهم ؟ اين الكلام البطال ؟ اين الغضب ؟ اين الغيظ ؟ بل ما كانوا يعلمون بوجود غيظ عند الناس لان نوحهم كان قد لاشى الغيظ فيهم بالتمام . اين المناقضة عندهم ؟ اين التنعم بالاعياد ؟ اين الدالة ؟ اين الاهتمام بالجسد ؟ اين اثر العجب ؟ اين الامل برخاء العيش ؟ اين التفكير بشرب الخمر ؟ اين مذاق الفاكهة ؟ اين تعزية الطناجر ؟ (٦) اين تحلية الحلق ؟ بل كان مجرد الامل بهذه كلها قد اندثر دون رجعة ، اين عندهم الاهتمام بأي شيء ارضي ؟ اين ادانة الناس ؟ لا شيء من هذا البتة .

١٦ ــ واليكم ما كانوا ينطقون ويتفوهون ويصيحون به للرب دون انقطاع . كان بعضهم يقرعون صدورهم بعنف قائلين لله وكأنهم واقفون امام باب السماء : افتح لنا ايها القاضي افتح لنا الباب الذي اغلقناه على انفسنا بسبب خطايانا . وآخرون يقولون : « اضيء بوجهك علينا فنخلص » (٧) . وغيرهم : « اضيء للجالسين في الظلمة وظلال الموت » (٨) . وآخرون : « سريعا فلتدركنا رافتك يا رب » (٩) فاننا قد هلكنا ، قد يئسنا ، قد فنينا الى الغاية . والبعض : ماذا ترى ايظهر لنا الرب فيما بعد ؟ (١٠) وآخرون : اترى تعبر نفسنا هذه المياه الطاغية ؟ (١١) وغيرهم : هل يتحنن الرب علينا فيما بعد ؟ (١٢) ام ترانا نسمعه قائلا : ايها المعتقلون بأمخال مثبتة لا تنحل اخرجوا ؟ (١٣) ويا من هم في جحيم التوبة فليغفر لكم ؟ هل بلغ صراخنا الى آذان الرب ؟

١٧ ــ وكانوا كلهم قابعين ينظرون الموت بأعينهم على الدوام ويقولون : ترى

---

(٤) مز ٣٧ : ٦ و ٥ .
(٥) مز ١٠١ : ٤ ــ ٩ .
(٦) اي الاطعمة المطبوخة .
(٧) مز ٧٩ : ٣ .
(٨) لو ١ : ٧٩ .
(٩) مز ٧٨ : ٨ .
(١٠) ١١٧ : ٢٧ .
(١١) مز ١٢٣ : ٥ .
(١٢) قضاة ٢ : ١٨ .
(١٣) اشعيا ٤٩ : ٩ .

http://coptic-treasures.com

ما الذي سيعرض لنا ؟ ترى ما هو الحكم الذي يصدر بحقنا ؟ ترى ما هي نهايتنا ؟ هل توجد لنا عودة ؟ هل يوجد لنا صفح نحن المظلمين الاذلاء المجـرمين ؟ هـل استطاعت طلبتنا ان تدخل الى حضرة الرب ام رجعت بعدل مرذولة خازية ؟ اتراها في حال دخولها كم اقتدرت ؟ كم استرضت ؟ كم فعلت ؟ لأنها خرجت من اجسـام وافواه نجسة ولم تمتلك قوة . اتراها استعطفت القاضي تماما ام الى حد ما ؟ هل بما يعادل نصف جراحاتنا ؟ لأن جراحاتنا عظيمة بالحقيقة تتوجب كدا وتعبا وعنـاء كثيرا . ترى هل اقترب منا حراسنا الملائكة ام لا يزالون بعيدين لأنهم ان لم يقتربوا منا فتعبنا لا ينفع . اذ ان صلاتنا لن تملك دالة ولا جناح طهارة لتدخل الى الـرب ما لم يقبل الينا ملائكتنا الحارسون ويتسلموها منا ويقدموها اليه .

١٨ ــ وكثيرا ما كانوا يسألون بعضهم بعضا متحيرين وقائلين : هل نحن مفلحون يا اخوة ؟ هل نحظى بمطلوبنا ؟ اترونه يقبلنا ايضا ؟ هل يفتح لنا ؟ فكان يجيبهـم آخرون : من يعلم ؟ لعل الله يرجع ويندم (كما يقول اخوتنا اهل نينوى) (١٤) فيرفع عنا قصاصا عظيما ؟ وعلى كل حال فلنعمل ما علينا . فان فتح لنا .. والا فمبـارك الرب الاله الذي اغلق علينا بعدل . ولكننا سنظل طارقين بابه حتى انتهاء عمرنا لعله يفتح لنا لكثرة الحاحنا ولجاجتنا (١٥) . ولهذا السبب كانوا ينهضون ويستحثون بعضهم بعضا قائلين : لنجر يا اخوة لنجر فان حاجتنا ماسة الى الجري والحـري الحثيث ما دمنا قد تخلفنا عن صحبنا الصالحين . لنركض ولا نشفق على جسدنـا الدنس الشرير . بل لنقض عليه كما قضى هو علينا .

١٩ ــ واليكم ما كان يفعله اولئك المذنبون المغبوطون . فكنت ترى الركب كليلة لكثرة السجود ، والعيون غائرة ذابلة لا اهداب لها ، والخدود مشققـة مستعـرة بحرارة الدموع السخينة ، والوجوه نحيلة صفراء لا تفرق بينها وبين وجوه الموتى ، والصدور مطبقة بفعل القرع المتواصل المتسبب بنزف الدم . اين مد الفراش عندهم ؟ اين نظافة اللباس او جودته ؟ فثيابهم كلها ممزقة قذرة ، رعاها القمل . فما هـو شقاء المجانين او النادبين موتاهم او المنفيين بازاء شقائهم ؟ ما هو عذاب المجرمين المحكوم عليهم بالقتل ؟ فان عذاب هؤلاء الكرهي لا يقاس البتة بعـذاب اولئـك الاختياري . ولكن لا تظنوا يا اخوتي ان هذا الذي رويته لكم خرافة .

٢٠ ــ فان اولئك كثيرا ما تضرعوا الى راعيهم العظيم الذي هو ملاك بين الناس ان يغل اعناقهم وايديهم بأغلال من حديد وان يقيد ارجلهم بعقالات المجرمين والمختلي العقول ولا يحلهم منها حتى يقتبلهم القبر ، هذا ان لم يحرموا من القبر .

٢١ ــ ذلك لأني لن اكتم ولن اخفي تذلل اولئك المغبوطين الذي يرثى له حقـا ومدى انسحاقهم في محبتهم لله وفي توبتهم . فانهم متى شعروا بأنهم قد اوشكوا على الانتقال الى الله والوقوف امام منبر العدل كان هؤلاء الابرار الاستوطنـون ارض التوبة يتوسلون بقسم الى رئيسهم الاكبر بلسان شيخهم ان لا يؤهلهم لدفن انساني بل لدفن البهائم ، اما بطرحهم في مجرى النهر او بالقائهم في العراء مأكلا للوحوش . وكثيرا ما استجاب لطلبهم بتمييزه العظيم آمرا بأن يجنزوا بلا ترتيل ولا تكريم .

٢٢ ــ واما مشهدهم ساعة الموت فرهيب يرثى له . اذ كان هؤلاء الشركاء في المصير يحيطون بمن يشعرون بينهم بأنه موشك ان يسبقهم ويقضي اجله ويسألونه ، وهو صحيح العقل بعد ، متلهفين ومتأملين ومتوسلين بلهجة يرثى لها وبكلام كئيب ،

---

(١٤) يونان ٣ : ٩ .

(١٥) انظر لو ١١ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

ملتاعين اشفاقا عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين : ما بك يا اخانا وقريننا في الحكم ؟ كيف حالك ؟ ماذا تقول ؟ ماذا ترجو ؟ ماذا تظن ؟ هل ادركت مطلوبك بتعبك ام لم تستطع ؟ افتح لك ام لم تحظ بذلك ؟ ابلغت مبتغاك ام ان املك بذلك غامض ؟ هل حصلت على العتق ام ما زال فكرك يتردد ويرتاب في مصيرك ؟ الحسست بنور يضيء في قلبك ام لا يزال مظلما مرذولا ؟ هل سمعت في داخلك صوتا يقول : « ها قد صرت صحيحا » (١٦) او « مغفوره لك خطاياك » (١٧) او « ايمانك خلصك » (١٨)، ام يبدو لك انك لا تزال تسمع ذلك الصوت القائل : « فليقذف بالخطاة الى الجحيم » (١٩) و « اربطوا يديه ورجليه واطرحوه في الظلمة الخارجية » (٢٠) و « ليقص المنافق لئلا يرى مجد الرب » ؟ (٢١) ماذا تقول يا اخانا ؟ نتضرع اليك ان تكلمنا كي نعلم الى اي حال نحن صائرون ، فان زمانك الآن قد انتهى ولن تجد غيره الى الدهر . فكان يجيب البعض بقولهم : « مبارك الرب الذي لم يقص صلاتي عنه ولا رحمته عني » (٢٢) وبعضهم : « تبارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لأسنانهم » (٢٣) . وكان يقول آخرون بتوجع : « هل ستجوز انفسنا مياه ارواح الهواء الطاغية » (٢٤) ؟ وهم غير مطمئنين تماما بعد بل مترقبون ما يجد في اكتمال الحساب . وآخرون بتوجع اشد : الويل لنفس لم تصن عهدها بلا عيب ، فانها سوف تعرف في هذه الساعة فقط ما اعد لها .

٢٣ ــ اما انا فلما ابصرت منهم هذه الافعال وسمعت هذه الاقوال كدت ايأس من ذاتي متأملا مدى تواني ازاء ما يتجشمونه من اتعاب . اذ اي مكان كان مسكنهم ؟ كان مكانا مظلما ، منتنا ، قذرا ، وسخا بجملته وقد سمي بحق حبسا وسجنا ، حتى ان مجرد مشاهدته تحرك الى التوبة والنوح . غير ان ما يصعب او يتعذر على عامة الناس يكون سهلا ومقبولا عند من سقطوا من الفضيلة والغنى الروحي . لأن نفسا اضاعت دالتها الاولى وفقدت رجاءها ببلوغ اللاهوى وهتكت عفتها وسلبت ثروة مواهبها وتغربت عن تعزية الله ونكثت عهدها مع الرب واطفأت نار دموعها الصالحة ، ويقرعها ذكر هذا ويؤلمها ، ان تلك النفس لا تتجشم بنشاط كلي تلك الاتعاب وحسب بل تعمد بخوف الله الى افناء ذاتها بالنسك ، اللهم اذا كانت لا تزال فيها بقية من شرارة حب الرب وخوفه تعالى كما كان لهؤلاء المغبوطين حقا . فانهم حفظوا في عقولهم كل ما اضاعوه وتصوروا علو الفضيلة الذي سقطوا منه ، فكان البعض يرددون : « تذكرنا الايام القديمة » (٢٥) ونار غيرتنا الروحية ، وغيرهم يصرخون : « اين هي مراحمك القديمة يا رب التي حلفت بها لداود بأمانتك ؟ اذكر عار عبيدك وشقاءهم » (٢٦) ، وآخر يقول : « من لي بمثل الشهور السالفة ومثل

---

(١٦) يو ٥ : ١٤ .
(١٧) متى ٩ : ٢ .
(١٨) مز ٥ : ٢٤ .
(١٩) مز ٩ : ١٧ .
(٢٠) متى ٢٢ : ١٣ .
(٢١) اشعيا ٢٦ : ١٠ .
(٢٢) مز ٦٥ : ٢٠ .
(٢٣) مز ١٢٣ : ٦ .
(٢٤) مز ١٢٣ : ٥ .
(٢٥) مز ١٤٢ : ٥ .
(٢٦) مز ٨٨ : ٤٩ ــ ٥٠ .

http://coptic-treasures.com

الايام التي حفظني فيها الله حين اضاء نوره في قلبي ؟ » (٢٧) .

٢٤ ــ فانظر كيف كانوا يذكرون ما احكموه من فضائل وينتحبون على فقده كالاطفال قائلين : أين نقاوة صلاتنا ؟ أين دالتنا ؟ أين لسعتنا تلك الحلوة نوفس هذه المرة ؟ اين رجاء العفة والطهارة الكاملة ؟ اين توقع اللاهوى المغبوط ؟ اين ايماننا براعينا ؟ اين تأثير صلاته فينا ؟ لقد زالت هذه كلها وغابت كأنها لم تكن وتلاشت كأنها لم توجد .

٢٥ ــ وفيما هم يتفوهون بهذا نائحين كان البعض يبتهلون الى الرب ان تمسهم الشياطين ، والبعض أن يصابوا بالصرعة ، وغيرهم ان يفقدوا البصر ويصيروا للناس مشهدا يرثى له ، وآخرون ان يشلوا ، على الا يذوقوا العذاب المزمع ان يكون . اما انا يا احبائي فدهشت لارتياحهم لهذا الشقاء وسهوت كليا ولم اتمكن من ضبط ذاتي .. ولكن فلنعد الى سياق الحديث .

٢٦ ــ لقد بقيت في ذلك السجن ثلاثين يوما ثم عدت انا العادم الصبر راجعا الى الدير الكبير الى الراعي العظيم فلما ابصرني ساهيا متغيرا بكليتي عرف سبب تغييري وقال : ما بك ايها الأب يوحنا ؟ أرايت جهادات الكادحين ؟ فأجبته : لقد رايتها يا ابت وعجبت لها وطوبت الساقطين النائحين على انفسهم اكثر من الذين لم يسقطوا ولا ينوحون . لأن اولئك قد نهضوا من جراء سقطتهم نهوضا لا يهدده خطر . فأجابني : لقد صدقت ، فالأمر هو كذلك . ثم خبرني بلسانه الصادق قائلا : كان عندي هاهنا منذ عشر سنوات اخ مجاهد نشيط جدا . وكنت عندما اراه على هذه الحال حارا بالروح ارتعد من اجله خوفا عليه من ان تعثر رجله بحجر من جراء حسد ابليس بسبب عدوه السريع ، اذ غالبا ما يعرض مثل هذا لمن يجدون في السعي . وهذا ما حدث له فعلا . فانه اتى الي ذات ليلة حالكة واراني جرحه عاريا والتمس ضمادا وابتغى كيا ورجف رجفانا . ولما وجدني طبيبا لا يشاء استعمال القسوة في معالجته (اذ كان يستحق العطف) القى بذاته على الارض وامسك بقدمي وبلهما بدموع غزيرة والتمس مني ان احكم عليه بذاك الحبس الذي عاينته انت وصاح بانه يستحيل نعم يستحيل الا يذهب الى هناك . فأكره الطبيب على ان يحول عطفه الى قسوة (وهذا امر غريب جدا ونادر الوقوع) وانضم توا الى التائبين وصار شريكا لهم نائحا ومتوجعا معهم . فجرح الحزن قلبه لأجل حب الله كمن يطعن بالسيف ، وفي اليوم الثامن رحل الى الرب ملتمسا الا يحظى بدفن . ولكني احضرته الى الدير هنا ودفنته مع آباء الدير كما يليق به . لأنه بعد انقضاء اليوم السابع انفك اسره في اليوم الثامن وتحرر من عبودية هذا الدهر (٢٨) . وان هناك من يعلم يقينا انه لم ينهض من امام قدمي الحقيرتين الا وكان قد استرضى الله . وليس ذلك بعجيب فانه اذ حوى في قلبه ايمان الزانية فقد بل قدمي الذليلتين مدفوعا بيقينها نفسه ، وقد قال الرب : « كل شيء مستطاع للمؤمن » (٢٩) . وقد رايت نفوسا نجسة هائمة هياما شديدا بعشق الاجسام ولما اعتمدت طريق التوبة استفادت من خبرة العشق بأن نقلت غرامها الى الرب وتجاوزت سريعا كل خوف وشغفت بحب الله دونما شبع . ولهذا لم يقل الرب للزانية العفيفة انها خشيت كثيرا بل احبت كثيرا (٣٠) . وهكذا تيسر لها ان تدفع عشقا بعشق .

---

(٢٧) ايوب ٢٩ : ٢ ــ ٣ .

(٢٨) تثنية ١٥ : ١٢ وما بعدها : ان اليوم الثامن رمز للدهر الآتي .

(٢٩) مر ٩ : ٢٣ .

(٣٠) لو ٧ : ٤٧ .

http://coptic-treasures.com

٢٧ ــ لا اجهل ايها المتعجبون من اقوالي ان الجهادات التي اوردتها عن هؤلاء المغبوطين ستبدو للبعض غير قابلة للتصديق ، ولاخرين صعبة التصديق ، ولغيرهم باعثة على اليأس . ولكن المرء الشجاع سوف يستمد منها منخسا وسهما ناريا ينطلق به وقلبه ممتلىء غيرة وحماسة . اما من كان اقل حماسة فسيدرك ضعفه بعد سماعها ويلوم ذاته وبالتالي يتسهل عليه اقتناء التواضع وهكذا يجري وراء الاول ، ولست ادري فقد يلحق به . واما المتواني فلا يستمعن البتة الى تلك الجهادات لئلا ييأس بالكلية ويخسر حتى القليل الذي حققه ، فينطبق عليه القول القائل : « من ليس له (حماسة) يؤخذ منه (ما عنده) » (٣١) .

٢٨ ــ لن نخرج يوما من حفرة الآثام التي سقطنا فيها الا اذا انحدرنا الى لجة اتضاع التائبين .

٢٩ ــ ان اتضاع النائحين الكئيب هو غير الاتضاع الذي يلازم توبيخ الضمير عند الذين لم يتحرروا بعد من خطاياهم ، وهو ايضا غير غنى الاتضاع المغبوط الحاصل عند الكاملين بفعل الله . اما التواضع الثالث فلا نبادر الى وصفه بالكلام لئلا نسعى باطلا . واما علامة التواضع الثاني فهي الصبر الكامل على الهوان . ولكن كثيرا ما تعود العادات السيئة فتطغي حتى على النائحين . ولا عجب في ذلك ، فان التمييز بين السقطات غير واضح للمعالم ولا يدركه الجميع . فاي سقطات تعرض لنا بسبب توانينا ، وايها تعرض باهمال تدبيري من الله ، وايها تعرض لارتداده عنا ؟ ولكن احدهم شرح لي ان السقطات التي تعرض لنا باهمال تدبيري نرجع عنها سريعا ، لان الله الذي اسلمنا اليها لا يسمح بان نضيط فيها طويلا . فعلينا نحن الذين سقطنا ان نحارب شيطان الحزن قبل كل الشياطين لانه ينتصب لدينا وقت الصلاة ويذكرنا بدالتنا السابقة التي اضعناها مجاولا بذلك ابطال صلاتنا .

٣٠ ــ لا تعجبن اذا سقطت كل يوم ولا تول هاربا بل قف بشجاعة فيجل صبرك الملاك الذي يحفظك . ما دام الجرح حارا طريا فهو سهل الشفاء ، ولكن الجراحات القديمة المهملة والمتقيحة يصعب شفاؤها ، لأن علاجها يتطلب تعبا كثيرا وبترا وتجفيفا وكيا . اما الجراحات القديمة جدا فلا يمكن شفاؤها ، وغير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله (٣٢) .

٣١ ــ تقول لنا الشياطين قبل السقطة ان الله محب للبشر . وتقول بعدها انه صارم لا يشفق .

٣٢ ــ لا تصدق من يقول لك بعد زلة كبيرة الا تمتنع عن الزلات الصغيرة بحجة انها ليست بشيء بازاء تلك . فكثيرا ما كفت غضب القاضي الشديد هدايا صغيرة .

٣٣ ــ من يحاسب نفسه حقيقة يحسب انه قد اضاع اليوم الذي لم يبك فيه ولو عمل خلاله الصالحات .

٣٤ ــ لا ينتظرن احد من المنتحبين على خطاياهم وقت خروجه من الدنيا ليحظى بيقين الخلاص . لأن الامر الغامض عار عن الصدق . ولذا فقد قيل : « تغاض عني لكي استريح (باليقين) قبل ان انصرف (غير متيقن من خلاصي) » (٣٣) . حيث روح الرب ينحل رباط الخطيئة . وحيث اتضاع لا قياس له ينحل رباطها ايضا . فلا ينخدعن الخالون من الاثنين لأن الخطيئة لا تزال تربطهم .

---

(٣١) متى ٢٥ : ٢٩ .

(٣٢) متى ١٩ : ٢١ .

(٣٣) مز ٣٨ : ١٣ .

http://coptic-treasures.com

٣٥ ــ ان اهل العالم غرباء اجمالا عن هذين اليقينين ولا سيما عن الاول منهما ولكن البعض منهم يقضون حياتهم بأعمال الرحمة فيعرفون ربحهم وقت الممات .
٣٦ ــ من ينح على ذاته فلن يهتم بمعرفة نوح غيره او سقطته ولن يلومه ، فاذا عض وحش كلبا تزايد غضب الكلب وهياجه على الوحش جدا واستاثر به وذلك لتألمه من الجرح .
٣٧ ــ لنتيقظ لئلا يكون توقف ضميرنا عن توبيخنا ناتجا عن تفاقم شرنا لا عن طهارتنا . ان علامة حلنا من سقطتنا هي ان نحسب انفسنا دائما مدينين .
٣٨ ــ ليس هناك ما يفوق رأفات الهنا او ما يساويها . ولذا فمن ييأس ينتحر . ان علامة الانكباب على التوبة هي اعتبار انفسنا مستوجبين لجميع الاحزان العارضة لنا ، المنظورة منها وغير المنظورة ، ولاكثر منها ايضا . ان موسى رجع الى مصر (اعني الى الظلام) والى صنع لبن فرعون العقلي وذلك بعد مشاهدته الله في العوسجة . لكنه عاد فصعد الى العوسجة ايضا بل الى الجبل . فمن فقه هذا لن ييأس من ذاته يوما . لقد افتقر ايوب الصديق ولكنه عاد فاستغنى مضاعفا .
٣٩ ــ ان السقطات الحاصلة بعد الدعوة الرهبانية ثقيلة على الرهبان المتوانين لانها تنتزع منهم رجاء البلوغ الى اللاهوى وتحملهم على ان يحتسبوا مجرد نهوضهم من حفرة خطاياهم حظا مغبوطا . انتبه ، انتبه ، لاننا ولا شك لن نعود بالطريق التي ضللنا فيها بل بطريق اخرى قصيرة .
٤٠ ــ رايت اثنين سائرين الى الله ، على منوال واحد وفي زمان واحد ، احدهما شيخ يفوق الثاني في الاتعاب والآخر تلميذ ، ولكن التلميذ اسرع منحدرا الى قبر التواضع اكثر من الشيخ (٣٤) .
٤١ ــ لننتبه جميعا ولاسيما الذين سقطوا بيننا كيلا يعتري قلبنا داء اوريجنس. لان هذا الداء الذي هو التذرع بمحبة الله للبشر يصاب به سريعا محبو اللذات .
٤٢ ــ في اهتمامي بل في توبتي تتأجج نار صلاتي وتحرق مادة خطيئتي (٣٥) . يا هذا فليكن لك اولئك القديسون المحكوم عليهم الآنفو الذكر حدا ، ورسما ، ونموذجا ، وصورة للتوبة فلا تعد تحتاج الى مصحف بالكلية طيلة عمرك الى ان يشرق لك المسيح ابن الله ، في قيامة التوبة الدؤوب آمين .

هذه درجة خامسة قد صعدتها ايها التائب لانك طهرت بها حواسك الخمس وهربت باختيارك من العذاب والعقاب الكرهي .

(٣٤) يو ٢٠ : ٤ .
(٣٥) مز ٣٨ : ٣ .

http://coptic-treasures.com

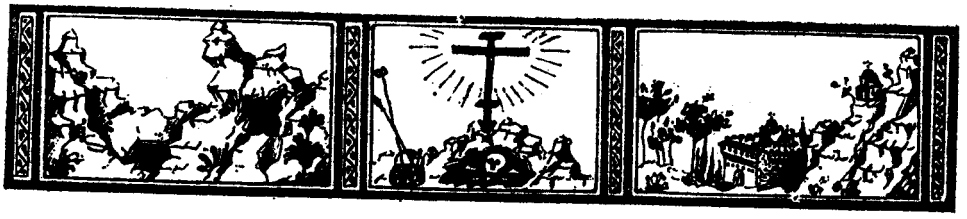

المقالة السادسة

في ذكر الموت

١ ــ كما ان الفكرة تسبق الكلمة ، كذلك فان ذكر الموت والخطايا يسبق البكاء والنوح . ولذا رتبناه هنا في سياق حديثنا .

٢ ــ ذكر الموت موت في كل يوم . ذكر الخروج من الدنيا تحسر في كل ساعة .

٣ ــ مخافة الموت خاصة طبيعية نجمت عن المعصية ، اما الارتعاد من الموت فدلالة على سقطات لم نتب عنها : لقد خاف المسيح من الموت (١) ولكنه لم يرتعد منه وذلك ليظهر خاصة كل من طبيعتيه جليا .

٤ ــ كما ان الحاجة الى الخبز تفوق الحاجة الى سائر الاغذية كذلك فان الحاجة الى الاهتمام بذكر الموت تفوق الحاجة الى سائر الاعمال الروحية . ان ذكر الموت يولد في العائشين في وسط العالم حزنا وضياعا وبالاحرى فتورا في الهمة . اما عند الخارجين من ضوضاء العالم فيولد اقصاء للهموم وصلاة متواصلة ويقظة للذهن ، وهذه تعود بدورها فتولد ذكر الموت .

٥ ــ من البين ان القصدير غير الفضة وان شابهها في منظره ، وكذلك فان الفرق بين الخوف الطبيعي من الموت والخوف الفائق الطبيعة واضح عند ذوي التمييز .

٦ ــ من العلامات الصادقة لذكر الموت باحساس عميق من القلب الزهد الاختياري بكافة المخلوقات والاعراض الكامل عن المشيئة الذاتية .

٧ ــ من ينتظر الموت في كل يوم هو لا شك فاضل ، ولكن من يتوق اليه كل ساعة هو قديس .

٨ ــ ليس كل اشتهاء للموت صالحا . فان البعض تقسرهم العادة الى السقوط المتواتر فيطلبون الموت من جراء ذلك . والبعض بالعكس لا يريدون ان يتوبوا فيبتغون الموت من جراء اليأس . والبعض يتوهمون باطلا انهم بلغوا اللاهوى وبالتالي لا يجزعون بعد من الموت . والبعض (اللهم ان وجدوا في ايامنا هذه) يتوقون الى الانصراف من هذه الحياة بفعل الروح القدس .

---

(١) متى ٢٦ : ٣٧ و ٣٨ .

http://coptic-treasures.com

٩ — يرتاب بعض المؤمنين الاتقياء متسائلين ، لماذا كتم الله عنا معرفة ساعة الموت مسبقا ما دام ذكره ينفعنا بهذا المقدار ، غير عالمين ان الله العجيب في احكامه انما صنع خلاصنا بهذا الكتمان . فانه لو علم اي منا بوقت وفاته مسبقا لما بادر الى المعمودية او الى السيرة الرهبانية ، بل لأمضى كل ايامه في الاثم منتظرا يوم انصرافه ليقبل الى المعمودية والتوبة . ولكنه من جراء عادته الطويلة يكون حينذاك قد رسخ في الرذيلة وقد يبقى غير قابل للاصلاح بالكلية .

١٠ — اذا كنت تنوح على خطاياك فلا تقبل قط ما يوحيه اليك ذلك الكلب من ان الله محب للبشر ، قاصدا ان ينزع عنك النوح والخوف العادم الخوف ، الا اللهم اذا رايت ذاتك منجرفا الى يأس عميق .

١١ — من يبتغي الهذيذ بذكر الموت وحكم الله على الدوام ، وفي الوقت نفسه يدفع ذاته الى اهتمامات ومشاغل مادية يشبه انسانا يسبح ويريد ان يصفق بكلتا يديه .

١٢ — ان ذكر الموت الواضح المستمر يقطع تناول الاطعمة ، ومتى انقطعت الاطعمة بالاتضاع انقطعت معها الاهواء .

١٣ — قساوة القلب تظلم الذهن وكثرة الاطعمة تجفف ينابيع الدموع . العطش والسهر يضغطان القلب ومتى انعصر القلب نبعت منه مياه الدموع . ستبدو هذه الاقوال قاسية للنهمين وغير قابلة للتصديق للمتوانين . اما العامل المجاهد فيختبرها بنشاط . ومن خبرها ينشرح لها ويرتاح . اما الذي لا يزال في طور التماسها فيزداد وجوما .

١٤ — كما حدد الآباء القديسون ان المحبة الكاملة لا تعرف السقوط ، كذلك اقول ان الاحساس الكامل بالموت لا يعتريه الخوف .

١٥ — ان افعال الذهن النشيط العامل كثيرة اعني بها التأمل في الله وفي حبه تعالى ، وذكر الملكوت وغيرة الشهداء القديسين ، وحضور الرب شخصيا على حد قول القائل : «رايت الرب امامي في كل حين» (٢) ، وذكر الملائكة القديسين والخروج من الدنيا واللقاء الرهيب والحكم والعقاب . لقد ابتدانا في سردنا هذا بالامور الجليلة ولكننا انتهينا بالتي لا تخطىء .

١٦ — اخبرني يوما راهب مصري انه بعد ان غرز ذكر الموت في قلبه اراد مرة ان يعزي جسده الطيني قليلا بداعي الحاجة ، فمنعه ذكر الموت عن ذلك منع قاض صارم ، والعجيب انه قصد ابعاده فلم يستطع .

١٧ — وراهب آخر مقيم هنا في المكان المسمى تولاس كان يؤول به ذلك الفكر مرارا كثيرة الى حالة الذهول فكان يحمله الاخوة الذين يصادفونه وهو فاقد التنفس تقريبا كمن اغمي عليه او كمن صرع .

١٨ — ولن اصمت عن ايراد خبر ايسيشيوس الخوزيبي . هذا كان يتصرف دائما بكل توان ولا يهتم البتة بخلاص نفسه . فمرض يوما الى الغاية وفارق جسده مدة ساعة . ثم عاد الى ذاته وتوسل الينا ان ننصرف كلنا من عنده للحال ثم سد باب قلايته ومكث داخلها اثنتي عشرة سنة لا يتصل بأحد البتة بأية كلمة ولا يذوق غير الخبز والماء . فكان جالسا وحده شاخصا بنظره الى ما ابصره في غيبوبته ومتأملا اياه ، حتى انه لم يغير مكانه قط بل كان شارد العقل على الدوام يدفق بصمت دموعا سخينة . وحين اوشك ان يفارق الحياة نقبنا باب قلايته ودخلنا ، وبعد تضرع كثير سمعنا منه هذه الكلمة فقط : « اغفروا لي ، ان كل من حوى ذكر

---

(٢) مز ١٥ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

الموت لا يستطيع ان يخطأ » . فدهشنا لما ابصرنا من كانت حاله على مـــا ذكر من التواني قد تحول بغتة هذا التحول وتغير تغيرا مغبوطا . ثم دفناه دفن الابرار في المقبره القريبة من الحصن ، وبعد ايام طلبنا جسده المقدس فلم نجده ، فاحد الرب بذلك من خلال تلك التوبة الصادقة المأثوره قبوله لجميع المريدين ان يقوموا سيرتهم بعد كثرة توانيهم .

١٩ ــ وكما ان لجة البحر لا حد لها ولا قعر ، كما اعتاد ان يقول البعض ، كذلك فان ذكر الموت يؤول بالطهارة والسيرة الى اللافساد ، ويثبت صحة هذا القول البار المذكور اعلاه لأن امثاله لن يكفوا عن ان يزيدوا على خوفهم خوفاً على غراره الى ان تفنى منهم قوة عظامهم .

٢٠ ــ لا يخامرنا شك في ان ذكر الموت عطية من الله كسائر الصالحات ، والا فكيف يتفق ان نزور المقابر مرارا كثيرة ونلبث قاسين لا دموع لنا ، في حين اننا كثيرا ما نتخشع ونبكي خلوا من مثل ذلك المنظر .

٢١ ــ من مات عن الاشياء كلها يأتي الى ذكر الموت . اما من لا يزال متمسكا بالعالم فيتآمر على نفسه .

٢٢ ــ لا تطلب ان تؤكد لجميع الناس بالأقوال حبك لهم بل الاحرى بك ان تسأل الله اظهاره لهم بدون ما اقوال . والا فلن يكفيك مدى زمانك للتودد اليهم والتوجع على خطاياك معا .

٢٣ ــ يا مجاهدا عادم الفطنة لا تنخدعن بامكان التعويض عن اضاعة وقت بوقت آخر فان كل يوم من ايامك لا يكفي لايفاء دينه كاملا للسيد .

٢٤ ــ قال احدهم انه يتعذر نعم يتعذر علينا ان نعبر يومنا ببر وتقوى ان لم نحسبه اليوم الاخير من عمرنا . وانه لأمر غريب بالحقيقة ان الوثنيين ايضا قالوا مثل هذا القول ، اذ حددوا الفلسفة بالانشغال بالموت .

هذه درجة سادسة من صعدها لن يخطأ فيما بعد وذلك على حد القول الصادق : « تذكر اواخرك فلن تخطأ الى الدهر » (٣) .

(٣) ابن سيراخ ٧ : ٤٠ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة السابعة

في النوح الحامل الفرح

١ ــ النوح المرضي عند الله هو نفس كئيبة وقلب حزين يغرق ابدا في طلب ما يتوق اليه ، وما دام لا يحظى به يلتمسه بمشقة ويتأوه وراءه بتوجع . او في تعريف آخر النوح هو منخس ذهبي لنفس طرحت عنها كل مطمع ورباط وقد غرسه وثبته فيها الحزن المقدس بواسطة يقظة القلب .

٢ ــ نخس القلب هو تقريع دائم للضمير يؤدي من خلال الاقرار القلبي بالخطايا الى تهدئة اضطرام القلب . والاقرار بالخطايا هو نسيان الطبيعة ، ما دام داود قد سها بسببه عن اكل خبزه .

٣ ــ التوبة هي حرمان الذات طوعا من كل تعزية جسدية .

٤ ــ ان مزية البادئين بالنوح المغبوط هي الامساك عن الاهواء وضبط الشفتين. ومزية المتقدمين فيه هي عدم الغيظ وعدم الحقد . اما مزية الكاملين فيه فهي الاتضاع ، والعطش الى الاهانات ، والجوع الطوعي الى المشقات الكرهية ، وعدم ادانة الخطأة بل الترثي لهم ترثيا فائق القدرة . فالاولون مقبولون والاوسطون جديرون بالثناء ، اما الجياع والعطاش الى الضيق والهوان فمغبوطون لانهم سيشبعون من الطعام الذي لا يشبع منه .

٥ ــ اذا حظيت بالنوح فحافظ عليه بكل قوتك لانه يسهل فقدانه قبل استقراره ، وكما يذوب الشمع بالنار يتلاشى سريعا من جراء الضوضاء والاهتمامات الجسدية والتنعم وخاصة من جراء كثرة الكلام والمزاح .

٦ ــ اتجاسر واقول ان ينبوع الدموع الموهوب لنا بعد المعمودية هو اعظم من المعمودية لأن هذه لا تطهرنا الا من السيئات الحاصلة قبلها واما ذاك فيطهرنا من السيئات التي تحدث بعدها . وبما اننا اقتبلناها كلنا اطفالا فقد دنسناها . ولكننا بالدموع نستعيد تطهيرنا ..ولو لم يمنح الله الدموع للناس محبة بالبشر لكان الذين يخلصون قليلين حقا ويعسر وجودهم .

٧ ــ ان انات الحزن تصرخ نحو الرب ودموع الخوف تستشفعه ، اما دموع الحب الاقدس فتوضح ان صلاتنا قد قبلت عنده تعالى .

http://coptic-treasures.com

٨ ــ ان كان لا يلائم التواضع شيء كالنوح فلا شيء ايضا ينافيه كالضحك .
٩ ــ تمسك كل التمسك بالتوجع المفرح الملازم لنفس القلب ولا تكف عنه حتى يرفعك عن الارضيات ويقدمك نقيا الى المسيح .
١٠ ــ لا تكف عن ان تتصور وتتصفح لجة النار الابدية والخدام العادمي الشفقة والقاضي الفظ الصارم والهوة المظلمة التي لا قعر لها واللهيب السفلي والدهاليز الضيقة المحدرة الى المهاوي والاسافل الرهيبة وامثال هذه كلها لكيما يضيق الرعب الشديد على الفجور الذي فينا وتحل محله طهارة غير فاسدة يشرق فيها النور الاكثر بهاء من النار .
١١ ــ قف في صلاتك وتضرعك مرتعدا ارتعاد المجرم امام القاضي حتى تستطيع بمظهرك وسريرتك اطفاء غضبه العادل . لانه لن يرذل نفسا تقف امامه كالارملة الحزينة تزعج من هو غير قابل للانزعاج .
١٢ ــ من امتلك دموعا داخلية يلائمه كل مكان للنوح . ومن يبكي بعينه الظاهرة فقط لن يكف باحثا عن مواضع واسباب للنوح . ان الكنز المطروح في الاسواق معرض للسلب اكثر من الكنز المحجوب عن الانظار . فعلى هذا المنوال لنفقه ما قيل عن الدمعة الباطنة والدمعة الظاهرة .
١٣ ــ لا تكن مثل الذين دفنوا امواتهم فينوحون عليهم احيانا ويسكرون احيانا بل كن كالمعتقلين في المناجم الذين يجلدهم الحراس كل حين .
١٤ ــ ان من ينوح حينا ويتنعم ويضحك حينا آخر يشبه من يطرد كلب اللذة بكسرة خبز ، فهو يطرده شكلا ولكنه يستدعيه فعلا .
١٥ ــ اجمع عقلك وادخل به الى قلبك دون ان تتباهى بذلك . فان الشياطين يخشون تجمع العقل خشية اللصوص للكلاب .
١٦ ــ لا ، لم ندع الى العرس هنا يا اخوة بل الذي دعانا انما دعانا الى النوح على انفسنا .
١٧ ــ ان البعض يجهدون ذواتهم حين يبكون لكي لا يفكروا باي شيء البتة في ذلك الوقت المبارك . ولكنهم لا يدركون ان الدمعة الخالية من فكر ينبعها هي خاصة طبيعة غير ناطقة لا طبيعة ناطقة ، فالدمعة البليغة هي نتيجة الفكر ، والعقل الناطق هو ابو الفكر .
١٨ ــ ليكن لك استلقاؤك على سريرك رسما لاستلقائك في قبرك وهكذا تنام يسيرا . وليصر لك تناولك للطعام تذكرة لذلك الدود الاليم الهائل وهكذا تتنعم بالطعام قليلا . ولا تنس عند شربك الماء عطش ذلك اللهيب وهكذا لا ريب تغصب طبيعتك .
١٩ ــ عندما يذلنا رئيسنا ، امتحانا لنا لا امتهانا ، او يوبخنا وينتهرنا ، فلنذكر حكم الديان الرهيب وهكذا نبيد بوداعتنا وصبرنا لا محالة كما بسيف ذي حدين الامتعاض والمرارة المتحركين فينا بحماقة .
٢٠ ــ كما انه بمرور الزمن ينفذ ماء البحر على قول ايوب الصديق ، هكذا يتكون فينا ما ذكرناه اعلاه ويتكامل شيئا فشيئا بالصبر ومرور الايام .
٢١ ــ ليرقد معك ذكر النار الابدية كل مساء ولينهض معك كل صباح فلن يستولي عليك التواني في اوان التسبيح .
٢٢ ــ ليكن لك زيك على الاقل داعيا الى النوح لأن جميع الذين يندبون موتاهم يرتدون السواد . فان كنت لا تبكي فابك لهذا السبب عينه ، وان كنت تبكي فازدد بكاء لانك اهبطت ذاتك بزلاتك من رتبة لا تعب فيها الى رتبة متعبة .
٢٣ ــ ان قاضينا العادل الصالح سوف ينظر ولا شك الى طاقتنا في البكاء كما هو الامر في كل ما نعمل . لاني رايت قطرات دموع يسيرة تذرف بجهد كنقط الدم ،

http://coptic-treasures.com

وابصرت ينابيع عبرات تتدفق بلا جهد . فحكمت بالامر حسب مقدار التعب لا مقدار الدموع . واظن ان الله يحكم كذلك .

٢٤ ــ ان التكلم باللاهوت لا يلائم النائحين لانه من شأنه ان يلاشي نوحهم فالمتكلم باللاهوت يماثل المتربع على كرسي المعلمين واما النائح فيماثل المقيم في المزبلة واللابس المسح ، واني ارى ان هذا هو معنى جواب داود النبي للذين استخبروه حين كان ينوح اذ قال : « كيف اسبح تسبحة الرب في ارض غريبة ؟ » اي في بلد الاهواء ، مع ان داود كان معلما وحكيما .

٢٥ ــ من انواع نخس القلب ما يتحرك من ذاته ومنها ما يحركه غيره كما هو الامر في الطبيعة عامة . فاذا صارت نفسنا رقيقة ندية دامعة دون ان نبذل جهدا في سبيل ذلك ودون ان نقصده فلنسر فيه قدما لأن ربنا قد وافى الينا دون ان ندعوه واهبا لنا حزنا الهيا في سبيل حبه ومياه راحة اي دموعا خاشعة لأجل محو هفواتنا . فاحفظ هذه الدموع حفظك لحدقة عينك الى ان تتوقف ، فان قوة هذا النوع من البكاء ونخس القلب عظيمة وتفوق قوة البكاء الذي يتكون بجهدنا وتأملاتنا .

٢٦ ــ من يبكي حين يشاء لم يصل بعد الى النوح الصالح ، بل لم يصل اليه ايضا من يبكي للسبب الذي يشاء ، وانما من يبكي كما يشاء الله . كثيرا ما تقترن دمعة العجب القبيحة بالنوح المرضي لله وسنعرف هذا بالخبرة اذا رأينا ذواتنا نائحين وفي الوقت نفسه مستمرين في عمل الشر .

٢٧ ــ ان نخس القلب الحقيقي هو توجع النفس العادم الافتخار والذي لا تتيح النفس لذاتها فيه اي نوع من السلوى بل تتصور على الدوام مفارقتها للجسد وحسب ، منتظرة تعزية الله المعزي المتضعين انتظار العطشان للماء البارد .

٢٨ ــ ان جميع الذين امتلكوا نوحا قلبيا مقتوا حياتهم عينها كشيء ثقيل متعب ومصدر للدموع والاوجاع ونبذوا اجسادهم نبذهم لعدو .

٢٩ ــ متى عاينا غيظا وكبرياء في الذين يبكون في الظاهر بكاء يرضي الله فلنحسب دموعهم مرفوضة لديه لأنه قيل « اية شركة للنور مع الظلمة » ؟

٣٠ ــ حصيلة النوح المزيف ادعاء وغرور . وحصيلة النوح الحميد سلوة وعزاء .

٣١ ــ كما تبيد النار القصب تبيد الدمعة الطاهرة كل دنس جسدي وروحي .

٣٢ ــ يشير الكثيرون من الآباء الى التباس امر الدموع وصعوبة تمييز نوعيتها خاصة عند المبتدئين لانها تنجم عن اسباب كثيرة ومختلفة اعني عن الطبيعة والله والبلايا والعجب والزنى والحب وذكر الموت وعن اسباب اخرى متعددة .

٣٣ ــ فلنميز اسباب هذه الدموع كلها في ضوء خوف الله ولنجعل لنا دموعا طاهرة نقية تحسرا على آخرتنا فهذه الدموع ليس فيها غرور او غش بل تطهير وتقدم في حب الله وغسل للخطيئة ولاهوى .

٣٤ ــ ليس بعجيب ان تبدأ دموع النوح صالحة وتنتهي فاسدة ، اما ان تبدأ فاسدة او طبيعية ثم تلقح بدموع روحانية فهذا جدير بالثناء حقا . ويعلم هذا الامر جليا الجانحون الى العجب .

٣٥ ــ لا تركن الى ينابيع دموعك قبل ان تتطهر طهارة تامة لاننا لا نستطيع ان نضمن جودة الخمر ساعة خروجه من القدر .

٣٦ ــ لن ينكر احد ان كافة دموعنا المرضية لله نافعة كل المنفعة ولكننا في وقت خروج النفس فقط نعرف مدى فائدتها لنا .

٣٧ ــ من يقضي ايامه في نوح دائم مرضي لله لن يكف عن التعييد كل يوم ، ومن لا يكف عن التعييد تعييدا جسدانيا فهو مزمع ان ينوح نوحا ابديا .

http://coptic-treasures.com

٣٨ ــ ليس للمجرمين في السجن فرح ، وليس للرهبان الحقيقيين على الارض عيد . ولعله لأجل هذا قال ذاك التائب البار متنهدا « اخرج من الحبس نفسي» (١) لكي ابتهج بنورك الذي لا يوصف .

٣٩ ــ اقبع في قلبك بتواضع وكن متساميا كملك ، تقول للضحك اذهب فيذهب وللبكاء الحلو تعال فيأتي وللجسد العبد المتسلط اعمل هذا فيعمل .

٤٠ ــ من تسربل النوح المغبوط ، المنعم به عليه كحلة عرس ، عرف ضحك النفس الروحاني .

٤١ ــ ترى من هو الذي امضى زمانه كله في السيرة الرهبانية بخوف الله حتى انه ما خسر قط يوما او ساعة او لحظة واحدة ، بل صرف اوقاته كلها في ارضاء ربه حاسبا انه لن يجد ثانيا لذلك اليوم في عمره ؟

٤٢ ــ مغبوط هو الراهب القادر ان يشخص بعيني نفسه الى القوات الملائكية ، ولكن من يبل خديه بالمياه الحية ذاكرا على الدوام موته وسقطاته يعتق من السقوط حقا . ولا يعسر علي ان اصدق ان اصحاب الرتبة الاولى قد سلكوا اولا سبيل الرتبة الثانية .

٤٣ ــ لقد رأيت فقراء ومتسولين جسورين قد استمالوا سريعا بألفاظهم المنمقة الرقيقة حتى قلوب الملوك الى التحنن عليهم . ورأيت فقراء معوزين في الفضائل يصيحون الى الملك السماوي ليس بألفاظ منمقة بل بأقوال ذليلة مبهمة حائرة تخرج من اعماق قلب يائس بجسارة ولجاجة فاغتصبوا تحننه بالحاحهم وهو المتحنن بالطبع ولا يغتصب (بضم الياء) .

٤٤ ــ من يفتخر بدموعه ويلوم في قلبه الذين لا يبكون يشبه من يطلب من الملك سلاحا لمحاربة اعدائه ويقتل به نفسه .

٤٥ ــ لا يحتاج الله يا احبة ولا يريد ان يبكي انسان ويتوجع بل يشاء بالاحرى ان يبتهج بحبه ويتهلل . ازل يا هذا الخطيئة فتصير الدمعة الموجعة في الاعين الحسية فضلة زائدة ، لأنه لا حاجة الى تنظيف حيث لا يوجد جرح . لم يكن لآدم دموع قبل المعصية ، ولن تكون دموع بعد القيامة ، حيث تكون الخطيئة قد ابيدت وزال معها الوجع والغم والتنهد .

٤٦ ــ رأيت عند البعض نوحا وعند غيرهم نوحا لافتقارهم الى النوح ، ومع انهم يبكون كانوا كمن لا يبكون ، ولعدم علمهم بتوجع قلبهم استمروا فيه مصونين . فهؤلاء هم الذين قيل فيهم « الرب يحكم العميان » (٢) .

٤٧ ــ كثيرا ما تؤول الدمعة بذوي الخفة الى التكبر ، ولهذا السبب لا تعطى لبعض الناس ، حتى يندبوا حظهم لحرمانهم منها ويبتغوها وهم يوجبون اللوم على انفسهم في حسرة واكتئاب ، متألمين ، وواجمين ، حيارى ، فأن هذه الاتعاب تقوم لهم مقام الدمعة خلوا من خطر التكبر وان كانوا لا يحسبونها شيئا ، الامر الذي هو موافق لهم .

٤٨ ــ اذا رصدنا الشياطين بعناية فكثيرا ما نجدهم يسخرون بنا ، لأنهم اذا شبعنا يخشعون قلوبنا واذا صمنا يقسونها وذلك لكيما ننخدع بالدموع الزائفة ونستسلم للتنعم الذي هو ام الاهواء ، فينبغي عدم الانقياد لهم بل العمل بالاحرى بخلاف ايحائهم .

٤٩ ــ انني انذهل لما افكر في خاصية نخس القلب كيف يدعى نوحا وحزنا

---

(١) مز ١٤١ : ٧ .

(٢) مز ١٤٥ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

بينما يحوي معهما الفرح والسرور على مثال ما يحوي الشهد العسل متداخلين ومتمازجين . فماذا نتعلم من ذلك ؟ ان نقر بأن مثل هذا النخس هو موهبة من الرب حقا ، وانه ليس في النفس عند ذاك فرح خال من الفرح الحقيقي لان الله انما يعزي منسحقي القلوب بصورة سرية . هذا ولكي نستدعي الينا نوحا صريحا وحزنا مجديا فلنسمعن الآن حديثا شجيا ونافعا للنفس .

٥٠ ــ كان المدعو اسطفان ساكنا هنا معتنقا العيشة التوحدية الهادئة وكان قد امضى في عراك الحياة الرهبانية المشتركة مدة كافية متحليا حقيقة بصوام ودموع وفضائل اخرى متميزا بها على غيره ومتفوقا ، فاقتنى اولا قلاية في منحدر النبي الياس من هذا الجبل المقدس ، وبعد ذلك توخى توبة اكثر جلاء ومشقة فقصد مكان المتوحدين المسمى سيدين ولبث هناك عدة اعوام في اضيق واشد ما يكون من سيرة النسك ، اذ كان ذلك المكان خاليا من كل تعزية ، وعر السبيل وغير مسلوك من الناس ، بعيدا عن الحصن حوالي سبعين ميلا . ثم في اواخر حياته رجع الى قلايته الاولى التي كان يحفظها تلميذان له في الجبل المقدس ورعان جدا من سكان فلسطين . ولم يقم عندهما الا اياما قليلة حتى مرض مرضا اودى به الى الموت . وقبل موته بيوم واحد اختطف عقله ، وعيناه مفتوحتان ، فصار يتطلع الى يمين سريره ويساره . ثم سمعه جميع الحاضرين عنده يقول تارة ، وحاله حال من يحاسبه المحاسبون : « نعم هذا بالحقيقة صحيح الا انني قد صمت من اجله سنين كثيرة » ، وتارة اخرى : « كلا لقد كذبتم فهذا لم اعمله قط » . ثم قال ايضا : « نعم هذا صحيح ، نعم ، ولكني بكيت من اجله ، وخدمت الاخوة » . ثم قال من جديد : « قد تجنيتم علي حقا » . ثم اجاب عن ذنب لم يذكره : « نعم بالحقيقة نعم ، وليس لي ما اجيب عن ذلك ، ولكن الله رحيم » . فكان هذا الحساب الصارم غير المنظور مشهدا رهيبا هائلا ! والامر الاشد هولا انهم كانوا يتهمونه بما لم يفعل . يا للعجب ! ان الناسك المتوحد الصامت قال عن هفوة من هفواته « ليس لي ما اجيب عنها » ، مع انه اكمل اربعين سنة في الرهبانية واقتنى موهبة الدموع . ويلي ويلي ! اين كان حينئذ قول حزقيال النبي القائل : « في الحال التي اجدك فيها احكم بها عليك » (٣) ؟ ولكنه لم يستطع ان يتذرع بمثل هذا ، فلماذا ؟ المجد للذي وحده يعلم . ولقد اخبرني عنه اناس ، صادقين ، انه اطعم فهدا بيده في البرية . هذا وقد فارق جسده اثناء هذا الحساب ولم يشر الى الحكم الصادر بحقه ولا الى مصيره ونتيجة محاسبته .

٥١ ــ كما ان الارملة التي فقدت رجلها وبقي لها منه ابن وحيد ، لا يكون لها عضد بعد الرب سواه كذلك النفس التي سقطت ليس لها عضد عند الوفاة سوى اتعاب اصوامها ودموعها .

٥٢ ــ ومن هذه حالهم لا يرتلون ابدا ولا يرفعون اصواتهم في تسابيحهم لان هذا يفقدهم نوحهم . فان قصدت بالترتيل استدعاء النوح اليك فالنوح لا يزال بعيدا جدا عنك لأنه وجع متأصل في قلب يلتهب .

٥٣ ــ لقد صار النوح للكثيرين مدخلا للاهوى فهيأ فيهم موضعا له وثبت دعائمه . مبيدا مادة الاثم .

٥٤ ــ حدثني راهب مجاهد قد خبر هذا النوح الجليل فقال : كثيرا ما هممت ان اجنح الى عجب او غيظ او شراهة ، فكان فكر النوح يحذرني في داخلي قائلا : لا تنباه ، او لا تغتظ ، او لا تشبع ، والا فارقتك . فكنت اجيبه : لن اخالفك البتة حتى توقفني في حضرة مسيحي .

---

(٣) حز ٧ : ٣ .

http://coptic-treasures.com

٥٥ ــ ان لجة النوح عاينت تعزية ، ونقاوة القلب اقتبلت اشراقا . والاشراق فعل لا يوصف ، تفطن له دون ان تفقهه ، وتعاينه دون ان تبصره حسيا . والتعزية راحة لنفس متألمة حالها حال طفل باك يتهلل . فان اجر النوح تجديد نفس غارقة في الغم يتحول دمعها المؤلم الى دمع مفرح بصورة عجيبة .

٥٦ ــ الدموع الناتجة عن ذكر الموت تولد الخوف ، واذا ولد الخوف الاطمئنان اشرق الفرح ، واذا هدأ هذا الفرح واستمر ثابتا اينعت زهرة الحب المقدس .

٥٧ ــ ارفض الفرح الوارد اليك وروداً عابرا ورده بيد التواضع كأنك غير اهل له لئلا تكون سريع الاقتبال فتستقبل عوض الراعي ذئبا .

٥٨ ــ لا تسرع وراء معاينة الامور الالهية في غير وقتها لكيما تسعى هي وراء حسن تواضعك وتقترن بك بعرس كلي الطهر الى دهر الداهرين .

٥٩ ــ حالما يبدأ الطفل ان يعرف أباه يمتلىء فرحا بجملته . ولكن اذا غاب ابوه عنه سياسة منه برهة من الزمن ثم حضر اليه يمتلىء الصبي فرحا وحزنا معا . اما الفرح فلأنه شاهد من اشتاق اليه واما الحزن فلأنه حرم حلاوة هذا الوصال الجميل خلال تلك البرهة من الزمن . والأم ايضا تحتجب عن طفلها فاذا رأته يطلبها متوجعا تفرح معلمة اياه بذلك ان يلازمها دائما وان يضرم حبه لها اضراما شديدا . وقد قال الرب : « من له اذنان للسمع فليسمع » .

٦٠ ــ ان الذي سمع صدور الحكم عليه بالاعدام لن يهتم فيما بعد بادارة المسارح مثلا وكذلك النائح الصادق لن يعير اي التفات الى تنعم او مجد باطل او غيظ وغضب . فالنوح الم يتأصل يوما بعد يوم في نفس تائبة تزيد على وجعها اوجاعا كالمراة الحامل عند المخاض .

٦١ ــ الرب عادل وبار يمنح الصامت الهادىء توجعا والمطيع الصادق سرورا . ومن لا يسلك باخلاص احدى هاتين الطريقتين يحرم من النوح .

٦٢ ــ اطرد الكلب الذي يوافيك في احلك حالات النوح موحيا اليك ان الله غير متحنن ولا متعطف . فانك ان رصدته تجده يسميه قبل الخطيئة محبا للبشر ومتعطفا متسامحا .

٦٣ ــ الممارسة تولد المثابرة وهذه تؤول الى الاحساس . وما يعمل باحساس يصعب انتزاعه .

٦٤ ــ مهما عظمت سيرتنا وممارساتنا الرهبانية فان لم نمتلك قلبا متوجعا تحسب اعمالنا فاسدة زائفة . لأنه لا بد قطعا للذين تدنسوا بعد حميم المعمودية ان يتطهروا ويزيلوا الزفت عن ايديهم ، اذا جاز القول ، بنار توبة قلبية متواصلة وبزيت الله .

٦٥ ــ رأيت عند البعض نوحا فائق الحد اذ شاهدتهم يسكبون من فمهم سكبا محسوسا دم قلبهم المجروح من الالم ، فتذكرت القائل : « ذويت كالعشب ويبس قلبي » (٤) .

٦٦ ــ دموع الخوف تصون ذاتها بذاتها . اما دموع المحبة فلعلها تسلب بسهولة من البعض قبل اكتمال المحبة . الا اللهم اذا كان ذكر النار الابدية يلهب القلب كليا حين ذرفها . ومما يعجب له ان الدموع الاكثر تواضعا هي الاكثر ثباتا في اوانها .

٦٧ ــ هناك اهواء تجفف ينابيع الدموع واهواء اخرى تلد فيها الحماة والوحوش ، فبالاولى اقترن لوط بابنتيه سفاحا ، وبالثانية هبط ابليس ساقطا .

---

(٤) مز ١٠١ : ٤ .

http://coptic-treasures.com

٦٨ ــ كثير هو خبث اعدائنا حتى انهم يحولون امهات الفضائل الى امهات للرذائل ، ويجعلون من اسباب التواضع اسبابا للكبرياء ، فكثيرا ما يكون المكوث في القلاية والتأمل في عزلة البرية مدعاة لنخس القلب ، ويقنعك بذلك يسوع وايليا ويوحنا الذين كانوا يصلون على انفراد . ولكني رايت مرارا كثيرة دموعا تفيض وسط المدن وجلباتها وذلك لكيما يتوهم البعض انهم لا يتأذون منها فيقتربون من العالم . لانه هذا هو بالضبط قصد الشياطين الاشرار .

٦٩ ــ كثيرا ما لاثمت النوح كلمة واحدة ولكن من العجب ان تعود فتسترجعه كلمة واحدة .

٧٠ ــ لن نلام يا اخوة عند خروجنا من الدنيا على عدم اجتراحنا للعجائب او عدم تكلمنا باللاهوت او عدم معاينتنا للرؤى ، لكننا سنؤدي حسابا لله بالتأكيد عن اننا لم نبك دون انقطاع .

هذه درجة سابعة من استحقها فليسعفني لانه قد اسعف ، ما دام فيها
قد غسل عنه اوساخ هذا الدهر .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

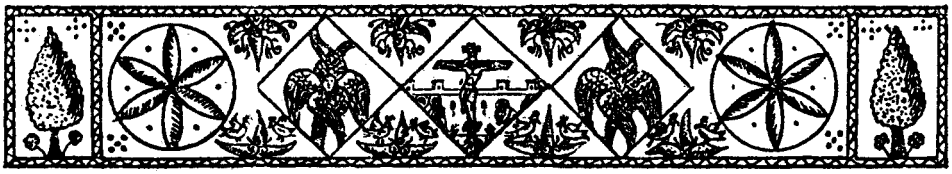

المقالة الثامنة

في الوداعة وعدم الغيظ

١ ــ كما ان سكب الماء على النار بتواتر يخمد لهيبها ، كذلك فان دمعة النوح الصادق تطفىء كل لهيب الغضب والحدة . ولذا رتبنا الوداعة وعدم الغيظ بعد النوح .

٢ ــ عدم الغيظ هو اشتهاء للهوان دون شبع كارتياح المعجبين الى المديح دون حد . عدم الغيظ هو انكسار طبيعتنا وعدم احساسها بالشتائم ، تبلغه بالاتعاب والاعراق .

٣ ــ الوداعة هي سكون النفس وتقبلها للاهانات والكرامات بحال واحد على السواء .

٤ ــ ابتداء عدم الغيظ صمت الشفتين مع اضطراب القلب . ووسطه صمت الافكار مع اضطراب نفسي خفيف . اما كماله فسكون راسخ وسط هبوب رياح نجسة .

٥ ــ الغيظ استمرار لبغض مكتوم ، اعني به تذكر الاساءات . الغيظ هو ابتغاء الاذى لمن اغاظنا . الحدة توقد عابر للقلب ، والمرارة امتعاض مستقر في النفس . الغضب انفعال سريع يغير الطباع ويقبح النفس .

٦ ــ كانكفاء الظلام عند ظهور النور كذلك يتلاشى كل سخط ومرارة من شذا التواضع .

٧ ــ ان بعض الناس السريعي الغضب يتوانون في مداواة هذا الداء . ولا ينصت اولئك الاشقياء الى قول القائل : « ان نزوعه الى الغضب يسقطه » (١) .

٨ ــ لعل حركة رحى سريعة تسحق وتبيد حنطة النفس وثمرة حياتها في لحظة واحدة اكثر مما تفعله غيرها في يوم كامل . فلننتبه اذا لذواتنا ونحترس . فقد يشتعل لهيب في حقل القلب فجأة تضرمه فيه ريح شديدة فيحرقه ويبيده اكثر من لهيب مزمن .

٩ ــ لا ننس يا اخوة ان الشياطين الاشرار يتنحون عنا احيانا حتى نهمل

---

(١) ابن سيراخ ١ : ٢٢ .

http://coptic-treasures.com

مجاهدة اهوائنا الكبيرة باعتبارها صغيرة فنمسي سقماء لا شفاء لنا .

١١ ــ كما تتفتت حدة زوايا حجر صلب بمقارعته حجارة اخرى وتقلبه معهما فتزول خشونته ويصبح مدورا ، هكذا فان نفسا فظة حادة الطبـــاع ، اذا خالطت اناسا قاسين ونزقين الى الغاية وعايشتهم ، تكابد احد امرين : اما يشفـــى جرحها بصبرها او تنصرف هاربة فتعرف على كل حال ضعفها ، اذ ان انصرافها يظهر لها جبنها كما في مرآة .

١١ ــ الغضوب هو المصروع طوعا الذي يسقط ويتمزق باختياره سلفا .

١٢ ــ لا شيء يعيق التائبين كاضطراب الغضب لأن التوبة تحتاج الى تواضع جزيل بينما الغضب دلالة على الغرور .

١٣ ــ ان كانت علامة منتهى الوداعة ان يكون المرء محبا ساكن القلب نحو من يثيره حتى في حضرته فلا ريب ان علامة حدة الطبع هي ان يقوم المرء وحده وفي غياب من اسخطه بمقاتلته بأقواله وحركاته ويستشيط غيظا عليه .

١٤ ــ ان كان الروح القدس هو سلام النفس كما يعرف عنه وكمـــا هـــو في الحقيقة ، وكان الغيظ هو اضطراب القلب كما يقال عنه وكما هو في الواقع ، فلا شيء يحجز ورود المعزي الينا مثل الغضب .

١٥ ــ نعرف جما غفيرا من اولاد الغضب العسرين الشكسين ولكننا وجدنا له ولدا كرهيا واحدا نافعا بالرغم من انه نغل . فقد رايت اناسا التهبوا حنقا جنونيا وقذفوا الى الخارج الحقد المزمن المعشش فيهم فتخلصوا هكذا من هوى بهـــوى آخر وحصلوا ممن استثاروا وغرهم المزمن على توبة او استرضاء . وشاهـــدت آخرين خزنوا بصمتهم حقدا في داخلهم من خلال طول اناة ظاهرة كاذبة فعددتهـــم اشقياء أكثر من الذين يحتدمون غضبا جنونيا ، كونهم طردوا الحمامة البيضاء بظلمة سوداء . فعلينا ان نحترس من هذه الافعى احتراسا جزيلا لانها على مثال النجاسات الجسدية تستنجد بطبيعتنا .

١٦ ــ ابصرت اناسا اغتاظوا فامتنعوا عن تناول الطعام من جـــراء تمرمرهم فازدادوا بامتناعهم الغبي هذا سما فوق سم . ورايت آخرين تذرعوا بالغضب باطلا ليستسلموا الى الشراهة فهووا من حفرة الى هوة سحيقة . ورايت اناسا غيرهم عقلاء قد مزجوا الصنفين معا كأطباء حاذقين . فانتفعوا منفعـــة كبيرة من تعزية جسدهم تعزية خفيفة .

١٧ ــ الترتيل المعتدل يخفض جناحي الغضب احيانا خفضا بليغا . ولكنه احيانا اخرى يثير حب اللذة اذا تجاوز الاعتدال او استعمل في غير وقته . فلنختر له بالتالي وقتا ملائما وهكذا نحسن استعماله .

١٨ ــ اتفق ان كنت جالسا مرة خارج قلايات اناس متوحدين فسمعتهم يقاتلون بصوت عال من اغاظهم وهم لوحدهم في قلاياتهم مثل حجال محبوسة في قفص ومن جراء مرارتهم وغيظهم يهاجمونه كما لو كان حاضرا . فنصحتهم حبا بالله ان يتركوا عزلتهم لئلا يتحولوا من بشر الى شياطين . ولما رايت اناسا قلوبهم فاسقة نتنة وهم ودعاء مجاملون بل متملقون في ودهم للأخوة ، حثثتهم على سلوك حيـــاة العزلـــة والسكون كدواء قاطع للفسق والنتن وذلك لئلا ينتقلوا انتقالا يـــرثى له من طبيعة ناطقة الى طبيعة بهيمية . ولكن لما قال لي البعض انهم ينزعون على وجه محزن الى الغضب والفسق معا حظرت عليهم كليا أن يستقلوا في عيشهم واشرت حبيا عـــلى رؤسائهم ان يسمحوا لهم باتباع سيرة العزلة حينا وسيرة الطاعة حينا آخر على ان يكونوا في كلتا الحالتين خاضعين خضوعا كليا لرئيسهم ومرشدهم . ان محب اللذة انما يفسد ذاته ، ولربما يفسد بعضا من مساريه . اما الغضوب فهـــو بمثابة ذئب

http://coptic-treasures.com

يزعج الرعية كلها ويعثر نفوسا كثيرة ويثبط عزمها .

١٩ ــ ان تكدر عين القلب من الغيظ ، حسب قول القائل : « تكدرت من الغيظ عيني » (٢) ، هو امر صعب . ولكن الاصعب منه اظهار ثورة النفس بالشفتين . اما اظهاره باليدين فهو امر مناف للسيرة الرهبانية الملائكية وغريب عنها بالكلية .

٢٠ ــ ان توخيت ان تستخرج قذى من عين غيرك وبالاحرى ان خيل اليك ذلك لا تستعمل عوض الميل خشبة فتزداد القذى اغترازا . ان الخشبة هي الفاظ ثقيلة واشكال فظة . والميل هو تعليم وديع وزجر بطول اناة اذ قال : « وبخهم ، انتهرهم ، عظهم » (٣) ولم يقل « اضربهم » . فان لزم الضرب فليكن نادرا وليس بذاتك .

٢١ ــ اذا ترقبنا الغضوبين راينا الكثيرين منهم يمارسون الصوم والصمت بنشاط وهمة . لان غاية الشيطان ان يوحي لهم ، بحجة التوبة والنوح ، تلك الممارسات التي تعمل على استفحال هواهم .

٢٢ ــ ان كان ذئب واحد يستطيع بمساعدة الشيطان ان يزعج القطيع كله ، كما ورد آنفا ، فلا شك ان اخا واحدا يتميز بالحكمة يستطيع بمنزلة زق مملوء من الزيت ان يسكن به الامواج بعون الملائكة وينقذ السفينة . وبقدر ما يدان الاول بشدة ينال الثاني ثوابا عظيما من الله ويصير للجميع رسما للمنفعة .

٢٣ ــ ابتداء الصبر على الضيم احتمال الاهانات بمرارة وحزن . ووسطه عدم الاغتمام لها . وكماله ، ان امكن ، حسبانها ثناء . الاول فليتعز والثاني فليتقو ؛ اما الثالث فمغبوط اذ يبتهج بالرب .

٢٤ ــ لاحظت عند الغضوبين امرا يرثى له يعرض لهم من جراء غرورهم الخفي . فانهم يغضبون بسبب انغلابهم للغضب ، فتعجبت اذ شاهدت سقطة يعاقب عليها بسقطة . وحين رايتهم هكذا ينتقمون من خطيئة بفعل خطيئة اخرى اشفقت عليهم وارتعبت لمكر الشياطين وكدت ايأس من حياتي .

٢٥ ــ من لاحظ انه يغلب بسهولة من الغرور وحدة الطبع والخبث والمراءاة ورأى ان يستل سيف الوداعة وطول الاناة ذا الحدين على هذه الاهواء للتحرر منها تحررا كاملا ، فليذهب وينضم الى جماعة من الاخوة فظين للغاية فيكونوا له بمثابة قصارين لاجل خلاصه ، حيث بفعل الشتائم الوافرة وفيض الاهانات يدق ويوطأ روحيا بل لعله يلطم ويضرب ويداس جسديا فيغسل الوسخ المستقر في نفسه . وليقنعك بفعالية هذا العلاج المثل العامي القائل بأن التعيير هو غسل لأهواء النفس ، اذ اعتاد قوم من اهل العالم ، اذا ما رشقوا احدا بمسباتهم في وجهه ، ان يتباهوا بذلك قائلين « اننا غسلنا فلانا » . وهذا القول صدق .

٢٦ ــ ان عدم الغيظ الذي يبلغه المبتدئون من جراء النوح على خطاياهم هو غير سكينة الكاملين . فالاول مربوط بدمعة بمنزلة لجام يضبطه ولكن الثانية ناتجة عن عدم الهوى الذي يذبح الغيظ ذبح السكين للأفعى .

٢٧ ــ رأيت ثلاثة رهبان اهينوا اهانة واحدة فالاول لسعه الهوان فاضطرب ولكنه سكت ، والثاني فرح بالأجر الحاصل لنفسه ولكنه اغتم من اجل شاتمه ، والثالث تصور مضرة قريبه فبكى بكاء حارا . فكان الناظر اليهم يشاهد فعل كل من الخوف والثواب والمحبة .

---

(٢) مز ٦ : ٧ .

(٣) انظر ٢ تي ٤ : ٢ .

http://coptic-treasures.com

٢٨ ــ كما ان حمى الجسد واحدة ولكن عللها كثيرة ، كذلك فان اسباب غليان غضبنا وربما اسباب اثارة سائر اهوائنا كثيرة ومختلفة ، ولذا يتعذر تعيين قياس واحد لها . بل اشير على كل مريض ان يبذل قصارى جهده في البحث بعنـــاية عن العلاج الخاص به . ان فاتحة المعالجة هي معرفة علة الوجع ، فعندما تكتشف العلة يسعف المرضى بالعلاج الملائم لهم من قبل الاطباء الروحانيين والعناية الالهية . وعلى سبيل المثال فليعمد الراغبون في الاشتراك معنا بالرب الى مشاهدة محاكمتنا للغيظ فيما يلي محاكمة روحية ثم التدقيق على منوالها في الاهواء الاخرى المذكورة آنفـــا لمعرفة أسبابها ، على ما في الامر من غموض .

٢٩ ــ فليربط الغضب الطاغي اذا بعقالات الوداعة ويضرب بطول الاناة ويجر الى المحاكمة بالحب المقدس ، ومتى مثل امام محكمة العقل فليسأل عن ذويه بتدقيق هكذا : « قل لنا ايها الغيظ الحقير الاحمق اسماء ابيك الذي اوجدك وامك التي ولدتك سفاحا وبنيك وبناتك النجسين بل اوضح لنا ايضا صفـــات الـــذين يحاربـــونك ويميتونك . فيجيبنا على ما اظن هكذا قائلا : « والداتي كثيرات وابي غير واحد . امهاتي هن الخيلاء ومحبة المال والشراهة ، والزنى ايضا احيانا . ووالدي يدعى الصلف ، وبناتي هن العداوة والضغينة والمحاججة والبغضاء . والذين يقاومونني وقد قيدوني الآن كما ترون هم الفضائل المضادة لها اعني السكينـــة والوداعة ، والذي يغتالني يدعى التواضـــع . اما من الذي ولد ذاك فاسألوه هـــو في فـــرصة مناسبة .

هذه درجة ثامنة رتب لها اكليل عدم الغيظ فمن ناله من يد الطبيعة قد لا يلبس سواه . ومن لبسه باعراقه فقد تخطى الرذائل الثمانية بجملتها .

http://coptic-treasures.com

المقالة التاسعة

في الحقد

١ ــ ان الفضائل الجليلة تشبه سلم يعقوب ، والرذائل الذميمة تشبه السلسلة التي وقعت عن يدي بطرس الهامة . لأن الفضائل تقود من يختارها ويتبعها الواحدة تلو الاخرى وتصعد به الى السماء ، اما الرذائل فتلد الواحدة الاخرى وتتصل كلها معا على نحو السلسلة . لذلك ولما كان الغضب الاحمق قد قال الآن على مسامعنا ان الحقد هو ولد له ، رأينا ان نتكلم عنه الآن بحسب ترتيبه .

٢ ــ الحقد ثمرة الغضب وادخار للخطايا ومقت للبر واضمحلال للفضائل وسم للنفس ودودة للعقل وخزي للصلاة وقطع للتضرع واغتراب عن المحبة ومسمار مبجن في النفس ومرارة محبوبة وخطيئة مستمرة ومعصية لا تنام وشر قائم في كل ساعة .

٣ ــ هذا الداء المظلم الخفي اعني الحقد ، هو من الاهواء المولودة لا الوالدة ولهذا لا نشاء ان نطيل الكلام عنه .

٤ ــ من سكن غيظه ابطل حقده . لأن البنين يولدون ما دام الوالد حيا .

٥ ــ من اقتنى المحبة فقد اقصى الحقد ومن يرعى العداء يجمع لنفسه مشاقا باهظة .

٦ ــ وليمة محبة تلاشي البغض ، والهدايا الخالصة ترضي النفس ، ولكن الوليمة الخالية من الاحتراس تولد الدالة ، ومن نافذة المحبة تدخل الشراهة .

٧ ــ شاهدت نفورا قطع وصال زنى مزمن ثم تولى الحقد بصورة غير متوقعة منع تجدد الوصال المنقطع . فكان ذلك منظرا عجيبا : شيطان يشفي شيطانا ! ولعل هذا من فعل العناية الالهية وليس من فعل الشياطين .

٨ ــ الحقد بعيد عن المحبة الطبيعية الثابتة ولكن الزنى يلاصق هذه المحبة بأيسر مرام كما يلحظ في الحمامة قمل خفي .

٩ ــ ان حقدت فاحقد على الشياطين وان عاديت فعاد جسدك كل حين ، فان الجسد صديق غاش عنيد ، بقدر ما تراعيه يؤذيك .

١٠ ــ الحقد معلم يشرح الكتاب باستياق اقوال الروح الى وجهة نظره . فلتخزه صلاة يسوع التي لا نستطيع ان نصليها ونحن حاقدون .

http://coptic-treasures.com

١١ ــ متى جاهدت كثيرا وما تمكنت من نزع هذه الشوكة كليا تب الى خصمك ولو بفمك فقط حتى اذا خجلت من مراءاتك له طويلا وترعك ضميرك مثل النار تحبه حبا كاملا .

١٢ ــ اعلم انك قد تخلصت من تقيح الحقد لا اذا صليت من اجل من كدرك او بادلته الهدايا او دعوته الى مائدتك ، بل اذا سمعت انه قد مني ببلية ، جسدية كانت ام روحية ، فتوجعت له كما تتوجع لنفسك وبكيت على مصابه .

١٣ ــ متوحد حقود اعمى في وكرها ، حاملة سما مميتا في ذاتها .

١٤ ــ ان ذكر آلام يسوع يشفي النفس الحاقدة ، وذلك لشدة خجلها من طول اناته .

١٥ ــ يتولد الدود في الخشبة المنخورة ، وتلتصق الضغينة بالوادعين والصموتين الزائفين ، فمن طرح الضغينة وجد الغفران ومن تمسك بها حرم الرحمة .

١٦ ــ لقد كابد البعض اتعابا واعراقا لينالوا صفح الخطايا ، لكن العادمي الحقد سبقوهم اليه ، ما دام هذا القول صادقا : « اصفحوا يصفح لكم بسعة » (١) .

١٧ ــ عدم الحقد دلالة على التوبة الصادقة . اما من يحفظ العداوة ويظن انه تائب فهو شبيه بمن يخيل اليه انه يعدو وهو نائم .

١٨ ــ رأيت حقودين قد نصحوا آخرين بالتسامح فخجلوا من اقوالهم وكفوا عن حقدهم .

١٩ ــ لا يتوهمن احد ان هذا الهوى المظلم هين ضعيف ، فانه كثيرا ما يصيب حتى الرجال الروحانيين .

هذه درجة تاسعة من ادركها فليطلب بدالة من الرب المخلص حلا لسائر زلاته .

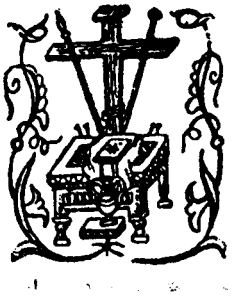

(١) انظر لو ٦ : ٣٧ .

http://coptic-treasures.com

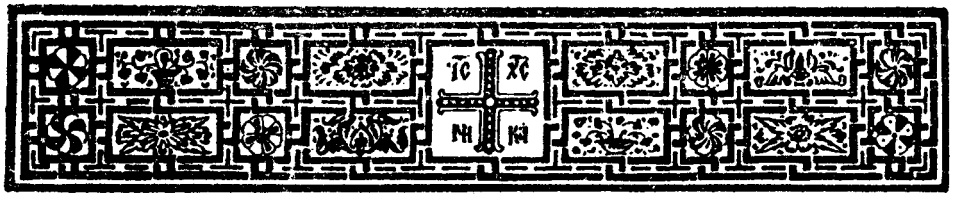

المقالة العاشرة

في الوقيعة

١ ــ لن يخالفني احد من العقلاء ولا ريب في ان المقت والحقد يولدان الوقيعة ، ولذا يأتي ترتيبها بعد ابويها .

٢ ــ الوقيعة وليدة المقت ، وداء دقيق ، وعلقة غليظة متسترة تمتص دم المحبة وتجففه ، ومراءاة بالحب ، وعلة لدنس القلب وثقله ، وابادة للعفة .

٣ ــ كما توجد جوار يفعلن الفحشاء بلا خجل وتوجد غيرهن يعملن اقبح منهن في الخفاء وبخجل كبير ، كذلك نجد بين اهواء الهوان من هن في الظاهر عــذارى امثال المراءاة والخبث والغم والحقد والوقيعة . هذه كلها تبدي شيئا في الظاهــر ولكنها ترمي في الحقيقة الى شيء آخر .

٤ ــ سمعت اناسا يغتابون غيرهم فانتهرتهم ، فأجابوني محتجين بأنهم انمــا يفعلون لمحبتهم واهتمامهم بمن يغتابون ، فرددت عليهم : ابطلوا مثل هذه المحبة لئلا تكذبوا القائل : « طردت عني المغتاب لجاره في الخفاء » (١) . ان كنت تحب انسانا كما تقول فصل من اجله خفية ولا تسخر به ، فهذه هي المحبة المقبولة عند الرب . ولن اخفي عنك ان يهوذا كان من مصف التلاميذ واللص من مصف المجرمين ويا للعجب كيف تحولا في لحظة واحدة حاسمة ! فاحترس اذا ولا تدن البتة من يزل .

٥ ــ من يشاء ان يغلب روح النميمة فلا ينسبن المذمــة الى من يــزل بل الى الشيطان الذي يوحي ، لانه لا يوجد انسان يريد ان يخطأ حقيقة الى الله ــ بالرغم من اننا نخطأ جميعا دون ان نكون مجبرين على ذلك .

٦ ــ رأيت رجلا خطىء علانية وتندم سرا فالذي حكمت عليه بأنه زان حسب عند الله عفيفا لانه استرضاه بتوبة صادقة .

٧ ــ لا تستح ابدا ممن يغتاب لديك قريبه بل قل له : « كف يا اخي فاني اقع كل يوم في زلات اصعب ، فكيف يمكنني ان احكم على ذاك ؟ فانك ستجني بهذا الضماد

---

(١) بز ..: ٥ .

http://coptic-treasures.com

فائدتين : تشفي نفسك ونفس قريبك . وهذه من اقصر الطرق الموصلة الى غفران الزلات ، اعني الا ندين احدا ، وذلك حسب القول الصادق : « لا تدينوا كيلا تدانوا » (٢) .

٨ — كما ان الماء غريب عن النار كذلك الادانة غريبة عمن يريد ان يتوب . ولو عاينت انسانا يخطأ في وقت خروجه من الدنيا فلا تدنه حتى في ذلك الوقت ، لان حكم الله مجهول عند الناس ، وقد وقع اناس في خطايا عظيمة علانية ولكنهم عملوا سرا اعمالا صالحة اعظم منها ، فضل الساخرون اذ تمسكوا بدخان السقطة بدلا من شمس التوبة .

٩ — اسمعوا لي اسمعوا يا معشر الاشرار الذين يحاسبون الآخرين : ان كان القول صادقا وهو كذلك انه : « بالدينونة التي بها تدينون تدانون » (٣) فلا شك اننا سنسقط في الزلات عينها التي لنا قريبنا عليها ، جسدية كانت ام نفسية . وهذا لا محالة .

١٠ — ان هذا الامر يعرض للذين يحاسبون القريب عن هفواته بدقة وقسوة لانهم لم يبحثوا عن زلاتهم بحزم واهتمام ولا امعنوا في ذكرها كلها كما هي . ان من يعاين سيئاته بدقة دون ان يحجبها عنه حجاب حب الذات لن يهتم فيما بعد بشيء آخر في الدنيا ، بل يحسب ان عمره كله لن يكفيه للنوح على ذاته ولو عاش مائة سنة او ابصر نهر الاردن يجري من عينيه دموعا . وقد تصفحت النوح فلم اجد فيه اي اثر للوقيعة او للادانة .

١١ — ان الشياطين ، قاتلي البشر ، يدفعوننا اما الى ان نخطأ واما ، اذا لم نذعن لهم ، الى ادانة الذين يخطأون لكيما على كل حال يدنسونا .

١٢ — اعلم انه من العلامات الدالة على الحقودين الثالبين انهم غائصون بحال يرثى لها في روح المقت فيذمون وينقدون بارتياح وبأيسر مرام تعاليم قريبهم او اعماله او فضائله .

١٣ — رأيت البعض يقترفون سرا وخفية خطايا فظيعة ، ونظرا لما كان يتوهمه الناس من طهارتهم الفائقة كانوا يحتقرون جهرا ويهاجمون بقسوة الذين يذنبون ذنوبا صغيرة .

١٤ — ان ادانة الآخرين اختلاس وقح لمقام الله ، والحكم عليهم هلاك للنفس .

١٥ — كما ان الغرور يستطيع ان يهلك صاحبه دون اي هوى آخر كذلك فان عادة الادانة قادرة بمفردها على ان تهلكنا هلاكا كاملا ما دام قد قضي على الفريسي بسببها .

١٦ — ان قاطف العنب النبيه يأكل البالغ منه ولا يكترث للحصرم . وكذلك العقل الفطن الحصيف يبادر الى التشبه بالفضائل التي يبصرها في الناس . اما العادم الفطنة فيفحص عن المذمات والنقائص ، وفيه قد قيل : « تفحصوا اثما وبادوا اذ هم يفحصون » (٤) .

١٧ — لا تدن احدا ولو رأيت بعينيك ، فانهما كثيرا ما تخدعانك .

هذه درجة عاشرة يعلوها من يمارس الحب او النوح .

---

(٢) لو ٦ : ٣٧ .
(٣) متى ٧ : ٢ .
(٤) مز ٦٣ : ٦ .

http://coptic-treasures.com

المقالة الحادية عشرة

في اكثار الكلام وفي الصمت

١ ــ ذكرنا فيما سلف من كلامنا ان اغتياب الآخرين داء خطر جدا وانه يتسرب حتى الى الذين يظنون انفسهم فاضلين ولكن لسانهم يدينهم ويؤدبهم . والآن لنتكلم قليلا عن علة هذا الداء والباب الذي يدخل او بالحري يخرج منه .

٢ ــ اكثار الكلام هو عرش للعجب اعتاد ان يشهر ذاته عليه ويعرضها . اكثار الكلام دليل على عدم المعرفة ، وباب للوقيعة ، ومرشد الى المزاح ، وخادم للكذب ، واضمحلال للخشوع والندم ، وداع للضجر او مبدع له ، وسابق للندم ، ومشتت للعقل ، وملاش للتيقظ ، ومخمد للحرارة ، ومبيد للصلاة .

٣ ــ اما الصمت بمعرفة فهو ام للصلاة ، واسترداد من الاسر ، وصيانة لاضطرام القلب ، ورقيب على الافكار ، وراصد للأعداء وضابط للنوح ، وصديق للدموع ، وباعث على ذكر الموت ، ومصور للعقاب ، ومتطلع الى يوم الدين ، وخادم للاكتئاب ، وعدو للدالة ، وقرين للهدوء ، وخصم لحب التعليم ، ونمو للمعرفة ، ومبدع للتأمل ، وتقدم خفي ، وصعود غير منظور .

٤ ــ من عرف زلاته ضبط لسانه ، اما الكثير الكلام فلا يعرف ذاته بعد كما يجب .

٥ ــ صديق الصمت يتقرب من الله واذ يناجيه سرا يستنير بنوره .

٦ ــ صمت يسوع افحم بيلاطس وسكون المرء يبطل عجبه .

٧ ــ قاه بطرس بكلمة فبكى بكاء مرا ، ذلك لانه لم يذكر القول القائل : « سأتيقظ في طرقي لئلا اخطأ بلساني » (١) ، ولا القول الآخر : « الزلة من السطح ولا الزلة من اللسان » (٢) .

٨ ــ لا اريد الاطالة في هذا الموضوع ولو ان كثرة حيل هذا الهوى تحملني على الاطالة . غير اني سمعت احد المستفسرين لدي عن الصمت يقول مرة : ان اكثار

---

(١) مز ٣٨ : ١ .

(٢) ابن سيراخ ٢٠ : ٢٠ .

http://coptic-treasures.com

الكلام يتولد على كل حال من احدى الخصال الآتية : اما من تأثير بيئة منحلة وعادة سيئة (لأن اللسان كما زعم هو عضو من اعضاء الجسد وحسبما يربو يعتاد ويطالب بما اعتاد عليه) واما من العجب ، عند المجاهدين بصورة خاصة ، وبعض الاحيان ايضا من الشراهة ، فلذلك حدث مرارا ان الجم كثيرون معدتهم فقهروا معها وضبطوا بسهولة هذر لسانهم .

٩ — من اهتم بخروجه من الدنيا قطع كلامه ، ومن اقتنى نوحا على ذاته احجم عن اكثار الكلام احجامه عن النار .

١٠ — من احب السكينة اطبق فاه . ومن يسر بالتجول خارج قلايته يطرد ذاته منها .

١١ — من عرف شذا النار العلوية هرب من الجموع هرب النحلة من الدخان ، لأن الدخان يطرد النحل كما تعيق الجموع الرهبان .

١٢ — ان اناسا قليلين جدا يستطيعون ان يضبطوا مـــاء غير منحصر ، واقل منهم يستطيعون ان يلجموا لسانا غير منضبط .

هذه درجة حادية عشرة من علاها فقد قطع دفعة واحدة كثرة وافرة من السيئات .

http://coptic-treasures.com

المقالة الثانية عشرة

في الكذب

١ — من احتكاك الحجر والحديد تتولد النار ، ومن كثرة الكلام والمزاح يتولد الكذب .

٢ — الكذب يطفىء المحبة ، واليمين الكاذبة انكار لله .

٣ — لا يتوهمن احد من ذوي استقامة الراي ان خطيئة الكذب صغيرة ، فان الروح الكلي قدسه قد حكم عليها حكما رهيبا دون سائر الخطايا . فان كان الله « يهلك كل الذين يتكلمون بالكذب » حسب قول داود (١) فماذا يحل بالذين يلفقون كذبهم بأقسام ؟

٤ — رأيت اناسا يتبجحون بأكاذيبهم ويتسجون بالمزاح والكلام البطال فنونا من الضحك يلاشون به نوح السامعين بصورة يرثى لها .

٥ — اذا رآنا الشياطين مؤثرين الهرب من استماع الحديث المزاح كالهرب من الطاعون حال ابتداء المازح بحديثه عملوا على خداعنا بأحد فكرين موشوشين لنا ان : « لا تسبب غما للمتحدث » او « لا تظهر ذاتك اوفر حيا لله من الآخرين » . فابتعد انت ولا تبطىء والا فسوف ترتسم خواطر الضحك في صلاتك . ولا تهرب فقط بل بادر الى فض ذلك المجلس الرديء بايرادك لهم ذكر الموت ويوم الدين ، اذ ربما خير لك ان يصيبك من جراء ذلك قليل من المجد الباطل وتكون سببا لمنفعة كثيرين .

٦ — المراءاة ام الكذب وكثيرا ما تكون قياسا له . فان البعض يقولون بأن المراءاة ليست سوى تنميق الكذب وتزويقه مدموجا بالحلفان ومجدولا معه .

٧ — من امتلك مخافة الرب تغرب عن الكذب حاويا في داخله قاضيا لا يرشى اعني وجدانه .

٨ — نتبين في الكذب كما هو الحال في سائر الاهواء درجات متفاوتة في الضرر . فان حكم من يكذب خوفا من قصاص غير حكم من يكذب دون ان يهدده خطر .

---

(١) مز ٥ : ٦ .

http://coptic-treasures.com

٩ ــ ومن يكذب عن طيش غير من يكذب للتسلية ، ومن يكذب ليثير الضحك غير من يكذب للكيد والاذى .

١٠ ــ يرتفع الكذب باستنطاق الرؤساء للكاذبين ومقاصصتهم ، ولكنه لا يتلاشى آخر الامر الا بواسطة كثرة الدموع .

١١ ــ من يتسامح في الكذب يتذرع عادة بحجة حسن التدبير وكثيراً ما يعد اهلاك نفس فعل بر وصلاح . فان مختلق الاكاذيب يدعي التشبه براحاب (٢) ويقول انه باهلاك ذاته انما يخلص آخرين .

١٢ ــ اذا ما تطهرنا من الكذب تماما نستطيع حينذاك ان نلجأ اليه ، ولكن بخوف وعند الضرورة الماسة فقط .

١٣ ــ الطفل لا يعرف الكذب ، وكذلك النفس المنزهة عن الشر .

١٤ ــ من ابهجه الخمر يصدق كارها في كل ما يقول ، ومن اسكره خشوع الندم لا يمكنه ان يكذب .

هذه درجة ثانية عشرة من اعتلاها فقد اقتنى اصل كل الفضائل .

(٢) يشوع ٢ : ١ وما يليه .

http://coptic-treasures.com

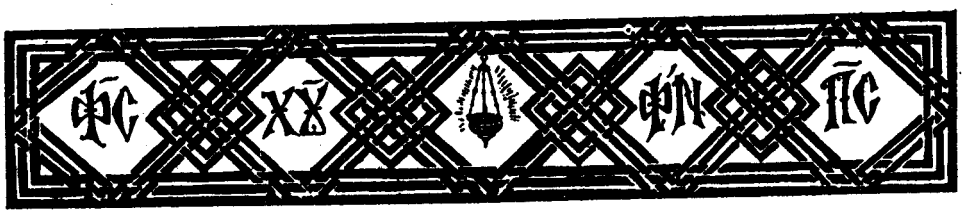

المقالة الثالثة عشرة

في الضجر

١ — يتفرع هذا الداء في كثير من الاحيان من الثرثرة ، بل هو فرعها الاول . ولذا رتبناه هنا في سلسلة الاهواء الخبيثة .

٢ — الضجر هو استرخاء للنفس وضعف للعقل وملل من النسك ومقت للعهد الرهباني وتطويب لأهل العالم وذم لله على انه ظالم وغير محب للبشر . هو فتور في تلاوة المزامير وتوان في الصلاة ، غير انه يجعل المرء دؤوبا في الخدمة ، نشيطا في الاعمال الجسدية ، نجيبا في الطاعة .

٣ — الراهب في الجماعة لا يعرف الضجر لانه يستخدم الحسيات في سبيل الروحيات .

٤ — حياة الشركة تناقض الضجر ولكن هذا الداء رفيق للمتوحد يلازمه حتى وفاته ويصارعه كل يوم حتى مماته . انه يبتسم اذا رأى قلاية متوحد ويتسلل فيسكن بقربه .

٥ — يعود الطبيب مرضاه في الصباح اما الضجر فيفتقد الرهبان في نصف النهار (١) .

٦ — ان الضجر يوحي الى الرهبان ان يكونوا مضيافين ويحثهم على اصطناع الصدقات عن طريق العمل اليدوي ويحضهم على افتقاد المرضى بنشاط مذكرا اياهم بقول القائل : « كنت مريضا فزرتموني » (٢) ، ويشير عليهم بالذهاب الى من اشتد اغتمامهم وصغرت نفوسهم هاجسا لهم ، وهم المتضجرون ، بقول الرسول : « عزوا المتضجرين » .

٧ — عند وقوف الرهبان للصلاة يذكرهم الضجر الاحمق بأعمال ضرورية ويحتال بشتى الوسائل لكيما بحجة واهية ينتزعهم منها كما برسن .

---

(١) مز ٩٠ : ٦ .

(٢) متى ٢٥ : ٣٦ .

http://coptic-treasures.com

٨ ــ ان شيطان الضجر يختلق للراهب في الساعة الثالثة (٣) تشعريرة وصداعا وحمى ومغصا ، واذا حانت الساعة التاسعة (٤) يرفع الراهب راسه قليلا، ومتى اعدت المائدة يثب من فراشه . ولكن متى داهمه وقت الصلاة من جديد يعود جسمه فيثقل وما ان ينتصب للصلاة حتى يغرقه الضجر في النعاس ويخطف آيات المزامير من فمه بتثاؤب في غير وقته .

٩ ــ كل رذيلة غير الضجر تبطل فضيلة واحدة اما الضجر فهو موت كامل لكل فضائل الراهب .

١٠ ــ النفس الشجاعة تحيي العقل المحتضر اما الضجر والفتور فيبددان كنزنا كله .

١١ ــ ما دام الضجر احد الرذائل الثمانية واثقلها كلها فلنفعل به كما فعلنا بغيره مستحضرين اياه أمام محكمة العقل . ولكن فلنضف قبل ذلك ما يلي : خارج اوقات الصلاة لا يظهر الضجر ، وعند الانتهاء منها تنفتح اعيننا .

١٢ ــ في اوان الضجر يعرف الذين يغصبون ذواتهم (٥) ، فانه ليس مثل قتال الضجر يكسب الراهب كثرة الاكاليل .

١٣ ــ ان راقبته تجده اذا وقفت يصارعك لكي تجلس ، واذا جلست يحثك على الاستناد الى الحائط والتطلع من النافذة واصطناع ضجة بالضرب على الارض بقدميك .

١٤ ــ من ينوح على خطاياه لا يعرف الضجر اصلا .

١٥ ــ والآن فلنقيد هذا المغتصب بذكر هفواتنا ونصفعه بالعمل اليدوي ونجره الى المحاكمة بتأمل الخيرات المنتظرة ونساله عند وقوفه امام محكمة العقل قائلين :

١٦ ــ قل لنا ايها المخلع من ولدك شر ولادة ومن هم ابناؤك ومن هم محاربوك ومن هو قاتلك ؟ فقد يجيبنا مكرها ويقول : ليس لي مكان اسند اليه راسي عند المطيعين حقا ، ولكنني استريح عند المتوحدين فأقيم معهم . اما امهاتي فهي كثيرة ، منها عدم الحس حينا ونسيان النعم السماوية حينا آخر وكثرة الاتعاب وثقلها احيانا . اما اولادي ورفاقي فهم التنقل من موضع الى آخر وعصيان الأب الروحي وعدم ذكر الدينونة وربما نقض العهد الرهباني . وخصماي اللذان كبلاني كما ترون هما تلاوة المزامير والعمل اليدوي . وعدوي هو ذكر الموت . اما التي تميتني فهي الصلاة المقترنة بالرجاء الثابت بالخيرات المنتظرة . وان اردتم ان تعرفوا من يلد الصلاة اسألوها هي فتخبركم .

هذه غلبة في درجة ثالثة عشرة ، من اقتناها حقا فقد صار مختبرا في كل صلاح .

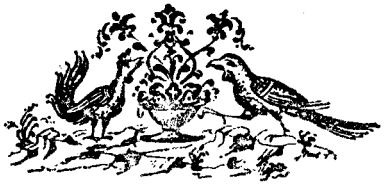

---

(٣) الساعة التاسعة صباحا .

(٤) الثالثة بعد الظهر .

(٥) متى ١١ : ١٢ .

http://coptic-treasures.com

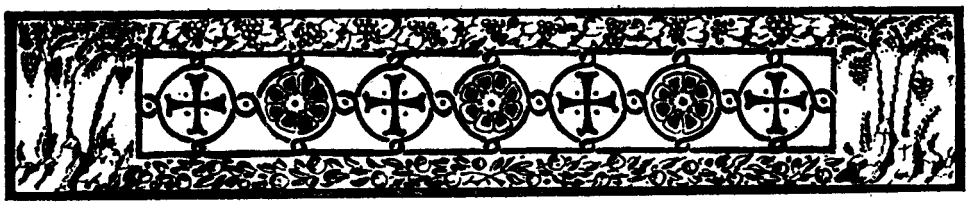

المقالة الرابعة عشرة

في الشره ، السيد الكثير الأذى والمستحب عند الجميع

١ ــ اذ قد عزمنا ان نتكلم عن الشره كما تكلمنا عن غيره من الاهواء فاننا نضطر بصورة اخص ان « نتفلسف » على ذواتنا . لاني اعجب ممن تحرر من نير معدته قبل ان يسكن القبر .

٢ ــ الشره خدعة المعدة اذ تكون متخمة فتصيح مدعية العوز ، وتكون محشوة حتى الانفجار فتشكو الجوع .

٣ ــ الشره يبتكر اصناف التوابل ويتفنن في تطييب المآكل ، انه ينبوع للذات المائدة اذا اوقفت جريه تدفق من منبع ثان واذا سددت هذا المنبع فتح له مجرى آخر .

٤ ــ الشراهة خدعة للنظر اذ نحن لا نستطيع ان نقتبل الا قدرا يسيرا من الاطعمة ونظن انه بامكاننا ابتلاع كل ما هو موضوع على المائدة دفعة واحدة .

٥ ــ الشبع يولد الزنى ، والتضييق على المعدة طريق الى العفة .

٦ ــ من يلاطف اسدا كثيرا ما يروضه ومن يدلل جسده يزيد في جموحه وهياجه .

٧ ــ يفرح اليهودي بسبته واعياده ، اما الراهب الشره فيفرح بأيام السبوت والآحاد ويحسب الزمن الباقي لعيد الفصح ويهيىء له الاطعمة قبل حلوله . عبد جوفه يهتم بأية مآكل يعيد ، وعبد الله بأية مواهب وفضائل يستغني .

٨ ــ اذا زار قوم غرباء راهبا منقادا لمعدته يحركه الشره الى المحبة بجملته فيؤاكل ضيوفه معتبرا استسلامه لشهوته تعزية لهم . وربما استصوب ان ينقض امساكه عن شرب النبيذ في حضرتهم واذا ظن انه يخفي بذلك فضيلته فقد صار عبدا لهواه .

٩ ــ كثيرا ما يعادي العجب الشره فيتخاصمان على الراهب الشقي كما على شراء عبد . فالشره يحثه على حل امساكه والعجب يحضه على اشهار فضيلته . اما الراهب الحكيم فيتخلص منهما بطرده الواحد بالآخر عند حضوره .

١٠ ــ اذا هاج جسدنا فلنكبحه بالامساك كل حين وفي كل مكان . واذا سكن ،

http://coptic-treasures.com

وهذا في ظني لا يتحقق قبل القبر ؛ نستطيع حينذاك اخفاء صومنا عن ضيوفنا .

١١ ــ رايت شيوخا كهنة تخدعهم الشياطين ، فيعمدون في مجالس الشرب الى مباركة شباب ليسوا تحت طاعتهم كي يشربوا الخمر ويخففوا من وطاة تقشفهم . فان كان اولئك الشيوخ ذوي فضيلة ، مشهودا لهم من الجميع ، نستطيع ان نخفف نسكنا باعتدال وان كانوا متوانين فلا نعير مباركتهم لنا اي اهتمام ، لا سيما ان كنا في قتال شديد مع جسدنا .

١٢ ــ قال افاغريوس : « اذا اشتهت نفسنا اغذية متنوعة فلنضيقن عليها بالخبز والماء » . وكانه بذلك يأمر طفلا بصعود السلم كلها دفعة واحدة وليس درجة فدرجة . اما نحن فنقول : اذا اشتهت النفس اغذية متنوعة فهي تطلب ما لطبيعتها ، ولذا يجب اللجوء الى المخادعة ازاء اكثر الاهواء خداعا . فان لم نكن في قتال شديد الوطاة او في ضرورة لمعاقبة ذواتنا على هفوات معينة فلنمتنع اولا عن الاطعمة الدسمة ثم الحامية فالملذة . وان امكنك فأعط معدتك طعاما كافيا وسريع الهضم حتى بكفايته ترضي نهمها الجشع ، وبسرعة هضمه تنجو انت من سقوط الحماوة المفرطة . فاذا دققنا وجدنا ان معظم الاطعمة الدسمة والمتخمة تثير الجسد .

١٣ ــ اهزأ بالشيطان الذي يوحي اليك بعد العشاء بتأخير ميقات عشائك بعد اليوم ، فانه متى حانت الساعة التاسعة (١) من اليوم التالي يحملك على التراجع عما نويت في اليوم السابق .

١٤ ــ حمية السالكين بلا عيب غير حمية الخطأة التائبين ، فالاولون يمارسونها حين ينذرهم تحرك الشهوة فيهم بحاجتهم الى الحمية . واما الآخرون فعليهم ممارستها بلا استرخاء ولا هوادة حتى آخر حياتهم . الاولون يبتغون المحافظة على سلامهم ، اما الآخرون فيلتمسون استعطاف الله بنواحهم وتوبتهم .

١٥ ــ ان المتوحد الكامل يسر ويتعزى حين انعتاقه من كل اهتمام دنيوي والمجاهد حين احتدام مصارعاته . اما اسير اهوائه فعند حلول « عيد الاعياد وموسم المواسم » (٢) .

١٦ ــ الشرهون يحلمون بالاغذية والمآكل والتائبون بالعذاب الابدي ويوم الدين .

١٧ ــ سد على معدتك قبل ان تسود هي عليك فتضطر اذ ذاك تحت وطأة الخجل ان تتعب جدا لتتحرر من طغيانها . من سقط في تلك الهوة الشنيعة ادرك ما قلناه ، اما الخصيان فلم يخبروه .

١٨ ــ لنقمع نهمنا بذكر النار الابدية لان اناسا قد استسلموا له فعمدوا في النهاية الى بتر اعضائهم وماتوا موتا مضاعفا . واذا دققنا وجدنا ان النهم وحده يغرق الناس اغراقا كهذا .

١٩ ــ ان عقل الصوام يصلي بأفكار طاهرة ، اما عقل الشره فيمتلىء صورا نجسة .

٢٠ ــ ان اتخام المعدة يجفف ينابيع الدموع ، اما اذا جفت المعدة بالامساك فتنبع تلك المياه .

٢١ ــ من اعز معدته وشاء في الوقت نفسه ان يقهر روح الزنى يشبه من يطفىء حريقا بزيت .

٢٢ ــ اذا ضيقنا على معدتنا تذلل قلبنا ، واذا لذذناها تعجرف فكرنا .

٢٣ ــ لاحظ ذاتك في الصباح الباكر وعند الظهر وفي المساء قبل موعد الطعام

---

(١) الثالثة بعد الظهر .

(٢) عيد الفصح .

http://coptic-treasures.com

فتتبين منفعة الصيام . لأن ذهننا في الغداة يشرد متنقلا من فكر الى آخر ، وعند الظهيرة يهدأ قليلا ، وعند غروب الشمس يسكن تماما ويكون في سلام .

٢٤ — اكبح معدتك فتتغلق بالضرورة فمك لأن كثرة الاطعمة تشدد لساننا فيفيض بالكلام البطال . صارع تلك العاتية بكل قدرتك وضيق عليها فانك اذا تعبت قليلا يعضدك الرب سريعا .

٢٥ — ان الزق اللين يتمدد فيسع مقدارا اكبر من السوائل ولكن اذا اهمل وجف فلا يعود يسع ذلك المقدار . كذلك من يتخم معدته بالطعام يوسع امعاءه ومن يجاهد ويقلل طعامه يضمرها ويضيقها . واذا ضاقت الامعاء لا تطلب غذاء كثيرا ، وحينئذ نصير صوامين بالطبع .

٢٦ — قد سكن العطش احيانا عطشا . اما ان يقطع الجوع جوعا فهذا مستصعب بل متعذر . فاذا قهرك الجوع اقمعه بممارسة الاتعاب ، وان عسر عليك ذلك نظرا لضعفك فقاتله بالسهر ، واذا ثقلت عيناك فتناول عملا يدويا . اما اذا لم يدهمك النعاس فلا تتناول عملا لأن خدمة الله والمال غير مستطاعة ، اي انه يتعذر انشغال العقل بالله والعمل في آن واحد .

٢٧ — اعلم ان الشيطان كثيرا ما يجلس في الجوف فيجعل المرء لا يشبع ولو اكل مصر كلها وشرب نيلها . ثم ينصرف الشقي فيرسل الينا روح الزنى مخبرا اياه بحالنا وقائلا : ادركه ، داهمه ، فان جوفه مثقل فلن تتعب كثيرا في التغلب عليه . فاذا وافى تبسم وغل بالنوم ايدينا وارجلنا ثم صنع بنا ما اراد مدنسا نفسنا وجسمنا بأدناس وخيالات واحتلامات نجسة .

٢٨ — انه لأمر عجيب ان نرى الذهن الذي لا جسم له يدنسه الجسد ويظلمه ، وان نرى بالعكس هذا الذهن اللامادي عينه يطهره احيانا ذلك الجسد الترابي نفسه ويرهفه .

٢٩ — ان كنت عاهدت المسيح على سلوك الطريق الضيق الضاغط فضيق معدتك لأنك ان ارضيتها واوسعتها خالفت عهدك . تأمل ما يقوله الرب : « ان طريق » الجوف « المؤدي الى هلاك » الزنى « واسع ورحب ، والداخلون فيه كثيرون ، واما طريق » الصوم « المؤدي الى حياة » العفة « فهو ضيق وكرب والداخلون فيه قليلون » (٣) .

٣٠ — رئيس الشياطين كوكب الصبح (الساقط من السماء) ورئيس الاهواء الشره .

٣١ — متى اتيت مائدة الطعام اذكر الموت والدينونة فانك بهذا الذكر تتمكن بالجهد من اعاقة الشراهة قليلا . ومتى شربت مشروبا فلا تكف عن ذكر الخل والمرارة اللذين شربهما سيدك وهكذا تضبط هواك او على الاقل تتحسر وتتضع .

٣٢ — لا تنخدع فانك لن تنعتق من عبودية فرعون ولن تعاين الفصح السماوي ما لم تأكل طيلة العمر مرا وفطائر . اما المر فهو قسر الصوم وعذابه ، واما الفطائر فهي ذهن لا يتشامخ . وليلصق بنفسك قول القائل : « اما انا ، اذ كان الشياطين يضايقونني ، فلبست المسح ، واذللت بالصوم نفسي ولزمت صلاتي احشائي » (٤) .

٣٣ — الصوم هو اقتسار للطبيعة ، واقصاء لكل ما يستلذه الحلق ، وبتر لالتهاب الشهوة ، وقطع للأفكار السيئة ، وتحرر من الاحلام الليلية ، وتنقية

---

(٣) متى ٧ : ١٣ — ١٤ .

(٤) مز ٣٤ : ١٣ .

http://coptic-treasures.com

الصلاة ، ونور للنفس ، ويقظة للذهن ، وجلاء لقساوة القلب ، وباب للخشوع ، وتهد منسحق ، وتحسر فرح ، وتهدئة للثرثرة ، وسبيل السكينة ، وحارس للطاعة ، وخفة للنوم ، وعافية للجسد ، ووسيط للاهوى ، وغفران للخطايا ، وباب للفردوس والنعيم .

٣٤ ــ فلنسأل ايضا هذا الهوى بل الاولى بنا ان نسأله قبل كل الاهواء فانه امام اعدائنا ومحاربينا وباب لسائر الاهواء وعلة سقطة آدم ومهواة عيسو وهلاك الاسرائيليين وخزي نوح وخراب عمورة ومخلة لوط وموت ابني عالي ، بل هو المؤدي الى النجاسة ، وينبوع انواع الفساد ، فلنسأله ممن يولد ومن هم اولاده ومن الذي يسحقه ومن الذي يبيده الى الغاية ؟

٣٥ ــ قل لنا ايها المتسلط على كل البشر والمبتاع الجميع بذهب عدم الشبع ، من اين لك الدخول الينا ؟ وما الذي تحدثه فينا عادة بعد دخولك الينا وما الذي يخرجك منا ويعتقنا من عبوديتك ؟

٣٦ ــ فينزعج لشتائمنا ويحتدم غضبا وغيظا ويجيبنا بإباء قائلا : لماذا ترشقونني بتعييراتكم وانتم خاضعون لي وكيف تحاولون الانفصال عني وانا مرتبط بكم بالطبيعة ؟ فالاطعمة هي الباب الذي ادخل منه ، والداب على تناول الطعام علة نهمي ، واقترانه بعدم الاحساس وعدم ذكر الموت يثبتني . ثم كيف تبتغون ان تعرفوا اسماء اولادي ؟ فان سميتهم زادوا على عدد رمل البحر كثرة . ولكن اسمعوا فقط من هم ابكاري واحبتي : فابني البكر هو الجنوح الى الزنى ، وابني الثاني جفاء القلب ، وابني الثالث النوم . وينبعث مني بحر من الافكار السمجة وامواج من الادناس المختلفة ولجة من نجاسات خفية لا يباح ذكرها . اما بناتي فهن البلادة والثرثرة والدالة والسخرية والفنون المضحكة والمناقضة والخيلاء والمعاندة وعدم الطاعة وعدم الرقة وغفلة العقل والعظمة والجسارة ومحبة العالم ، تعقبها صلاة غير نقية وطياشة افكار وفي احيان كثيرة مصائب مفاجئة وغير متوقعة يليها اليأس الذي هو اعظمها شرا . ولعمري ان ذكر الانسان لهفواته يحاربني الا انه لا يغلبني ، والهذيذ بالخروج من الدنيا يعاديني كليا ، ولكن ليس عند الناس ما يبيدني تماما : من اقتنى الروح المعزي في داخله يتوسل اليه فيبطل الروح فعلي فيه . اما الذين لم يذوقوا المعزي الصالح فيطلبون بالضرورة ان يتنعموا بملذاتي .

هذه شجاعة للغلبة في درجة رابعة عشرة من تأيد بها يسارع جليا الى اللاهوى والى عفة قصوى .

http://coptic-treasures.com

المقالة الخامسة عشرة

في الطهارة والعفة العديمة البلى الحاصلة في البالين من جراء اتعابهم واعراقهم

مقدمة : في الجسدانيين واللاجسدانيين .

لقد سمعنا من فم الشراهة ، تلك المتسلطة الهائجة التي تكلمت الآن ، ان مولودها هو الزنى تحارب به ذوي الاجساد . ولا عجب في ذلك اذ هو ما يعلمنا اياه جدنا الاول آدم الذي لو لم ينغلب لبطنه لما عرف زوجته (اي لكان عاش معها كأخت الى الابد) . ولذا فالذين يحفظون الوصية الاولى (عدم الشراهة) لا يسقطون في المخالفة الثانية (الزنى) ، ومع بقائهم ابناء لآدم لا يعرفون ما صار اليه آدم . الا انهم دون الملائكة قليلا (كونهم خاضعين للموت) وذلك لئلا يصبح الشر عادم الفناء ، كما قال « اللاهوتي » (١) .

١ ــ الطهارة تبن لطبيعة العادمي الاجساد . الطهارة بيت للمسيح محبوب وسماء للقلب على الارض . الطهارة جحود للطبيعة فائق الطبيعة ، ومنافسة عجيبة للملائكة العادمي الاجساد في جسد فاسد مائت .

٢ ــ الطاهر هو من دفع عشقا بعشق واطفأ نار الارض بنار السماء .

٣ ــ العفة اسم جامع لكل الفضائل .

٤ ــ العفيف هو من لا يحس حتى في نومه بأية حركة غريزية ولا بأي تغير من هذا القبيل .

٥ ــ العفيف هو من لا يتأثر ولا ينفعل اطلاقا امام الاجساد على اختلافها .

٦ ــ ان حد الطهارة القصوى الكاملة ومقياسها ان تكون حال المرء واحدة امام الاجسام الحية وغير الحية ، الناطقة وغير الناطقة .

٧ ــ لا ينسبن احد طهارته لنفسه ، اذ لا يمكن ان يقهر احد طبيعته ، فحيث يكون قهر للطبيعة هناك دلالة على حضور الفائق الطبيعة ، « لأن الاكبر يغلب

---

(١) هو غريغوريوس النزنيزي .

http://coptic-treasures.com

الاصغر بدون متازعة » .

٨ ــ ابتداء الطهارة فكر لا تستوقفه الافكار السمجة واحتلامات تحدث احيانا دون ان ترافقها احلام وتخيلات . ومنتصفها حركات جسدية طبيعية حاصلة بفعل الاطعمة فقط وخالية من تخيلات واحتلامات . وكمالها موت الجسد بعد موت الفكر عن الافكار السمجة .

٩ ــ مغبوط هو بالحقيقة من لا يتأثر كليا ازاء كل جسد ولون وجمال .

١٠ ــ ليس الطاهر من حفظ طين جسده بلا دنس بل من اخضع جسده بالكلية لنفسه .

١١ ــ عظيم هو من لا ينفعل عند اللمس . واعظم منه من لا ينثلم من النظر ، وقد اخمد نار جمالات الارض بالتأمل في جمالات السماء .

١٢ ــ من يرد كلب الزنى بالصلاة يشبه من يقاتل اسدا . ومن يقاومه مواجهة يشبه من لا يزال يطارد عدوه . اما من يحتقر هاجس الزنى احتقارا كليا فقد قام من قبره وان كان في جسده بعد .

١٣ ــ اذا كان عدم التأثر بخيالات الاحلام الليلية دلالة صادقة على الطهارة فان الخضوع في اليقظة لاحتلام ناتج عن افكار سمجة دلالة اكيدة على الشهوانية .

١٤ ــ من يحارب هذا الخصم بأتعاب الجسد واعراقه يضاهي من يربط عدوه بغصن من الخيزران . ومن يحاربه بالامساك والسهر يماثل من يطوق عدوه بطوق . اما من يحاربه باتضاع الفكر وعدم الغضب والعطش فيشبه من يقتل عدوه ويدفنه في الرمل ، اعني في التواضع ، لان الرمل لا يطلع كلأ للأهواء ، انما هو تراب ورماد .

١٥ ــ يقيد بعضهم هذا المغتصب ويضبطه بجهاداته ، وآخر بتواضعه ، وغيره بوحي الهي . فالاول شبيه بكوكب الصبح والثاني بالقمر البدر والثالث بالشمس الساطعة ، وكل منهم سماوي السيرة . من الفجر ينبلج النور ثم تشرق الشمس ، فليفطن القارىء .

١٦ ــ يتظاهر الثعلب بالنوم والشيطان الكامن في الجسد بالعفة : الاول ليخدع دجاجة والثاني ليهلك نفسا .

١٧ ــ لا تثق بطين جسدك مدى حياتك ولا تركن اليه حتى تمثل امام المسيح .

١٨ ــ لا تطمئن الى تحصنك بأصوامك فان من لا يأكل البتة قد اهبط من السماء .

١٩ ــ ان بعض العارفين عرفوا الزهد تعريفا حسنا بقولهم انه معاداة الجسد ومقاتلة المعدة .

٢٠ ــ تحصل سقطات المبتدئين عادة نتيجة للتنعم . اما المتوسطون فيسقطون لتكبرهم ، علاوة على سقوطهم بتأثير التنعم ، وقد يسقط المبتدئون بسبب التكبر ايضا . اما الذين اقتربوا من الكمال فيسقطون بسبب ادانتهم للقريب وحسب .

٢١ ــ لقد غبط البعض الخصيان بالطبع لتحررهم من طغيان الجسد ، فطوبت انا الذين خصوا انفسهم (٢) بقطعهم افكارهم (٣) كل يوم قطع الاطراف بالسكين .

٢٢ ــ شاهدت اناسا ارتكبوا الخطيئة كرها وآخرون رغبوا في ارتكابها طوعا وما استطاعوا . فاشفقت على هؤلاء اكثر من اشفاقي على الذين يسقطون كل يوم ، اذ انهم يشتهون النقاوة رغم عجزهم عن الوصول اليها .

٢٣ ــ الساقط يرثى له ولكن من يسهل السقوط لغيره يرثى له اكثر لانه يحمل

---

(٢) انظر متى ١٩ : ١٢ .

(٣) اي افكار الزنى .

http://coptic-treasures.com

وزر السقطتين اعني خطيئته هو ولذة رفيقه (٤) .

٢٤ ــ لا تعمد الى صد شيطان الزنى بمحاجتك اياه لانه هو الذي يمتلك الحجج المعقوله اذ يحاربنا بطبيعتنا .

١٥ ــ من يحاول ان يقهر جسده او ان يقاومه بقوته يسعى باطلا لانه ان لم ينقض الرب بيت الجسد ليبني بيت النفس فباطلا يصوم ويسهر في سبيل نقضه (٥) .

٢٦ ــ قدم للرب ضعف طبيعتك معترفا حليا بحامل عجزت نفس موهبة العفة وانت لا تشعر .

٢٧ ــ ان الشهوانيين (على ما حدثني احدهم قد اختبر الامر وتغلب عليه) يحسون بنوع من هيام بالاجسام وكانه روح طاغ لا يشفق ، قائما بوضوح في وسط القلب ، يجعلهم يشعرون بوجع جسماني ملتهب كانون نار ولا يحتملون الله ويتهاونون بذكر العقاب ، مستخفين به ، ويمقتون الصلاه ، واثناء اكمال الفعل عينه يحتسبون الاجساد شبه ملتة كحجارة لا نفس لها ، ويكونون كمن حرجوا عن رشدهم ، ساهين سكرانين على الدوام من جراء شهوتهم للحلائق الناطقه وغير الناطقة . ولو لم تقصر الايام لما خلصت اي نفس لابسة هذا الطين الممزوج بدم وقيح . وان سالت كيف يكون ذلك اجبتك : ان كل مخلوق يتوق دون شبع لمجانسه مثيله ، فالدم يشتهي دما والدودة دودة والطين طينا ، افلا يشتهي الجسم جسما ايضا ؟ ولكننا نحن الذين نغصب طبيعتنا ونشتهي الملكوت نحاول بحيل مختلفة ان نخادع الكثير الخداع . فطوبى للذين لم يختبروا الشدة الموصوفة اعلاه . اما نحن فلنصل لكي ننجو الى النهاية من مثل هذه الخبرة . لان الذين انزلقوا وهبطوا في الهوة المذكورة هم بعيدون كل البعد عمن يصعدون وينزلون على السلم السرية (٦) ؛ ولا بد لهم من مكابدة اتعاب كثيرة مع جوع اقصى ليخرجوا منها .

٢٨ ــ لننظر ونحترس لعل اعداءنا الروحيين قد رتبوا لكل منهم دورا خاصا في اصطفائهم علينا كما في حرب منظورة كي يتعقبونا . ان هذا الامر لمذهل . وقد تأملت المجربين من الشيطان فلاحظت ان السقطات تختلف في الخطورة . من له اذنان فليسمع .

٢٩ ــ لقد اعتاد الشيطان ، لا سيما في محاربته للرهبان المجاهدين والمتوحدين ، ان يستعمل كل وكده ، واجتهاده وحيله وكيده وبراعته ليقاتلهم كثيرا بالخطايا المنحرفة عن الطبيعة دون الخطايا الطبيعية . ولذا ان التقى بعضهم مع نساء فانهم لا يحاربون بهن قط فيطوبون انفسهم على ذلك غير عالمين الاغبياء انه حيث دبر هلاك اعظم فلا حاجة الى هلاك اخف .

٣٠ ــ اني اعتقد ان قاتلينا الاشقياء يحاربوننا عادة ويحطموننا بالزنى غير الطبيعي نحن البائسين للسببين التاليين : اولا لتوفر مناسبات السقوط فيه في كل مكان ، ثم لشدة العذاب الذي يلحقنا من جرائه . وقد خبر ذلك من كان قد ساد على حمير الوحش ثم استسلم اخيرا لحمير الوحش العقليين فسقط من نعمته سقطة يرثى لها (٧) ، ورغم انه كان قد اغتذى بخبز سماوي ، فقد اعدم هذه البركة . والاعجب من هذا حقا ان معلمنا انطونيوس الكبير قال عنه بلوعة ، حتى بعد توبته : « لقد سقط ركن عظيم » . لكن ذاك الحكيم ستر نوع تلك السقطة اذ علم ان هناك

---

(٤) انظر المقالة ٢٦ : ١٢٧ .

(٥) مز ١٢٦ : ١ .

(٦) سلم يعقوب (تك ٢٨ : ١٢) .

(٧) وردت في كتاب بستان الرهبان .

http://coptic-treasures.com

زنى الجسد خلوا من جسد آخر ، ثم هناك لينا نوع من موت ا خطيئة ملمرة
ترامقنا على الدوام ، لا سيما في حداثتنا ، لا اجترىء ان ادفعها الى كتبه اذ يمسك يدي من قال « ان الافعال الكائنة منهم سرا قبيح ذكرها » وكذلك كتابتها وسماعها .

٣١ — ان هذا الجسد ، الذي هو لي عدو احبه (مع انه في الوقت نفسه ليس عدوا لي) ، قد سماه بولس الرسول موتا بقوله : « من ينقذني من جسد الموت هذا ؟ » (٨) ودعاه لاهوتي اخر (٩) « منحلا » و « عبدا » و « ليليا » . وانا تواق الى معرفة سبب تسميته هكذا . فان كان الجسد موتا كما ذكر فمن البين ان من قهر جسده لا يموت ولكن اي انسان يحيا ولا يرى موت جسده ؟

٣٢ — واني لاتساءل ولست ادري من الاعظم هل هو من يموت ويقوم ام من لا يموت بالكليه ؟ من يغبط الثاني يضل لان المسيح مات ثم قام . ومن يغبط الاول يؤكد وجوب عدم جنوح احد من المائتين ، او بالاحرى من الواقعين ، الى اليأس .

٣٣ — ان امام الزنى ، عدو البشر ، يهمس لنا ان الله محب للبشر وانه يولي هذا الهوى رأفة كثيرة لكونه متماشيا مع الطبيعة . اما اذا رصدنا حيل الشياطين فنجدهم ، بعد وقوع الخطيئة ، يدعون الله قاضيا عادلا لا بشفق ، لانهم انما اوحوا لنا اولا بما اوحوا ليستميلونا الى الخطيئة واما الآن فليغرقونا في اليأس .

٣٤ — وما دام الحزن واليأس قائمين علينا فنحن لا نقوى على الندامة وملامة النفس ومعاقبتها على سقطتها ، (طلبا لرحمة الله) ، اما اذا همدا عنا فيعود المتسلط ويحدثنا عن محبة الله للبشر (ليسقطنا من جديد) .

٣٥ — ان الرب يسر بطهارة اجسادنا وعدم فسادها بقدر ما هو غير فاسد وبلا جسد . اما الشياطين ، على حد قول البعض ، فلا يفرحون بشيء كفرحهم بنتانة الزنى ولا يسرون بهوى كسرورهم بدنس الجسد .

٣٦ — الطهارة تجعل المرء اليف الله ونظيره بقدر ما يستطاع هذا للناس .

٣٧ — ام حلاوة الاثمار الارض والندى ، وام طهارة الجسد السكينة المقترنة بالطاعة . ولكن سلام الجسد الناجم عن السكينة لا يثبت بدون اضطراب اذا ما اتصلنا كثيرا بالعالم . اما الناجم عن الطاعة فهو ثابت في كل مكان ولا يتقلقل .

٣٨ — رايت كبرياء تقود الى التواضع ، فتذكرت القائل : « من عرف فكر الرب » ؟ (١٠) ثمرة الصلف السقوط ، ولكن السقوط كثيرا ما يكون لمن يشاء سببا للاتضاع .

٣٩ — من اراد ان يقهر شيطان الزنى بالنهم والتخم يشبه من يطفىء نارا بزيت .

٤٠ — ومن حاول ان يخمد تلك الحرب بالامساك فقط فهو يشبه من يسبح بيد واحدة ويروم الخلاص من لجة البحر . اقرن بالامساك تواضعا فان الامساك بلا تواضع باطل .

٤١ — من رأى نفسه منغلبا لأحد الاهواء فليتدرع ضده وضده وحده دون الاهواء الاخرى ، لا سيما اذا كان عدوا اليفا (كنهم البطن) ، لاننا ما لم نغلبه لن ننتفع شيئا من انتصارنا على البقية . اما اذا تتلنا هذا المصري (١١) فسنعاين الهنا ولا شك في عوسجة التواضع (١٢) .

---

(٨) رو ٧ : ٢٤ .
(٩) القديس غريغوريوس النزينزي .
(١٠) رو ١١ : ٣٤ .
(١١) خروج ٢ : ١١ .
(١٢) خروج ٣ .

http://coptic-treasures.com

٤٢ ــ لقد جربت انا مرة وشعرت بهذا الذنب يحدث في نفسي فرحا مبهما ودموعا وتعزيه خاصة فظننت في سذاجتي انني قد اجسيت سرا لا مساسا .

٤٣ ــ ان كانت « كل خطيئة يفعلها الانسان هي خارج الجسد اما من يزني فيخطىء الى جسده » (١٣) فهذا لاننا ولا شك ندنس الجسد نفسه بالسيلان الجاري منه ، وهو امر متعذر في الخطايا الاخرى .

٤٤ ــ واود ان اسأل لماذا اعتدنا القول في اية خطيئة ان الناس قد زلوا وحسب اما اذا سمعنا عن احد انه زنى فنقول بتوجع : ان فلانا قد سقط ؟

٤٥ ــ كما ان الدموع تهرب من الصخرة بسرعة كذلك تهرب النفس الشهوانية من العزلة .

٤٦ ــ متى عزم ابليس على ان يربط بين شخصين برباط متين اثار ميول كل منهما نحو الاخر ، ومن هناك ابتدا بالشر .

٤٧ ــ ان الجاحدين الى اللذة كثيرا ما يظهرون شفوقين رحومين وسريعي الدمعة ، في حين ان التائبين على العفة لا يقتنون هذه المحامد على هذا الوجه .

٤٨ ــ سألني رجل عالم سؤالا خطيرا فقال : « اية خطيئة هي اثقل الخطايا كلها عدا القتل والكفر ؟ » ولما اجبته : « سقوط الانسان في بدعه في الدين » قال لي : كيف اذن تقبل الكنيسة الجامعة ذوي البدع في الدين عند رجوعهم عن ضلالهم رجوعا صادقا وتحسبهم مستحقين الاشتراك في الاسرار ، في حين ان القوانين الرسولية تحكم على الزاني الذي يتوب عن خطيئته بأن يفرز سنين معينة من الاسرار الطاهرة ؟ » فاحترت للامر ولم اجد له حلا .

٤٩ ــ لنستقص ونتعقب ونرصد اللذة التي تتكون فينا اثناء ترتيل المزامير من شيطان الزنى ، والتي تأتي من اقوال الروح ومن النعمة والقوة الكامنتين فيها .

٥٠ ــ لا تنخدع ايها الشاب فاني رايت اناسا يصلون لأجل احبائهم من كل نفوسهم يحركهم روح الزنى الى ذلك فيظنون انهم يتممون شرعة المحبة .

٥١ ــ قد يتدنس الجسد بمجرد اللمس اذ ليس اخطر من هذا الحس . فاذكر الذي لف يده بمنديل (ليحمل امه المريضة) وامنع يدك عن اللمس الطبيعي وغير الطبيعي وعن لمس جسدك وجسد غيرك .

٥٢ ــ اني ارى ان لا يقال عن احد انه قديس حقا وبالكلية الا اذا قدس تراب جسده اولا ، اللهم ان كان هذا ممكنا .

٥٣ ــ عند استلقائنا على فراشنا فلنتيقظ باكثر احتراس لان العقل آنذاك يصارع الشياطين وحده دون الجسد ، فان مال الى اللذة استسلم لها بأيسر مرام .

٥٤ ــ ليرقد وينهض معك ذكر الموت مع صلاة اسم يسوع (١٤) فانك لن تجد في نومك عضدا مثل هذا .

٥٥ ــ يعتقد البعض ان القتالات والاحتلامات الليلية تحدث من جراء الاطعمة فقط ولكنني شاهدت سقماء مدنفين واناسا هائمين الى الغاية قد تدنسوا جدا بهذه العوارض . وسألت مرة عن هذه الامور احد الرهبان ذوي التمييز والخبرة فعلمني ذلك المغبوط الدائم الذكر تعليما واضحا جدا ، فقال : « يحدث الاحتلام في النوم من كثرة الاطعمة ومن رخاوة السيرة . ويعرض احيانا من الغرور عندما نتباهى بانقطاع السيلان منا منذ زمن طويل . كما يحدث ايضا من ادانتنا للقريب » . واضاف ان العارضين الاخيرين قد يعرضان للمرضى ايضا ، بل وربما العوارض

---

(١٣) اكو ٦ : ١٨ .

(١٤) هي اليوم صلاة يسوع : « ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني انا الخاطىء » تردد مع التنفس .

http://coptic-treasures.com

الثلاثة ، واذا وجد احدنا ذاته نقيا من كل الاسباب الآنفة الذكر فمغبوط هو لامتلاكه مثل هذا اللاهوى . وان تعرض للسيلان فيكون هذا من حسد الشياطين فقط ، والله يسمح به الى حين لكي يبلغ الانسان الى الاتضاع الاسمى من خلال عارض خال من الخطيئة .

٥٦ ــ لا يعمدن احد الى التفكير نهارا في الخيالات التي تراءت له في النوم . فان غرض الشياطين هو ان يدنسونا بأحلامنا متى استيقظنا .

٥٧ ــ لنسمع ايضا مكرا آخر لأعدائنا وهو انه كما ان الاغذية الضارة تسبب لنا المرض بعد حين او بعد يوم ، كذلك كثيرا ما يحدث هذا في تدنيس النفس . فاني رايت اناسا قد تنعموا بالاكل والشرب ولم يقاتلوا للحال ، كما عاينت آخرين يؤاكلون نساء ويعاشروهن ولا يفتكرون اي فكر خبيث للحين . فاذا اطمأن هؤلاء المخدوعون غير مبالين ، وظنوا انهم امتلكوا سلاما وامانا ، داهمهم في قلاياتهم هلاك مفاجيء . ولكن ما هو هذا الهلاك الجسدي والنفسي الذي يصيبنا حين نكون وحدنا على انفراد ؟ من جرب به فذاك يعرفه ، ومن لم يجرب فلا حاجة به ان يعرف .

٥٨ ــ والادوية الناجعة حينذاك هي المسح والرماد والوقوف ما طال الليل واشتهاء القوت الضروري ولسان ملتهب من العطش لا نندیه الا بقليل من الماء ، والسكنى في المقابر ، وقبل كل هذا قلب متضع ، تضاف اليه ان امكن مساعدة اب او اخ حريص ، يكون شيخا في تمييزه ، لأني اعجب ان يستطيع احد بمفرده انقاذ سفينته من الغرق في اليم .

٥٩ ــ كثيرا ما تستوجب سقطة يرتكبها احد الاخوة حكما اقسى بمائة ضعف مما اذا ارتكبها آخر وذلك بحسب اختلاف الظرف والمكان ودرجة نمو الأخ واعتبارات اخرى كثيرة .

٦٠ ــ حدثني احد عن طهارة عجيبة قصوى فقال ان رجلا شاهد امراة جميلة فمجد الله لأجلها تمجيدا سنيا ، وبدافع هذا المشهد تحرك الى حب الله بفيض من الدموع . وكان امرا مدهشا ان نرى علة سقوط البعض حاصلة لغيرهم مصدر اكليل فائق الطبيعة . فاذا كان مثل هذا الانسان في مثل هذه المواقف يمتلك كل حين مثل هذا الحس وهذا العمل فهو قد قام منذ الآن وصار عديم الفساد قبل القيامه العامة .

٦١ ــ وينطبق هذا النهج عينه على الالحان والاغاني لأن محبي الله يتحركون الى نشوة مقدسة وحب الهي ودموع من جراء استماع الاغاني العالمية والتسابيح الروحية على السواء . واما محبو اللذة فانهم على عكس ذلك .

٦٢ ــ ان اناسا ، كما سبق وقلنا ، يشتد قتالهم جدا في مواضع الصمت . ولا عجب في ذلك ، لأن الشياطين يرتادون تلك الاماكن منذ نفاهم الرب الى البراري والهاوية لخلاصنا . فبالسة الزنى يقاتلون الصامت شر قتال ليقتادوه من البرية الى العالم كأنه لم ينتفع فيها شيئا . وهم ينصرفون عنا اثناء مكوثنا في العالم لكيما نبقى مقيمين مع العلمانيين بداعي اننا غير مقاتلين هناك . فمن البين بالتالي انه حيث يقاتلنا عدونا فهناك نعاديه ونقاتله في الواقع اشد قتال . لأنه عندما لا نقاتله يكون بمثابة صديق لنا (١٥) .

٦٣ ــ ان يد الله تسترنا حين اقامتنا في العالم لقضاء حاجة ما ، ولعل هذا يحصل بصلاة ابينا كي لا يجدف على الرب بسببنا . ولربما يحصل ايضا لزوال تأثرنا بالعالم وطول خبرة سابقة به وملل مما يشاهد ويقال ويجري فيه ، او لانصراف البالسة طوعا عنا واخلافهم شيطان الغرور فينا ليملأ موضعهم كلهم .

---

(١٥) انظر المقالة ٤ : ١٠٩ .

http://coptic-treasures.com

٦٤ — يا كافة المقدمين على احكام الطهارة اسمعوا حيلة وخدعة اخرى لذاك الغاش واحترسوا ، فقد حدثني احد الذين خبروا مكره وقال ان شيطان الزنى ينسحب كليا في اكثر الاحيان حين يجالس الراهب نساء او يخاطبهن ، ويأتي به الى ورع اقصى وربما الى فيض من الدموع وقد يوحي اليه بان يعظهن عن دكر الموت والدينونة والعفة لكيما بكلامه وورعه الكاذب تبادر تلك الشقيات الى هذا الذئب كالى راع ، ومتى قامت بينهم عشره ودالة ينزلق الشقي الى السقوط .

٦٥ — لنفر هاربين من النظر الى تلك الثمرة التي عاهدنا الله ان لا نذوقها او من سماع شيء عنها ، لاني اعجب ان نحسب انفسنا اقوى من داود النبي ، بل هذا مستحيل .

٦٦ — ان مرتبة العفة رفيعة وعظيمة حتى ان بعض الآباء جسروا فدعوها باللاهوى .

٦٧ — يقول البعض ان كل من ذاق الخطيئة لا يمكن ان يدعى عفيفا بعد . فأقول انا ردا عليهم انه من الممكن والمتيسر لمن يشاء ان يطعم زيتونا بريا بزيتون جيد . ربما كان زعم هؤلاء صحيحا لو ان من أؤتمن على مفاتيح السماوات كان بتولا . ولكن فليخزهم من كان له حماة وصار عفيفا فحمل مفاتيح الملكوت (١٦) .

٦٨ — حية الزنى كثيرة الاشكال . فهي توحي لعادمي الخبرة بها ان يختبروها مرة فقط ثم يكفوا عنها ، وتوعز للذين خبروها باختبارها من جديد عن طريق تذكيرهم بها . ان كثيرين من الاولين لا يحاربون بها لعدم علمهم بهذا الشر . اما الباقون فيعانون منه قلقا وقتالا كونهم خبروا تلك القباحة . الا انه كثيرا ما يحدث عكس ذلك .

٦٩ — نستيقظ احيانا من النوم بطهر وسلام وهذا يأتينا بحال خفية من ملائكة قديسين لا سيما اذا كنا قد رقدنا بصلاة كثيرة وحرص جزيل . ولكننا نستيقظ احيانا اخرى بلا سلامة ولا صفاء ويحل بنا هذا من جراء احلام ورؤى سمجة .

٧٠ — رايت المنافق (روح الشهوة) متعاليا متشامخا ، هائجا في (بتشديد الياء) ومزبدا مثل ارز لبنان ، ثم جزت به بالامساك واذا بهياجه ليس كذي قبل ، وطلبته بعد ان اذللت فكري فلم يكن له في (بتشديد الياء) ولا اثر (١٧) .

٧١ — من قهر جسده فقد قهر طبيعته ومن قهر طبيعته فمن الجلي انه علا على الطبيعة . ومن بلغ هذه الحال فهو ينقص قليلا عن الملائكة ، كي لا اقول انه لا ينقص عنهم شيئا .

٧٢ — ليس عجيبا ان يقاتل روح روحا آخر ، ولكنه عجب عجاب بالحقيقة ان يهزم الانسان ذو الجسد اعداءه غير المتجسمين بجسده المعادي والمغتال له .

٧٣ — ان ربنا الصالح قد اظهر عنايته الكثيرة بنا بان ألجم وقاحة الانثى بالحياء كما بلجام لأنه لو كانت الانثى تحاضر الى الذكر لما نجا اي جسد .

٧٤ — ان هاجس الخطيئة في تحديد الآباء ذوي التمييز يختلف عن محاورتها ، والمحاورة عن القبول ، والقبول عن الأسر ، والأسر عن الصراع ، والصراع عما يسمونه بالهوى المستقر في النفس . فالآباء المغبوطون يحددون الهاجس بأنه مجرد الفكرة الخاطرة او الصورة الاولى التي ترتسم في القلب عن شيء ما جديد ، والمحاورة بأنها مخاطبة تلك الفكرة الخاطرة او الصورة الظاهرة في القلب سواء بانفعال او بدون انفعال ، والقبول بأنه رضا النفس بها ، والأسر بأنه انقياد القلب

---

(١٦) انظر لو ٤ : ٣٨ ومتى ١٦ : ١٩ .

(١٧) مز ٣٦ : ٣٥ و ٣٦ .

http://coptic-treasures.com

قسرا وكرها لها ، او وصال بها مستمر يطيع بسلامنا . اما الصراع فيعرفونه بأنه قوة تقابل القوة التي تقاتلنا وتساويها فاما ان نقهرها او ان ننهزم لها بحسب اختيارنا . واما الهوى الكامل فيقولون بانه داء معشش في النفس منذ امد بعيد وقد الت بها هذه الالفه الى العاده فاصبحت تخلد اليه طوعا وتستسلم له . فالحالة الاولى (الهاجس) بين هذه الحالات كلها تخلو من الخطيئة ، والثانية (المحاورة) ليست دائما بريئة من الخطيئة ، والثالثة (القبول) تختلف الخطيئة فيها بحسب حال المجاهد . اما الصراع فيسبب للمرء الاكاليل او العقوبات . واما الاسر فيحكم عليه اذا حدث وقت الصلاة بخلاف ما يحكم عليه في حدوثه خارج وقت الصلاة . وحكمه في الافكار الاثيمة غير حكمه في الافكار الاقل اثما . واما الهوى فلا مناص من ان تقابله توبة تعادله او ان يعاقب عليه . فمن يلقى الهاجس الاول بفكر خال من اي هوى يقطع بالتالي الحالات الاخرى كلها دفعة واحدة .

٧٥ — وهناك ايضا عند الآباء الاكثر دقة ومعرفة ذكر لفكر آخر أدق من الحالات المذكورة اعلاه يسميه بعضهم الفكر الخاطف قائلين بأنه يدفع بالهوى الى القلب بسرعة قصوى بدون اي زمان او قول او صورة . ولا يوجد اسرع منه في عالم الارواح ولا ابعد عن الملاحظة ، يظهر في النفس بمجرد ذكر ما بسيط غير مقترن بذكر آخر ودونما زمن فلا يستطاع تداركه بل ولا يدركه البعض اطلاقا . فمن استطاع بفضل نوحه ان يدرك لطافة هذا الفكر فذاك يقدر ان يخبرنا كيف يمكن بنظرة واحدة او بلمس يد او بسماع لحن ان تزني النفس خلوا من اي تصور او تفكير .

٧٦ — يقول البعض ان الجسد ينقاد الى الزنى من جراء الافكار السمجة ، ويعكس آخرون الامر فيقولون بأن الافكار السمجة تتولد من خلال حواس الجسد . اما الاولون فيزعمون انه لو لم يتحرك العقل اولا لما تبعه الجسد ، واما الآخرون فيسندون نظريتهم الى كيد الجسد قائلين بأنه كثيرا ما تجد الافكار مدخلا الى القلب من خلال رؤية منظر حسن او لمس يد او استنشاق طيب او استماع نغمة حلوة . فمن يستطيع ان يفيدنا في هذا المجال بنعمة الرب فليفعل . لأن مثل هذه المعرفة نافعة وضرورية جدا لمن يسلكون بوعي وفهم في السيرة النسكية . نعم ان السالكين فيها ببساطة القلب لا حاجة لهم الى شيء من المعرفة المذكورة ، لأن المعرفة ليست للجميع ، ولكن البساطة المغبوطة التي هي الدرع الواقي لكل مكايد الشرير ليست ايضا للجميع .

٧٧ — أن بعض الاهواء تبدأ في النفس وتسري الى الجسد ، اما الاهواء الاخرى فتدخل بالعكس من الجسد الى النفس . وتلازم الثانية اهل العالم ، اما الاولى فالعائشين في العزلة ، وذلك لفقدان الاسباب المادية للخطيئة في العزلة . غير اني اقول في هذا الشأن ما قاله الحكيم : « تطلب عند الاشرار انتظاما فلا تجد» (١٨) .

٧٨ — اذا جاهدنا كثيرا شيطان الزنى ، قرين الجسد ، وشددنا عليه بمحك (بتشديد الكاف) الصوم وسيف الاتضاع وانتزعناه من قلبنا ، حينئذ يتستر هذا الشقي ملتصقا بجسدنا على مثال دودة يدغدغنا بحركات بهيمية في غير وقتها محاولا ان يدنسنا قسرا .

٧٩ — ويعاني هذه الدغدغات بصورة خاصة المنقادون لروح العجب اذ يحسبون انهم تحرروا من افكار الزنى لعدم انشغال قلبهم بها باتصال فيقعون في هذا الهوى . والبرهان على صحة ما نقول انهم اذا ادركوا بعض السلام ، وتصفحوا ذواتهم

---

(١٨) وردت في الاصل : « فهما » بدلا من « انتظاما » (امثال ١٤ : ٦) .

http://coptic-treasures.com

بانتباه يجدون لا محالة فكر عجب مختفيا في قعر قلوبهم اختفاء حية في مزبلة ليهجس لهم انهم احكموا ما احكموه من عفة بجهدهم وجدهم ، ولم يذكروا (الاشقياء) قول القائل : « اي شيء لك لم تعطاه (١٩) مجانا اما من الله او باسهام آخرين وصلواتهم ؟ » فليلاحظوا اذا ذواتهم ويميتوا تلك الاهمى باتضاع كثير واحتراس بليغ ويخرجوها من قلوبهم حتى اذا تخلصوا منها استطاعوا يوما ان ينزعوا عنهم القمصان الجلدية ويسبحوا للرب تسبيح الظفر كالفتية الاطهار ، هذا أن وجدوا اللهم متشحين ببراءتهم واتضاعهم .

٨٠ — ان هذا الشيطان يرصد الظروف اكثر من غيره بكثير ، وعندما نكون غير قادرين على الصلاة جسديا لنتوقاه يحاول النجس ان يشدد علينا القتال .

٨١ — ويوافق الذين لم يمتلكوا بعد صلاة القلب الحقيقية ان يغصبوا ذواتهم في الصلاة الجسدية ، اعني رفع اليدين وقرع الصدر والتطلع الى السماء والتنهد العميق واحناء الركب باستمرار ، وبما انه كثيرا ما يتعذر علينا ذلك بسبب حضور بعض الناس فان الشياطين حينذاك تشدد علينا القتال . واذا كنا غير قادرين على مقاومة اعدائنا بثبات العقل وقوة الصلاة اللامنظورة فاننا نستسلم لهم بالضرورة . اما انت فاطفر سريعا ان استطعت واحتجب هنيهة في مكان خفي وارفع عيني نفسك ان امكنك والا فعينيك الحسيتين واصلب يديك بلا حراك لتخزي عماليق وتقهره بهذا الرسم . واهتف الى القادر ان ينقذك لا باقوال مدروسة بل بكلام متواضع بادئا كل صلواتك بهذا التضرع : « ارحمني يا رب فاني ضعيف » . وحينئذ تختبر قدرة العلي وتطرد غير المنظورين طردا غير منظور بمعونة غير منظورة . ومن اعتاد القتال على هذه الصورة سيقوى على طرد اعدائه بنفسه سريعا لأن هذه الغلبة الاخيرة انما هي جزاء الله العادل للممارسات الاولى .

٨٢ — لاحظت مرة اخا حريصا قد ازعجته في اجتماع رهباني افكار قبيحة واذ لم يجد مكانا ملائما ليصلي انطلق الى موضع قضاء حاجة الطبيعة كأنه عن اضطرار وتدرع هناك ضد محاربيه بصلاة قوية . فذممته انا على اختياره مكانا للصلاة غير لائق بها فأجاب : انني انما صليت في موضع قذر من اجل طرد افكار اكثر قذارة لأتنقى من نجاستها .

٨٣ — يحاول جميع الشياطين ان يظلموا عقلنا اولا ثم يهجسون له بما يريدون، لأن كنزنا لا يسلب ان لم يسه عقلنا . ولكن شيطان الزنى يفوق الكل في اعتماده هذا النهج فانه كثيرا ما يعمي عقلنا المترئس علينا ويجعلنا نعمل بحضرة الناس ما لا يعمله الا المغفلون . فاذا افاق عقلنا بعد حين نخجل من اعمالنا واقوالنا وتصرفاتنا الوضيعة ليس فقط امام الذين شهدوها بل امام ذواتنا ايضا ، ونعجب للسماجة التي بدت منا . ولذا كثيرا ما كف اناس عن اثمهم نتيجة لمثل هذا التفكير .

٨٤ — اقص عنك المجرب الذي يقطعك بعد اقتراف الخطيئة عن الصلاة والتقوى والسهر ، واذكر القائل : « لأجل ان النفس المتوجعة لذكر خطاياها تزعجني فسأنصفها من اعدائها» (٢٠) .

٨٥ — من قهر جسده ؟ الذي سحق قلبه . ومن سحق قلبه ؟ الذي جحد ذاته . اذ كيف لا ينسحق من قد مات عن مشيئته ؟

٨٦ — قد يوجد شهواني اكثر شهوانية من الشهوانيين ، فيجعل اعترافه بادناسه فرصة للتلذذ والاستمتاع . ان الافكار النجسة السمجة يلدها عادة في القلب

---

(١٩) اكو ٤ : ٧ .

(٢٠) انظر لوقا ١٨ : ٥ .

http://coptic-treasures.com

شيطان الزنى خادع القلب . اما شفاؤها فيكون بالامساك وباحتسابها كلا شيء .

٨٧ — لست اعلم كيف وباية سجية اربط صديقي هذا (جسدي) واحاكمه على مثال محاكمتي لبقية الاهواء ، لأنه يفلت قبل ان اربطه ، وقبل ان احاكمه اصالحه ؛ وقبل ان اعاقبه استسلم له . كيف اقهر من احب بالطبع ؟ كيف انعتق ممن انا مرتبط به الى الدهر ؟ كيف افرط بمن سيشاركني القيامة ؟ كيف اعتق من الفساد من اتخذ طبيعة فاسدة ؟ وباية حجة اقابل من حوى حجج الطبيعة الى جانبه ؟

٨٨ — ان ربطته بصوم وادنت القريب اسلمت اليه ايضا . وان كففت عن الادانة فغلبته ثم افتخرت تنازلت له ايضا . فهو لي حليف وعدو ، نصير وخصم ، كفيل وغادر . اذا راعيته هاجمني ، واذا ارهقته ضعفت معه ، اذا ارحته فجر ، واذا عدت فنبذته ناء تحت الحمل ، اذا اغضبته اجازف ؛ واذا اجهزت عليه فقدت ما اقتني بواسطته الفضائل . فاياه اعانق وعنه انثني .

٨٩ — ما هو السر في امري ؟ ما هو الباعث لهذا المزيج في ؟ كيف انا عدو ذاتي وصديقها في آن واحد ؟ قولي لي انت ، قولي لي يا قرينتي ، يا طبيعتي ، فاني لن اسأل عن خبرك غيرك . كيف انجو من تجريحك ؟ كيف استطيع الافلات من خطر طبيعتي ؟ فاني قد عاهدت مسيحي ان اعاديك . كيف اقهر استبدادك ؟ اذ قد عزمت على ان اقمعك .

٩٠ — اما هي فترد وتقول بحيث يخال لي ان الجسد يقول للنفس : لن اعلمك بما لا تعرفينه بل بما قد عرفناه كلانا معا : ان محبة الذات هي امي (ام الزنى) ؛ والنار التي تضرم في من الخارج مردها الاعتناء بذاتي ورخاوة سيرتي . اما الاضطرام مع جيشان الافكار من الداخل فيعود لرخاوة سالفة وزلات سابقة . انا متى حبلت ولدت السقطات ، وهذه بدورها ولدت الموت عن طريق اليأس . ان عرفت بوضوح عمق ضعفي وضعفك فقد ربطت يدي ، وان جوعت حلقك فقد قيدت رجلي عن المسير . وان خضعت لنير الطاعة فقد انعتقت من نيري وان اقتنيت الاتضاع فقد قطعت رأسي .

هذه جائزة في درجة خامسة عشرة من نالها وهو في الجسد فقد مات وقام وعرف منذ الآن طعم اللافساد الآتي .

http://coptic-treasures.com

المقالة السادسة عشرة

في حب المال

١ ــ لقد درج كثيرون من المعلمين الحكماء على الكلام عن روح حب المال ، ذلك الوحش ذي الألف رأس ، بعد الكلام عن الطاغية الذي تقدم البحث فيه الآن . ولذا لم اشأ انا الجاهل ان ابدل ترتيب الحكماء فاتبعت النهج عينه ، وبالتالي سأتكلم عن هذا الداء قليلا ان شئتم ثم عن علاجه بايجاز .

٢ ــ حب المال سجود للأوثان ، وثمر لعدم الايمان ، وتعلل بالامراض ، ونذير ينذر بالشيخوخة ، ويوحي بورود القحط ، وينبيء بالمجاعات .

٣ ــ محب المال يستهزيء بالاناجيل ويخالفها طوعا برضاه . من يحب الله يفرق امواله ومن يزعم انه يحب الله والمال يخدع نفسه .

٤ ــ من ينتحب ندما على خطاياه يجحد جسده ايضا وعند الضرورة لن يشفق عليه .

٥ ــ لا تقل انك تجمع المال من اجل الفقراء فان فلسين ابتاعا الملكوت (١) .

٦ ــ تقابل محب الغرباء ومحب المال فنعت الثاني الاول بعديم الفطنة .

٧ ــ من قهر حب المال فقد قطع عنه الهموم ومن استعبد له فلن يصلي يوما صلاة نقية .

٨ ــ ابتداء حب المال التذرع بالاحسان الى الفقراء ونهايته مقت الفقراء . ما دام محب المال يجمع فهو رحوم ومتى حضرت الاموال اطبق عليها يده .

٩ ــ رأيت فقراء في المال قد اغتنوا بسيرة الفقراء الى الله (٢) فنسوا فقرهم الاول .

١٠ ــ الراهب المحب المال لا يعرف الضجر ، اذ يذكر كل حين قول الرسول : « من كان بطالا فلا يأكل » (٣) والقول الآخر : « هاتان اليدان خدمتاني والذين معي » (٤) .

هذا صراع في درجة سادسة عشرة ، من ظفر به اجتنى حبا او قطع هما .

---

(١) لو ٢١ : ٢ .
(٢) انظر متى ٥ : ٣ .
(٣) ٢ تس ٣ : ١٠ .
(٤) اعمال ٢٠ : ٣٤ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

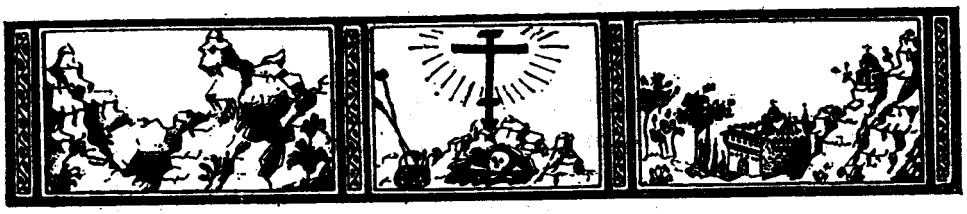

المقالة السابعة عشرة

في الزهد في المقتنيات

١ ــ الزهد في المقتنيات هو اقصاء للشواغل وتحرر من الهم ، سفر بلا عائق واغتراب عن الغم ، انه ايمان بوصايا الرب .

٢ ــ الراهب الزاهد في المقتنيات سيد العالم ، لقد اوكل امره الى الله وبايمانه هذا اقتنى الناس كلهم عبيدا له . لن يسأل انسانا من اجل حاجته ويقتبل ما يأتيه كأنه من يد الرب .

٣ ــ الزاهد في المقتنيات هو ابن لعدم التعلق بالاشياء ، يحتسب ما عنده كأنه غير موجود . عندما يعتزل العالم يعد كل شيء نفاية . وان اغتم لافتقاره لشيء ما فليس هو زاهدا في المقتنيات .

٤ ــ الزاهد في المقتنيات نقي الصلاة ، والمتعلق بها يصلي الى صور مادية .

٥ ــ العائشون في الطاعة غرباء عن حب المال ، لقد تخلوا حتى عن جسدهم فأي شيء يكون ملكا لهم بعد ؟ من شأن هؤلاء ان يخطأوا في امر واحد فقط وهو ان ينزعوا الى الانتقال من اماكنهم بأيسر مرام . رأيت مقتنيات جعلت رهبانا يصبرون على البقاء في مواضعهم ولكني طوبت الجوالين لأجل الرب اكثر منهم .

٦ ــ من ذاق العلويات يتهاون بسهولة بالسفليات ومن لم يذقها يهلل للمقتنيات .

٧ ــ من يفتقر بلا هدف يظلم مضاعفا : يمتنع عن الحاضرات ويحرم من الآتيات .

٨ ــ ايها الرهبان لا نكن اقل ايمانا من الطيور ، فانها لا تهتم ولا تجمع .

٩ ــ من يتخل عن الاموال من اجل الله فهو عظيم . اما من يتخل عن مشيئته فهو قديس ، الاول يأخذ مئة ضعف اموالا او مواهب ، اما الآخر فيرث حياة ابدية .

١٠ ــ كما لا يخلو البحر من الامواج لا يخلو محب المال من الغيظ والغم .

١١ ــ من يتهاون بالمادة ينجو من المنازعات والخصومات . اما محب المقتنيات فمن اجل ابرة يلاكم حتى الموت .

١٢ ــ الايمان الوطيد يقطع الهموم وبذكر الموت يكفر المرء بالجسد .

http://coptic-treasures.com

١٣ ــ لم يكن اثر لحب المال عند ايوب ولذا بقي في سلام لما فقد كل شيء .
١٤ ــ يدعي حب المال اصل كل الشرور وهو بالفعل كذلك لانه هو الذي يولد البغضاء والسرقات والحسد والفرقة والعداوات والاضطرابات والحقد وقساوة القلب والقتل .
١٥ ــ احرق البعض مادة كثيرة بنار يسيرة ونجا البعض من كل الاهواء المذكورة بفضل فضيلة واحدة . وهذه الفضيلة هي الزهد في المقتنيات ، تتاتى من خبرة حلاوة الله والاهتمام بالحساب الاخير .
١٦ ــ لا يغب عن بال القارىء النبيه ما قالته ام كل الشرور (١) عندما سردت سلالتها الخبيثة فقد ذكرت ان ولدها الثاني هو عدم الحس القاسي كالحجر ، ولكن افعى عابدة الاوثان الكثيرة الرؤوس (٢) منعتني من ان اتكلم عن عدم الحس في وقته ، ولست اعلم كيف صار ثالثا في سلسلة الرذائل الثمانية عند الآباء ذوي التمييز ، ولذا فبعد ان مررنا على حب المال بما فيه الكفاية نعتزم الآن التكلم عن عدم الحس كثالث في الرذائل الثمانية مع انه المولود الثاني ؛ ثم عن النوم والسهر ؛ وبعدهما نتناول بالبحث قليلا الخوف الجبان ، خوف الاطفال ، لأن هذه انما هي امراض المبتدئين .

هذه درجة سابعة عشرة من فاز بها فهو مسافر سفرا طليقا نحو السماء .

(١) الشراهة .
(٢) محبة المال .

http://coptic-treasures.com

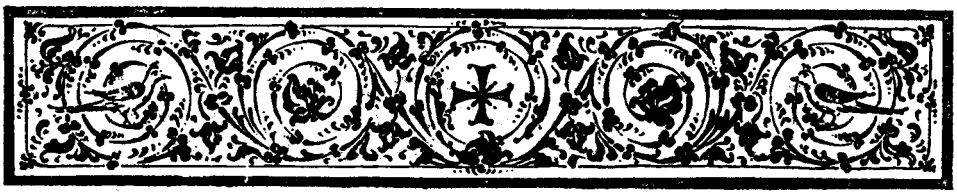

المقالة الثامنة عشرة

في عدم الحس وهو موت النفس والروح قبل موت الجسد

١ ــ عدم الحس في الجسد والروح هو حس قد خبا وانتهى الى عدم الحس الكامل بعد فترة طويلة من الاعتلال والتواني .

٢ ــ عدم الحس هو توان قد تمادى فتحول الى عادة ، وفكر قد استرخى وخمد نتيجة المعايب السالفة . فهو يعيق النشاط ويثبط العزيمة ، وهو انعدام للخشوع ومقدمة لليأس وعلة للنسيان ، يعود فيتولد منه ايضا ويبطل مخافة الله .

٣ ــ العادم الحس حكيم فاقد الحكمة ومعلم يدين نفسه بنفسه ، ومحدث يناقض ذاته ، اعمى يعلم النظر ، يتحدث عن شفاء الجرح ولا يكف عن حكه ، يشكو من مرض ولا ينقطع عن تناول ما يزيده تفاقما ، يسأل الله الخلاص منه ويشرع للحال في ممارسته ثم يغتاظ من فعله ولا يخجل الشقي من اقواله . يصيح : « لقد اذنبت » ويهرع الى فعل ذاك الذنب عينه . يبتهل ضده بلسانه ، وجسده يسعى وراءه . يتفلسف في ذكر الموت ويتصرف كأنه غير مائت . يتحسر لفراق الدنيا ويغط في سباته كأنه فيها خالد . يتكلم عن الامساك ويتهافت على الطعام . يقرأ عن الدينونة ويروح يبتسم . يقرأ عن العجب ويعجب بقراءته عينها . يطري السهر ولا يلبث ان يغوص في النوم . يمدح الصلاة ويهرب منها كالهارب من السوط . يطوب الطاعة وهو اول من يعصى . يمدح الزاهدين في المقتنيات ولا يخجل من اجل خرقة ان يحقد ويخاصم . يتمرمر ان غضب ويغضب لتمرمره فينغلب ثانية (١) وهو لا يشعر . اذا شبع ندم لكنه بعد حين يعيد الكرة من جديد . يطوب الصمت ويكثر الكلام في تطويبه . يرشد الى الوداعة ويغتاظ مرارا اثناء ارشاده عينه . اذا افاق من توانيه يتحسر ثم يهز رأسه ويعود فيستسلم لأهوائه . يذم الضحك ويحث على النوح وهو يبتسم . يلوم نفسه امام الآخرين على كونه معجبا بذاته وهو يصطاد بلومه هذا مجدا لذاته . ينظر الى وجه قريبه بشهوة ويوصي بحفظ العفة . يزكي الماكثين في الهدوء والصمت وهو مقيم في العالم لا يدرك انه يخزي ذاته . يعظم

---

(١) للغضب .

http://coptic-treasures.com

الرحومين ويعير المساكين . يعيب نفسه كل حين ولا يشاء او لا يستطيع ان يؤول به ذلك الى احساس .

٤ — ولقد شاهدت كثيرين على هذه الحال قد سمعوا اقوالا في الموت والديمونة الرهيبة وبكوا . واذ كانت الدموع بعد في اعينهم اسرعوا الى المائدة . فتعجبت منذهلا كيف اقتدرت الشراهة الماتية القذرة ان تتغلب حتى على النوح من جراء عدم الحس .

٥ — اني على حسب مقدرتي وفهمي اليسيرين كشفت مكائد هذا الهوى الصلب الصخري والشاثر الاحمق وابنت جروحه ، لأني لست اؤثر الكلام فيه كثيرا . فمن كان مختبرا ومقتدرا بالرب فلا يحجم عن وصف علاج لتلك الجروح . لأني لست اخجل من التسليم بعجزي عن ذلك لتحكم هذا الداء في . واني ما كنت لاستطيع ان ادرك بذاتي مخاتلاته وحيله لو لم اداهمه واضبطه قسرا ، وقد عذبته بسوط خوف الله وجلدته بالصلاة الدائمة فجعلته يعترف بما ذكرت . ولذلك قال لي هذا المستبد الأثيم : ان المستعبدين لي يبصرون الموتى فيضحكون ، ويؤدون الصلاة وهم قساة كالصخر وفي الظلمة بجملتهم ، ويعاينون المائدة المقدسة فلا يشعرون بأي ورع ، ويتناولون القدسات تناولهم للخبز العادي . انا اذا رايت متخشعين استهزأت بهم . وقد تعلمت من والدي ان ابيد كل الصالحات المكتسبة بالشجاعة والاتعاب . انا ابو الضحك . انا حاضن النوم . انا خليل النهم . اذا وبخت لا اخجل . انا رفيق الورع الكاذب .

٦ — فدهشت انا يوحنا لكلام هذا الهوى الهائج وسألته عن اسم والده فقال : انا ليس لي اب واحد ، فنسبي مختلط وغير ثابت ، فالشبع يغذيني والزمان ينميني والعادات الذميمة تقويني ، ومن استسلم لها فلن ينعتق مني . فاثبت انت في سهر كثير ذاكرا يوم الدين دون انقطاع عساتي اتراخى عنك قليلا . انظر الى علة ولادتي فيك وجاهد لتتغلب على امي ، لأنها ليست هي عينها في كل الاحوال . صل كثيرا في المقابر وصورها في قلبك تصويرا لا يمحى ، فانك ان لم تطبعها في قلبك بالصوم لن تقهرني الى الابد .

هذه درجة ثامنة عشرة من صعدها فقد نجا .

http://coptic-treasures.com

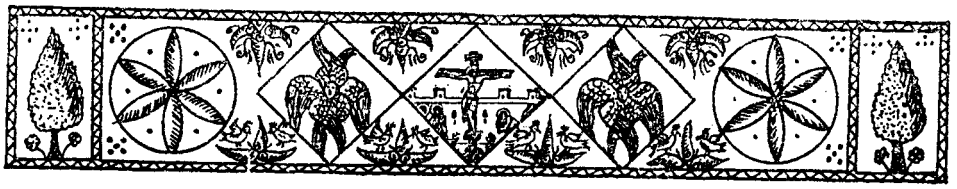

المقالة التاسعة عشرة

في النوم والصلاة والترتيل مع الاخوة

١ ــ النوم تقلص للطبيعة وصورة للموت وانقطاع الحواس عن العمل . النوم واحد ولكن اسبابه كثيرة على غرار الشهوة . فيتأتى اما من الطبيعة او من الاغذية او من الشياطين ، ولعله يحدث كنتيجة صوم مفرط يضعف الجسد فيطلب ان يتغذى بالنوم .

٢ ــ الاغراق في النوم كالافراط في الشرب يرجع الى العادة . ولذا علينا ان نقاومه لا سيما في بدء زهدنا ، لأن العادة المتأصلة يصعب شفاؤها .

٣ ــ اذا ترقبنا ذواتنا نجد انه عند قرع الناقوس لاجتماع الاخوة للصلاة اجتماعا منظورا يلتئم اعداؤنا التئاما غير منظور . فيقف البعض بنا فور استيقاظنا من النوم ويشيرون علينا بان نبقى مضطجعين ونؤخر مضينا الى الكنيسة حتى انتهاء مقدمات التسبيح ، والبعض الآخر يغرقنا في النوم اثناء الصلاة في الكنيسة ، وآخرون يحركون وجع بطننا بشدة على خلاف عادته ، وغير هؤلاء يدفعوننا الى التحدث مع الاخوة داخل الكنيسة ، وغيرهم ايضا يستدرجون عقلنا الى افكار سمجة ، وآخرون يحملوننا على الاستناد على الحائط كمن خارت قواهم ، واحيانا على التثاؤب المتواصل ، وقوم منهم يحضوننا على الضحك وقت الصلاة لاثارة سخط الله علينا ، وغيرهم يحثوننا على الاسراع في الصلاة بدافع التواني ، وآخرون يوحون الينا بالابطاء في الترتيل بدافع اللذة ، وربما جلسوا على فمنا احيانا وجعلوه مطبقا صعب الانفتاح . ولكن من يفتكر ويحس كل الاحساس انه واقف يصلي امام الله تراه عامودا ثابتا لا يميل ولا يخدعه احد من اولئك .

٤ ــ يستنير المطيع الحقيقي ويتهلل فجأة في احيان كثيرة اثناء قيامه بالصلاة لأن ذاك المجاهد قد سبق فتهيأ لها واضطرم غيرة بطاعته المخلصة .

٥ ــ يستطيع كل الناس الصلاة مع الجماعة ، لكنه ملائم لكثيرين ان يصلوا مع من يوافقونهم في الروح فقط ، اما الصلاة على انفراد فهي لقلة .

٦ ــ لا يمكننا ان نصلي برفقة كثيرين صلاة روحية نقية . فعليك حينذاك باشغال ذهنك اما بالتأمل في كلمات التراتيل او بالابتهال ابتهالا خاصا بانتظار انتهاء دور اخيك .

٧ ــ لا يليق بنا اثناء الصلاة ان نعمل عملا غير مهم ، بل ولا عملا مهما ، لأن الملاك الذي ظهر لأنطونيوس الكبير قد رتب هذا جليا .

٨ ــ كما تمتحن النار الذهب هكذا تمتحن الصلاة غيرة الراهب وحبه لله .

هذا صراع حميد في درجة تاسعة عشرة من التزمه واحكمه فقد ابعد الشياطين واقترب من الله .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة العشرون

في سهر الجسد وفي كيفية ممارسته للبلوغ الى سهر الروح

١ ــ ان بعض مرافقي الملوك لا يحملون في حضرتهم اي سلاح ، وبعضهم يحملون طبرا (١) وآخرين ترسا وغيرهم سيفا . والفرق بين الاولين والآخرين شاسع لا يقاس ، لأن الاولين هم انسباء الملك اما الباقون فاتباعه . هذا عند ملوك الارض .

٢ ــ فتعال ننظر كيف نقف نحن لدى ملكنا والهنا في الصلوات المسائية والليلية والنهارية . فان بعضا منا يرفعون ايديهم للصلاة ساهرين الليل كله وطارحين عنهم كل هيولي (٢) وكل اهتمام كمن لا اجساد لهم ، وآخرين يسبحون الله بتلاوة المزامير ، وغيرهم ينكبون على القراءة ، وآخرين يقاومون النوم بالعمل اليدوي نظرا لضعفهم ، وغيرهم يلهجون بذكر الموت ملتمسين به التوبة . فبين هؤلاء جميعا يسهر الاولون والاخيرون سهرا محبوبا عند الله ، والذين يتلون المزامير يسهرون سهرا يلائم الرهبان عامة . اما العاملون بأيديهم فيسلكون الطريق الاقل كمالا ، الا ان الله يقبل تقدمات الجميع ويحسبها على قدر عزمهم وطاقتهم .

٣ ــ العين الساهرة تطهر العقل ، وكثرة النوم تعمي النفس .

٤ ــ الراهب الساهر عدو للزنى ومحب النوم قرين له .

٥ ــ السهر قمع للشهوة وانعتاق من الاحلام ، عين دامعة وقلب رقيق ، سياج للافكار وهضم للأطعمة ، قهر للأهواء ، لجم للسان واقصاء للتخيلات .

٦ ــ الراهب الساهر صياد للأفكار يرصدها في سكون الليل ويضبطها بأيسر مرام .

٧ ــ متى قرع الناقوس يقول الراهب المحب الله « حسنا حسنا » ، والراهب المتواني « ويلي ويلي » !

٨ ــ اعداد المائدة يفضح النهمين والصلاة تكشف محبي الله . فالنهم اذا شاهد

---

(١) الطبر (بكسر الطه وفتح الباء) : « الفاس من السلاح » .

(٢) كل ما يتعلق بالمادة .

http://coptic-treasures.com

المائدة ابتهج ومحب الله عبس .

٩ — النوم الكثير ولي النسيان والسهر ينقي الذهن .

١٠ — يجمع المزارعون ارزاقهم في البيدر والمعصرة ، اما الرهبان فيجمعون الثروة والمعرفة في ملازمتهم للصلوات المسائيه والليلية وانكبابهم على اعمال العقل .

١١ — النوم الكثير شريك ظالم يختلس من الكسلان نصف حياته واكثر .

١٢ — الراهب الزائف يصحو في اللقاءات ، واذا حان وقت الصلاة ثقلت بالنعاس عيناه .

١٣ — الراهب المتواني بارع في هذر الكلام واذا حان وقت القراءة غفا ولم يستطع فتح عينيه . عند البوق الاخير يقوم الاموات وعند الكلام البطال يفيق النائمون .

١٤ — النوم الطاغي صديق غاش ، كثيرا ما ينصرف عنا عند شبعنا ويهاجمنا بشدة عند جوعنا وعطشنا .

١٥ — ويشير علينا وقت الصلاة بعمل يدوي اذ لا وسيلة اخرى له لاحباط صلاة الساهرين .

١٦ — يدخل اولا على المبتدئين فيقاتلهم ليتوانوا في مستهل زهدهم او ليهيء طريق الزنى اليهم .

١٧ — ما دمنا لم نتحرر من سلطان النوم فلنصل مع الجماعة لاننا في اكثر الحالات نخجل من الاخوة فلا ننعس . كما يعادي الكلب الارنب يعادي العجب النوم .

١٨ — يجلس البائع يحسب ربحه آخر النهار ، اما الراهب المجتهد فبعد تلاوة المزامير .

١٩ — تنبه بعد انتهاء الصلاة فتبصر اسراب الشياطين يحيطون بنا وكأنهم قد استفزوا بصلاتنا ، فيحاولون ان يرشقونا بخيالات سمجة . اجلس وارصد فتعاين الذين اعتادوا ان يخطفوا اولى ثمار النفس .

٢٠ — قد يعرض لمن يتلو مزاميره يوميا ان يردد آيات منها في نومه . وقد تهجسنا اياها الشياطين احيانا لتوقعنا في الكبرياء . اما الحالة الثالثة فما كنت لاذكرها لو لم يضطرني احدهم ، وهي ان النفس التي تلهج بكلام الرب دون هوادة ترتاح الى ترديده في نومها تلقائيا لأن هذا الترديد التلقائي في النوم انما هو من الرب ، نعمة عوض نعمة ، من اجل درء السقطات وطرد الخيالات .

هذه درجة عشرون من صعدها فقد اشرق نور في قلبه .

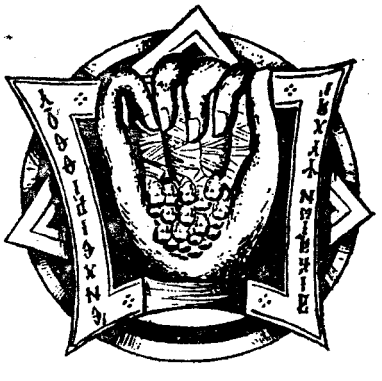

http://coptic-treasures.com

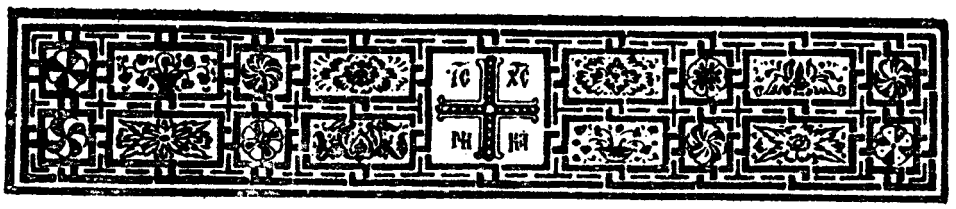

المقالة الحادية والعشرون

في الجبن الصبياني العديم الرجولة

١ ــ ان كنت تطلب الفضيلة مقيما في دير مشترك المعيشة او برفقة جماعة فليس من عادة الجبن ان يقاتلك كثيرا . اما من يقضي حياته في موضع اكثر عزلة فعليه ان يبذل كل جهد لئلا يستولي عليه الجبن الذي هو ثمرة العجب وابن عدم الايمان .

٢ ــ الجبن سجية طفل في نفس عجوز معجبة بذاتها . هو ارتداد عن الايمان يجعلنا نخشى وقوع شرور غير متوقعة اصلا .

٣ ــ الخوف هو الاغتمام مقدما لخطر وهمي ، او هو ارتعاد قلب قلق لمصائب مبهمة غير محددة . انه الارتياب بالامر اليقين .

٤ ــ النفس المتكبرة عبدة للجبن ، تتوكل على ذاتها باطلا فتهلع لصوت الخلائق وظلها .

٥ ــ ان الذين ينوحون على خطاياهم وهم غير مبالين (١) لا يجبنون . غير انهم كثيرا ما يصابون بذعر مفاجيء وسهو عقلي ، وهذا حق ، لأن الله يتخلى بعدل عن المتكبرين حتى نتأدب نحن الباقين فلا نتكبر .

٦ ــ ان كل الذين يجبنون معجبون بذواتهم ، ولكن ليس كل الذين لا يجبنون متواضعين . فاللصوص ونباشو القبور لا يجبنون .

٧ ــ لا تتوان عن المضي ليلا الى الاماكن التي تفزع منها فان تقاعست قليلا سيشيخ معك هذا الخوف الصبياني المضحك . وحين مضيك تدرع بالصلاة ، ومتى وصلت ابسط يديك واجلد محاربيك باسم يسوع فانه ليس من سلاح اقوى في السماء وعلى الارض . واذا برئت من هذا الداء فسبح مخلصك فانه يسترك الى الدهر ان ثابرت على شكره .

٨ ــ كما لا يمكنك ان تملأ معدتك بلقمة واحدة كذلك لا يمكنك ان تغلب الخوف دفعة واحدة . بمقدار كثرة نوحنا على خطايانا ينصرف الخوف عنا وبمقدار نقص نوحنا نلبث خائفين .

---

(١) اي الرهبان الذين ينتمون الى حياة التوبة اسما ، ولكنهم بالحقيقة لا يبالون بخلاصهم .

http://coptic-treasures.com

٩ — قال اليفاز في وصفه لمكر الشيطان : « اقشعر شعري ولحمي » (٢) . فقد تجبن النفس حينا والجسم حينا آخر وينقل احدهما الخوف الى الآخر ، حتى ارتعش جسمنا ولم ترتعب نفسنا فالشفاء من هذا الداء قريب . امـا اذا تقبلنـا بانسحاق قلب كافة الحوادث غير المتوقعة التي قد تحصل لنا فنكون قد انعتقنا من الخوف حقا .

١٠ — ليست ظلمة المكان ووحشته هي التي تقوي الشياطين علينا بل خلو النفس من الثمار . وربما كان هذا احيانا تدبيرا الهيا لتأديبنا .

١١ — من اضحى عبدا للرب يهاب الرب وحده ومن لا يهاب ربه بعد فكثيرا ما يخشى ظله .

١٢ — عند حضور روح شيطاني غير منظور يرتعد الجسد . اما عند حضور ملاك فتتهلل نفوس المتضعين . فاذا فطنا لحضوره من فعله فينا فلنهرع الى الصلاة لأن ملاكنا الحارس قد وافى ليصلي معنا .

هذه درجة حادية وعشرون من صعدها فقد تأيد قلبه واسرع نحو ربه (٣) .

(٢) ايوب ٤ : ١٥ .

(٣) وبحسب مخطوطة اخرى : من غلب الجبانة فقد كرس حياته ونفسه لله جليا .

http://coptic-treasures.com

المقالة الثانية والعشرون

في العجب الكثير الاشكال

١ ــ يؤثر البعض تمييز العجب عن الكبرياء فيفردون له فصلا خاصا ، وعلى هذا الاساس يقولون ان الاهواء الرئيسية (اصل بقية الشرور) هي ثمانية . ولكن ابانا غريغوريوس اللاهوتي ومعلمين آخرين معه قد سلموا الينا انها سبعة . واني اميل الى موافقتهم . اذ من هو الذي تتغلب عليه الكبرياء بعد انتصاره على العجب ؟ فانه لا فرق بينهما سوى الفرق الكائن بين الفتى والرجل ، وبين القمح والخبز ، لأن العجب هو البداية والكبرياء هي النهاية . ولما كان سياق البحث قد قادنا الى التكلم عن ذلك التكبر النجس ، الذي هو مبتدأ اهوائنا ومنتهاها فلنقل فيه قولا وجيزا لأن من يبتغي ان يتفلسف ويبحث فيه باسهاب يشبه من يبالغ باطلا في البحث عن وزن الريح .

٢ ــ العجب من حيث الشكل هو تغيير لطبعنا وتزييف لخلقنا وتحاش لكل مذمة تلحق بنا امام الناس . وهو من حيث الفعل تبديد لأتعابنا واضاعة لأعراقنا واختلاس لثروتنا ، وابن لعدم الايمان وسابق للكبرياء وغرق في الميناء ونملة في البيدر صغيرة لكنها تسطو على كل تعب وثمر . النملة تنتظر جمع القمح والعجب ينتظر جمع ثروة الفضائل ، تلك تفرح بأن تسرق وهذا بأن يبدد .

٣ ــ روح اليأس يفرح اذا راى الرذيلة متوافرة ، وروح العجب اذا راى الفضيلة متكاثرة . لأن باب الاول هو تكاثر الجراحات وباب الثاني توافر الاتعاب .

٤ ــ ارصد تجد العجب النجس زاهرا في الثياب والاطياب والاستقبال والتشييع والعطور وامثالها حتى القبر .

٥ ــ تنير الشمس البرايا كلها بسخاء ويندس العجب في كل شيء بارتياح . فان انا صمت اعجبت بصومي واذا حللت صومي عن فطنة لأخفيه عن الآخرين اعجبت بفطنتي . ان انا لبست ثيابا بهية انهزمت للعجب وان ابدلتها بثياب حقيرة استحوذ علي ايضا . ان تكلمت داخلني العجب وان سكت انقهرت له ايضا . فكيفما طرحت هذه الحسكة المثلثة الشعب انتصبت شوكتها قائمة .

٦ ــ المعجب بنفسه هو مؤمن عابد للأصنام ، اذ انه يجل الله في الظاهر وهو يريد ان يرضي الناس لا الله .

http://coptic-treasures.com

٧ ــ كل من يود اظهار ذاته هو معجب بنفسه . صوم المعجب بنفسه لا ثواب له وصلاته غير مجدية لانه يصوم ويصلي من اجل مديح الناس .

٨ ــ الناسك المعجب بنفسه يظلم ظلما مضاعفا : يضني جسده ولا ينال ثوابا .

٩ ــ من لا يهزأ بصائد المجد الفارغ الذي يقف للترتيل ويدفعه العجب الى ان يضحك حينا ويبكي حينا امام الجميع ؟

١٠ ــ كثيرا ما يخفي الله عن اعيننا المحامد التي اكتسبناها ، فيفتحها من يمدحنا وبالاحرى من يخدعنا بمديحه . وحالما تنفتح اعيننا تتلاشى ثروتنا .

١١ ــ الرجل الملاق خادم للأبالسة ، يقود الى الغرور ويبيد الخشوع ، يبدد الفضائل ويضل عن الطريق . « فان الذين يطوبونكم يضلونكم » يقول النبي (١) .

١٢ ــ ان ذوي الاخلاق السامية يتحملون الشتائم بنبل وفرح . ولكن القديسين والابرار يتقبلون المديح بغير اذى .

١٣ ــ رايت تائبين مدحوا فاحتدموا غيظا ، وكأنهم في السوق ، قد قايضوا هوى بآخر .

١٤ ــ «لا يعرف خفايا الانسان الا روح الانسان الذي فيه » (٢) . فليخز اذا وليخرس الذين يعمدون الى تقريظ المرء في وجهه .

١٥ ــ متى سمعت ان قريبك او صديقك قد عابك في غيابك او حضورك فأظهر له حبك وتقديرك .

١٦ ــ عظيم هو من يرد مديح الناس عن نفسه والاعظم منه من يرد مديح الشياطين .

١٧ ــ من يذم ذاته لا يبدي اتضاعا اذ كيف لا يحتمل الانسان ذاته ؟ بل من يعيره غيره ولا ينقص محبته له .

١٨ ــ لاحظت شيطان العجب يوحي الى اخ بعض الخواطر ويعلنها لآخر ، ثم يحث الثاني على ان يكشف للأول افكار قلبه ، ويطوبه على انه عرفها مسبقا .

١٩ ــ لا تصغ اليه ان اوحى اليك افكار اسقفية او رئاسة او تعليم ، فان الكلب لا يبعد عن قرمة القصاب الا بتعب جزيل .

٢٠ ــ متى ابصر روح العجب ان البعض قد صاروا الى شيء من الهدوء والسلامة ، اوعز اليهم في الحين بمغادرة البرية الى العالم ، قائلا : اذهبوا لانقاذ نفوس تهلك .

٢١ ــ كما يختلف الانسان عن تمثال الانسان (٣) ، هكذا يختلف عجب المقيمين في الاديار ذات العيشة المشتركة عن عجب العائشين في البراري .

٢٢ ــ ان العجب يحمل الرهبان الطائشين الى استباق حضور الضيوف من اهل العالم والخروج لاستقبالهم والجثو عند اقدامهم ، والتسربل بوشاح التذلل ، وهو كله تكبر ، فيضبط الخلق ويخفض الصوت ويجعل الراهب ينظر الى ايدي القادمين لينال منهم شيئا ويدعوهم اسياده ورؤساءه وواهبين له الحياة بعد الله . ويحث الجالسين الى المائدة على كبح نهمهم وانتهار من هم دونهم رتبة بدون شفقة . ويجعل المسترخين في التسبيح نشيطين والذين لا صوت لهم حسني الصوت والغافين ساهرين ، فيتملقون قائد الجوقة ويلتمسون منه التقدم على غيرهم ويدعونه ابا ومعلما الى حين انصراف الضيوف .

---

(١) اشعيا ٣ : ١٢ .

(٢) كو ٢ : ١١ .

(٣) وردت في الاصل : كما يختلف الاحياش عن تماثيلهم .

http://coptic-treasures.com

٢٣ — العجب يجعل المكرمين مستكبرين والمستهان بهم حاقدين .
٢٤ — كثيرا ما يكون العجب سببا للهوان بدلا من الاكرام اذ يجلب على اتباعه خجلا عظيما .
٢٥ — ان العجب يجعل الحادين الطبع وديعين امام الناس .
٢٦ — انه يطمع في ذوي المواهب الطبيعية وكثيرا ما يهلك بواسطتها اولئك الاشقياء .
٢٧ — شاهدت شيطان العجب يغم شيطان الغضب ويطرده . فقد اغتاظ اخ مرة واتفق ان حضر آنذاك قوم من اهل العالم فباع الشقي غيظه للعجب اذ لم يستطع أن يتعبد للاثنين معا .
٢٨ — من باع نفسه للعجب يعيش حياة مزدوجة : يقيم بظاهره بين الرهبان وبفكره وذهنه في العالم .
٢٩ — ان كنا نتوخى ارضاء الملك السماوي فلنتق الى مذاق المجد العلوي ، لان من ذاق ذلك المجد يستهين بكل مجد ارضي . واني لاعجب ممن يستهين بالمجد الثاني ما لم يكن قد ذاق المجد الاول .
٣٠ — كثيرا ما يسلبنا العجب ثم نعود فنقوى عليه ونسلبه . فقد رأيت قوما قد بدأوا نشاطا روحيا بدافع العجب ثم صححوا نيتهم ، فكان الانطلاق ذميما وصار الانتهاء محمودا .
٣١ — من يتباه بملكاته الطبيعية ، كحدة الذهن ، وسرعة التعلم ، وحسن النطق ، وطلاقة اللسان ، ولين العريكة ، وسائر المواهب المماثلة غير المكتسبة بالتعب ، فلن ينال يوما المواهب الفائقة الطبيعة ، لأن غير الامين في القليل يكون غير امين في الكثير (٤) ، ومعجبا بذاته .
٣٢ — كثيرون يضنون اجسادهم باطلا في سبيل اكتساب اللاهوى الاقصى والمواهب السامية كصنع العجائب ومعرفة المستقبل وقد خفي عنهم ان ام هذه النعم وامثالها ليست اتعاب الجسد بل التواضع .
٣٣ — من يسأل الله المواهب لقاء اتعابه يضع اساسا غير سليم . اما من يحسب ذاته غريبا بالاتعاب فسوف ينال على حين غرة ثروة لا ينتظرها .
٣٤ — لا تصدق العدو المبدد الذي يوحي اليك بأن تشهر فضائلك لمنفعة السامعين . « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو افاد العالم كله وخسر نفسه ؟ » (٥) فلا شيء يستطيع ان يبني الناظرين مثل الخلق المتضع الصادق والكلام غير المتكلف لأنهما بمثابة حافز للآخرين لكيلا يتعالوا يوما ، واية منفعة اجل من هذه ؟
٣٥ — ان احد اصحاب موهبة المعاينة الروحية روى لي ما عاين فقال : كنت جالسا مرة في مجمع فوافاني شيطانا العجب والكبرياء وقعدا بجانبي ، ثم لكز احدهما جانبي الايمن بأصبع العجب موعزا الي ان اتحدث عن رؤيا رأيتها او عمل عملته في البرية . ولكن حالما ردعته قائلا : « ليرتد الى الوراء ويخز الذين يريدون لي الشر » (٦) ، همس في اذني الجالس عن يساري قائلا : « نعما نعما !ما احسن ما فعلت ! لقد صرت عظيما اذ تغلبت على امي العادمة الحياء » . فأجبته حالا ببقية القول : « ليرجعوا في الحين خازين القائلون لي نعما نعما وما احسن ما فعلت » (٧) . ولما سألته كيف يكون العجب ام الكبرياء اجابني : ان المدائح ترفع النفس وتنفخها

---

(٤) لوقا ١٦ : ١٠ .
(٥) انظر متى ١٦ : ٢٢ ولوقا ٩ : ٢٥ .
(٦) مز ٣٩ : ١٥ .
(٧) مز ٦٩ : ٣ (انظر ٣٥ : ١٦) .

http://coptic-treasures.com

واذا تشامخت النفس اخذتها الكبرياء واصعدتهـا الى السمـاء ثم احدرتهـا الى الهاوية .

٣٦ ــ هناك مجد يأتي من الرب اذ قال : « سأمجد الذين يمجدونني » (٨) ومجد آخر ينجم عن دسائس الشياطين حسب قوله : « الويل لكم ان قال فيكم جميـع الناس حسنا » . (٩) وستميز المجد الاول بوضوح من كونك قد احتسبته مؤذيا لك وتجنبته بكل وسيله واخفيت سيرتك ايما ذهبت . اما المجد الثاني فستعرفه متى اتيت اي عمل ليراك الناس (١٠) .

٣٧ ــ ان روح العجب النجس يوحي الينا بالتظاهر بفضائل لا نملكها متذرعا بقول السيد : « فليسرق نوركم قدام الناس لكي يروا اعمالكم الصالحة ويمجدوا اباكم الذي في السموات » (١١) .

٣٨ ــ كثيرا ما يرد الرب المعجبين بأنفسهم الى الاتضاع بالهوان الذي يعرض لهم .

٣٩ ــ ابتداء الغلبة على العجب ضبط اللسان وحب الهوان . ووسطها ان يقطع المرء كل ما من شأنه ان ينتج له عجبا . وتمامها (ان كان للهاوية من نهاية) ان يعمد المرء الى افتعال ما يسبب له الهوان امام الآخرين بدون ان يتأثر به .

٤٠ ــ لا تستر خزيك لتوهمك انك اذا كشفت خطيئتك تسبب عثرة لغيرك . والا فلعل هذا العلاج لا يعود يفيدك فتضطر الى استعمال دواء اكثر حدة لشفائك. الا ان اعتماد العلاج المذكور لا يناسب كل الاحوال بل بعض الخطايا فقط .

٤١ ــ اذا طلبنا المجد لأنفسنا او اتانا من غيرنا دون ان نسعى اليه ، او قمنا بعمل يؤول الى العجب فلنذكر توبتنا ورهبة الوقوف في صلاتنا امام الله ، فنرد عنا اذ ذاك ولا شك العجب الوقح . هذا ان كنا اللهم نبالي بالصلاة الحقيقية ، والا فلنذكر خروجنا من الدنيا . وان لم نفعل فلنخش على الاقل الخزي الذي يعقب المجد اذ « من رفع نفسه اتضع » (١٢) ليس هناك فقط بل هنا ايضا لا محالة .

٤٢ ــ متى ابتدا مادحونا ، وبالاحرى مضلونا ، بامتداحنا فلنذكر سريعا كثـرة آثامنا ، فنجد انفسنا غير اهل لما يقال فينا او يعمل اكراما لنا .

٤٣ ــ لا ريب ان هناك معجبين بأنفسهم يستحقـون ان يستجيب الله بعض طلباتهم ، ولكن الرب يسبق ويتمم سؤالهم قبل ان يلتمسوه لئـلا ينالـوه بابتهالهم فيزدادوا غرورا .

٤٤ ــ من كانوا اوفر بساطة لا يصابون بهذا الداء كثيرا لأن العجب انما هـو انتفاء البساطة واعوجاج السيرة .

٤٥ ــ كثيرا ما تنمو الدودة وينبت لها جناحان ترتقي بهما في الجـو . وكذلك العجب اذا اكتمل انتج الكبرياء التي هي اصل الشرور كلها ومنتهاها .

٤٦ ــ من عدم هذا الداء فهو قريب من الخلاص ، ومن لم يتحرر منه فهو بعيد عن مجد القديسين .

هذه درجة ثانية وعشرون من تخطاها ولم يعلق بالعجب لن يسقط في الكبرياء الحمقى البغيضة لدى الله .

---

(٨) ١ ملوك ٢ : ٣٠ .
(٩) لوقا ٦ : ٢٦ .
(١٠) متى ٦ : ١ .
(١١) متى ٥ : ١٦ .
(١٢) لوقا ١٤ : ١١ .

http://coptic-treasures.com

المقالة الثالثة والعشرون

في الكبرياء الغبية وفي افكار التجديف التي لا يباح بها

١ — الكبرياء جحود لله وصنع الشياطين وازدراء للناس وام للادانة وابنة للمدائح وعلامة للعقم ، وتنح عن معونة الله ونذيرة بضلال العقل ونصيرة للسقطات وعلة للصرع ويتبوع للغضب وباب للرياء وعون للابالسة وصائنة للخطايا وولية لقساوة القلب وجهل للحنو ومحاسب مر وقاض ظالم وخصم لله واصل التجديف .

٢ — اول الكبرياء اكتمال العجب ، وانتصافها ازدراء للقريب وتبجح وقح بالاتعاب وثناء على الذات مقيم في القلب ، ومقت للمذمة . اما كمالها فتغرب عن معونة الله واعتداد بالذات وتشبه بالشياطين .

٣ — فلنسمع جميعا نحن الراغبين في تحاشي هذه الهوة : كثيرا ما تستمد الكبرياء غذاءها من الشكر ، لانها لا توحي الينا للوهلة الاولى ان نجحد الله بوقاحة. لقد رايت من يشكر الله بلسانه وهو متعظم بفكره ، ويشهد على ذلك جليا قول الفريسي الجاهل : « اشكرك يا الله ... » (١) .

٤ — حيثما حلت سقطة فهناك سبقت وسكنت الكبرياء ، لان حضور هذه يؤذن بحلول تلك .

٥ — سمعت انسانا جليلا يقول : افترض ان اهواء الهوان اثنا عشر ، فان ارتحنا لواحد منها ، واقصد به الغرور ، فسوف يملأ هذا مكان الاحد عشر هوى الباقية .

٦ — الراهب المتكبر يناقض مخاطبه بحدة ، اما المتضع فلا يعرف حتى ان يرفع طرفه نحو من يخاطبه .

٧ — كما لا تنحني السروة على الارض لتمشي ، كذلك لا يتنازل الراهب المتكبر ليكون مطيعا .

---

(١) لو ١٨ : ١١ .

http://coptic-treasures.com

٨ ــ الرجل المتكبر يطمع بالرئاسة فلا يهلك في الواقــع بل لا يريد ان يهلك الا عن طريقها .

٩ ــ ان الرب يقاوم المتكبرين (٢) ، فمن يستطيع ان يرحمهم بعد ؟ كل متشامخ القلب نجس عند الرب (٣) ، فمن يستطيع ان يطهر مثل هذا ؟

١٠ ــ السقوط يؤدب المتكبرين ، والشيطان بشوكته يلطمهم (٤) . اما ضلالهم ففي تخلي الله عنهم . وكثيرا ما شفى اناس اناسا في الحالين الاولين . اما الحالة الاخيرة فلا شفاء لها عند الناس .

١١ ــ من يرفض التوبيخ يظهر تكبره ، ومن يرضخ له يتحرر من هذا الاسر .

١٢ ــ ان كان ملاك (٥) قد سقط من السماء لكبريائه فقط دون اي هوى آخر ، فلننظر لعلنا نستطيع الصعود اليها بالتواضع فقط دون اية فضيلة اخرى .

١٣ ــ التكبر اتلاف لمكاسبنا ولأتعابنا . « صرخوا فلم يكن من منقذ » . لا شك انهم صرخوا بتكبر . « صرخوا الى الرب فما استجاب لهم » (٦) . ولا شك انهم لم يقطعوا علة الشرور التي التمسوا النجاة منها .

١٤ ــ عاتب شيخ احد الاخوة على تكبره معاتبة روحية . فأجاب الاخ : اغفر لي يا ابي فاني لست متكبرا . فقال له الشيخ الكلي الحكمة : يا ولدي ، اي برهان تعطينا على تكبرك اوضح من قولك « لست متكبرا » ؟

١٥ ــ ان امثال هذا الأخ تلائمهم جدا الطاعة وقسوة العيش والهوان ومطالعة سيرة الآباء واتعابهم الفائقة الطبيعة ، لعله يكون لهم بهذا رجاء ضئيل بالخلاص .

١٦ ــ من الخزي ان يفتخر المرء بمحاسن غيره ولكنه منتهى الجنون ان يتباهى بمواهب الله فيه . فافتخر فقط بما حققته قبل ولادتك (!) لأن ما حققته بعدها قــد وهبك الله اياه كما وهبك الولادة نفسها . وكل الفضائل التي احكمتها بغير عقلك (!) هي وحدها لك ، لأن العقل قد وهبك الله اياه . وكذلك كافة القتالات التي خضتها بدون جسدك (!) خضتها وحدها بهمتك انت ، لأن جسدك ليس لك بل هو خلقة الله .

١٧ ــ لا تطمئن الى ذاتك ومصيرك قبل صدور الحكم الاخير عليك ، واذكر ذاك الذي ربطت يداه ورجلاه بعد اتكائه في الخدر والقي في الظلمة الخارجية (٧) .

١٨ ــ لا تتشامخ وانت من الارض لأن كثيرين قد اهبطــوا من السمــاء وهم قديسون ولا هيوليون .

١٩ ــ متى احتل الشيطان موضعا في قلب المنقادين له تراءى لهم اذ ذاك في النوم او اليقظة بشكل ملاك او شهيد كاشفا الاسرار او واهبا قدرات شتى ينخدع بها الاشقياء فيجنوا جنونا كاملا .

٢٠ ــ لو صبرنا على الوف الميتات من اجل المسيح لا نكون قد وفينا ما علينا ، لأن دم الاله ليس كدم العبيد ، اعني من حيث الكرامة لا من حيث الكنه .

٢١ ــ لا نكفن عن فحص ذواتنا ومقارنتها بالآباء الذين سبقونا اذ هم انــوار عصرهم ، وحينئذ سنجد اننا لم نقتف بعد اثر السيرة النسكية الصحيحة ولا حفظنا عهدنا بنقاوة ، بل لا نزال نمارس سيرة اهل العالم .

---

(٢) يع ٤ : ٦ .
(٣) امثال ١٦ : ٥ .
(٤) ٢ كو ١٢ : ٧ .
(٥) ابليس .
(٦) مز ١٧ : ٤٢ .
(٧) متى ٢٢ : ١٣ .

http://coptic-treasures.com

٢٢ — الراهب الحقيقي هو عين لنفس لا تطمح وحس لجسد لا يهتز .
٢٣ — الراهب هو من يستدعي القتالات اليه كما تستدعى الوحوش ، ويستفزها في حال ابتعادها عنه .
٢٤ — الراهب ذهول متواصل وكآبة حياة .
٢٥ — الراهب هو من يتأصل في الفضائل كتأصل غيره في اللذات .
٢٦ — الراهب ضوء دائم في عين القلب .
٢٧ — الراهب لجة من التواضع اغرق فيها واسكت كل روح شرير .
٢٨ — ينشأ الغرور من نسيان الزلات لأن ذكرها يؤول الى الاتضاع .
٢٩ — الكبرياء فاقة قصوى لنفس فقيرة تتوهم الغنى ، وتكون في الظلام فتتخيل النور . ان هذه النجسة لا تمنعنا من التقدم وحسب بل تسقطنا ايضا من علو الفضائل .
٣٠ — المتكبر رمانة مهترئة في داخلها تلمع بهية في ظاهرها .
٣١ — الراهب المتكبر لا يحتاج الى شيطان لاسقاطه لانه قد صار شيطانا وعدوا لذاته .
٣٢ — الظلام غريب عن النور والمتكبر غريب عن الفضيلة .
٣٣ — في قلوب المتكبرين تنشأ اقوال التجديف ، وفي نفوس المتضعين تأملات سماوية .
٣٤ — كما يمقت السارق نور الشمس يزدري المتكبر الودعاء .
٣٥ — لست اعلم كيف تخفى حال معظم المتكبرين عن عيونهم فيظنون انهم قد تحرروا من الاهواء ولا يدركون فقرهم الا عند الرحيل .
٣٦ — من استولت عليه الكبرياء يتوقف خلاصه على الله لان الخلاص منها بالانسان باطل (٨) .
٣٧ — داهمت يوما تلك الحمقى التائهة تتحرك في قلبي محمولة على كتفي امها (العجب) فاقتنصتهما بعقال الطاعة وجلدتهما بسوط التذلل وسألتهما ان تقولا لي كيف دخلتا الي فقالتا : نحن لا منشأ لنا ولا ولادة لاننا منشأ للأهواء كلها . ان تطحن القلب الناجم عن الطاعة يحاربنا بشدة اذ لا نحتمل ان يتراس علينا احد ، ولهذا اقصينا من السماء حيث كانت لنا رئاسة . وباختصار ، نحن نلد كافة الرذائل المنافية للتواضع لأن كل ما يعززه ينافينا ، ونسود في كل مكان ما عدا السماء ، فالى اين تهرب من وجهنا ؟ وكثيرا ما نلازم الصبر على الهوان والطاعة والوداعة ونسيان الاساءات والخدمة . اولادنا زلات الروحانيين ، اعني الغضب والتعيير والفظاظة والغيظ والصياح والتجديف والمراءاة والمقت والحسد واتباع المشيئة الذاتية والمقاومة والتمرد . وهناك امر واحد لا نستطيع التغلب عليه ونقولها كارهين تحت وطأة جلداتك : ان ذممت ذاتك ذما خالصا متواصلا امام الرب حسبتنا كالعنكبوت . فالعجب كما ترى هو فرسي الذي ركبته انا الكبرياء . الا ان التواضع المقدس ومذمة الانسان لذاته يهزآن بالفرس وراكبه ، ويسبحان تسبيح الظفر كما يليق قائلين : « لنسبح الرب لأنه بالمجد قد تمجد ، فانه طرح الخيل وفرسانها في البحر » (٩) ، اي في قعر التواضع .

هذه درجة ثالثة وعشرون ، من ركبها فقد اشتدت شوكته ، ان كان ركوبها اللهم ممكنا .

---

(٨) مز ٥٩ : ١٨ .
(٩) خروج ١٥ : ١ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

ملحق للمقالة الثالثة والعشرين

في افكار التجديف التي لا يباح بها

٣٨ ــ لقد سمعنا فيما تقدم ان اورمة رديئة واما خبيثة تنتج غصنا اكثر خبثا منها اعني ان الكبرياء النجسة تولد التجديف الذي لا يباح به . ولذلك لا بد لنا من اظهاره على حقيقته خاصة وانه ليس هو بخصم عادي بل هو الد محاربينا جميعا . والاسوا من هذا انه ليس من السهل الافصاح عنه والاعتراف به او كشفه لطبيب روحاني . ولذا فكثيرا ما سبب قنوطا ويأسا لكثيرين فأفنى كل رجاء لهم على مثال فعل السوس في الخشب .

٣٩ ــ فهذا الكلي الدنس كثيرا ما يعمد الى التشنيع بالرب وبالقدسات اثناء اقامة القداس الالهي وعند اجراء الاسرار الرهيبة بالذات . ومن هنا بالضبط نعرف جليا ان نفسنا ليست هي الناطقة بتلك الكلمات الكفرية الشنيعة والممتنع تصورها بل هو الشيطان عدو الله الذي طرد من السماء لانه كان يرشق الرب هناك بتجاديفه على ما يبدو . اذ كيف انطق انا بتلك الكلمات القذرة القبيحة وفي الوقت نفسه اسجد للقربان الذي اتناول ؟ كيف استطيع ان اسفهه واباركه في آن واحد ؟

٤٠ ــ وكثيرا ما اقتاد هذا المضل والمفسد للنفوس اناسا كثيرين الى الجنون لانه ليس من فكر آخر يصعب البوح به كما يصعب البوح بهذا الفكر . ولذلك كثيرا ما شاخ مع كثيرين لانه ما من شيء يقوي الشياطين والافكار ضدنا مثل اخفائها في القلب وتغذيتها وعدم الاعتراف بها .

٤١ ــ لا يحسبن احد ذاته مصدرا لافكار التجديف لان الرب يعرف خفايا القلوب وهو يعلم ان تلك الكلمات والافكار انما هي صادرة عن اعدائنا .

٤٢ ــ كما ان السكر علة التعثر ، كذلك الكبرياء علة الافكار السمجة . والعاثر لا يسأل عن عثرته لكنه ولا شك يعاتب على سكره .

٤٣ ــ اذا ما قمنا نصلي قامت علينا تلك الافكار النجسة والممتنع النطق بها . لكنها تنصرف حالا اذا تابعنا صلاتنا لانها لا تحارب محاربيها .

٤٤ ــ ان ذاك الكافر لا يجدف فقط على الالوهة وكل الالهيات لكنه يتكلم في فكرنا باقبح الكلمات واشنعها لكيما يجعلنا نهمل صلاتنا او نيأس من انفسنا .

http://coptic-treasures.com

وقد قطع كثيرين عن الصلاة وفصل كثيرين عن الاسرار المقدسة .

٤٥ — ان هذا الطاغية الخبيث والظالم قد اذاب بالغم اجسام البعض واضنى بالصوم آخرين ولم يتح لهم اية راحة . وهو يفعل هذا ليس فقط بالعائشين في العالم بل في العزلة ايضا ويهجس لهم بانه لا خلاص لهم على الاطلاق ويصور لهم انهم احق بالشفقة واكثر شقاء من جميع الكافرين ومن الوثنيين انفسهم .

٤٦ — فمن يعذبه روح التجديف ويشاء ان يتخلص منه فليعلم يقينا انه ليس هو مصدر مثل هذه الافكار بل الشيطان النجس الذي قال مرة للرب « اعطيك هذه كلها ان خررت وسجدت لي » (١) . لذلك فلنزدره نحن ايضا ولا نعر اقواله اي اهتمام بالكلية بل لنقل له : اذهب عني يا شيطان (٢) فاني اسجد للرب الهي واياه وحده اعبد (٣) ، فليرتد عناؤك وكلامك على راسك وليسقط تجديفك على هامتك (٤) في هذا الدهر وفي الآتي آمين .

٤٧ — من يريد ان يقاتل شيطان التجديف على غير هذه الطريقة يشبه من يحاول ان يضبط برقا بيده . اذ كيف يستطيع ان يمسك او يناقض او يصارع روحا يقبل الى القلب اقبال الريح على حين غفلة ويلقي كلمة بأسرع من طرفة عين ويغيب في الحين ؟ لأن جميع التجارب الاخرى تواجه المرء وتصارعه وتثبت ازاءه فتعطيه مجالا لمصارعتها ، بخلاف روح التجديف هذا الذي حالما يظهر يتلاشى وحالما يتكلم ينصرف .

٤٨ — وقد الف هذا الشيطان في احيان كثيرة ان يتسلط على اذهان السذج والابرياء الذين يضطربون له ويقلقون اكثر من غيرهم . وفي صددهم نقول ان هذا كله يحدث لهم لا لاعتدادهم بذواتهم بل لحسد الشياطين لهم .

٤٩ — ان كففنا عن ادانة القريب والحكم عليه لن نخشى افكار التجديف لان ادانة القريب من شانها ان تبعث فينا تلك الافكار .

٥٠ — وكما ان المرء المغلق عليه في بيته يسمع اقوال المجتازين في الخارج دون ان يوافق عليها ، كذلك النفس التي تخلو الى ذاتها تسمع تجاديف الشيطان وهو يعبر بها فتضطرب لها .

٥١ — من يزدر هذا العدو ينعتق منه . ومن يتحايل ليحاربه بوسيلة اخرى يخضع له في النهاية لأن من يشاء ان يضبط الارواح بواسطة الكلمات يشبه من يشاء ان يحبس الرياح .

٥٢ — لقد عذب هذا الشيطان راهبا حريصا مدة عشرين سنة فأذوى جسده بالاصوام والاسهار ولما لم يشعر بأي نفع ذهب وكتب امره على ورقة وناولها الى رجل قديس بعد ان جثا طريحا على وجهه لا يجسر على النظر اليه . فلما قراها الشيخ تبسم وانهض الأخ وقال : « ضع يا ولدي يدك على عنقي » فامتثل الأخ ، فقال له الشيخ الكبير : « لتكن هذه الخطيئة علي يا اخي ، مهما فعلت بك مدى السنين الماضية ومهما ستفعل ، اما انت ، فقط ، فلا تعد تهتم لها » . وقد اكد لي ذلك الأخ انه لم يخرج من قلاية الشيخ الا وقد تلاشى عنه روح التجديف . لقد اخبرني بهذا الامر من اختبره بنفسه وكان يشكر الله .

من غلب هذا الهوى فقد اقصى عنه الكبرياء .

---

(١) متى ٤ : ٩ .
(٢) متى ١٦ : ٢٣ .
(٣) متى ٤ : ١٠ .
(٤) مز ٧ : ١٧ .

http://coptic-treasures.com

المقالة الرابعة والعشرون

في الوداعة والبساطة والبراءة المكتسبة غير الفطرية ، وفي الخبث

١ ــ ضياء الصبح يسبق الشمس وابتغاء الوداعة يتقدم التواضع . فلنستمع الى النور الحقيقي الذي رتب هذا الترتيب اذ قال : « تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب » (١) . وبالتالي يحسن ان نستنير بالضياء قبل استنارتنا بالشمس حتى نشخص من ثم الى الشمس شخوصا جليا . لأنه يتعذر معاينة شمس التواضع قبل اختبار ضياء الوداعة ، كما يعلمنا قول الرب الصادق وترتيبه .

٢ ــ الوداعة خلق لا يتغير ، حاله واحد في الاهانات والكرامات .

٣ ــ الوداعة هي ان يبتهل المرء من اجل قريبه الذي يثير فيه الاضطراب ابتهالا خالصا ، خاليا من الاحساس بالاضطراب .

٤ ــ الوداعة صخرة قائمة على شاطىء بحر الغضب ، تكسر كافة الامواج التي تلطمها ولا تتحرك او تضطرب البتة .

٥ ــ الوداعة دعامة للصبر وباب للمحبة بل ام لها ، واساس للتمييز ، اذ قيل : « ان الرب يعلم الودعاء طرقه » (٢) . هي نصرة لغفران الخطايا ودالة في الصلاة ومسكن للروح القدس ، لأنه قيل : « الى من انظر الا الى الوديع الهادىء ؟ » (٣) .

٦ ــ الوداعة منجدة للطاعة ومرشدة الى التآخي ولجام للهائجين وكبح للغضوبين ، وباعثة على السرور وتشبه بالمسيح وخاصة ملائكية وعقال للشياطين وترس في وجه الغظاظة .

٧ ــ في قلوب الودعاء يستقر الرب ويستريح ، اما النفس المضطربة فمقر لابليس .

---

(١) متى ١١ : ٢٩ .
(٢) مز ٢٤ : ٩ .
(٣) اشعيا ٦٦ : ٢ .

http://coptic-treasures.com

٨ ــ « الودعاء يرثون الارض » (٤) بل يستولون عليهـا ، اما الحانقـون فيستأصلون من ارضهم .

٩ ــ النفس الوديعة مقر للبساطة ، والعقل السخوط يبدع الخبث .

١٠ ــ النفس الرضية تسمع اقوال الحكمة « لان ربنا يهـدي الودعـاء في الحكم » (٥) وبالاحرى في التمييز .

١١ ــ النفس البسيطة قرينة للتواضع اما النفس الخبيثة فابنة للكبرياء .

١٢ ــ نفوس الودعاء تمتلىء معرفة اما العقل الغضوب فيساكن الظلام والجهل.

١٣ ــ تقابل الغضوب والملاق فلم يكن في حديثهما قول مستقيم . اذا كشفت قلب الاول وجدت جنونا ، واذا فحصت نفس الثاني رأيت خبثا .

١٤ ــ البساطة خلق عديم التلون والتصنع ، لا تحركه اية نية سيئة .

١٥ ــ الخبث علم بل حرفة شيطانية خالية من الصدق ، يتوهم صاحبه انه يخفيه عن اكثر الناس .

١٦ ــ المراءاة سجية محبوكة بكل انواع الحيل يظهر فيها الجسد بمظهر مناف للنفس .

١٧ ــ البراءة سجية نفس سليمة مطمئنة بعيدة عن اي تحايل .

١٨ ــ البساطة فكر عديم التكلف ، وخلق عديم الغش ، وكـلام عديم التصنع والتنميق .

١٩ ــ عديم الخبث هو من كانت نفسه نقية كما فطـرت ، ويعمل بوحي تلك النقاوة .

٢٠ ــ الخبث استقامة ممسوخة وفكر ملتو وعناية كاذبة وايمان باطلة واقوال ملتبسة وقلب متخف عميق ولجة غش وكذب متأصل وغرور قد تحـول الى طبـع ومقاومة للتواضع ومراءاة بالتوبة واقصاء للندامة ومعاداة للاعتراف واتباع للأهواء وباعث على السقطات ومعيق للنهوض منها واستهزاء بالتأنيب واحتشام متكلف مضحك وتورع خادع وسيرة شيطانية .

٢١ ــ الرجل الشرير رفيق ابليس وسميه ، ولذا علمنا الرب ان نسمي ابليس بالشرير قائلين : « نجنا من الشرير » (٦) .

٢٢ ــ لنهرب من هوة المراءاة ومن جب المخادعة اذ نسمع القائل : « ان عمال الاثم سوف يستأصلون » (٧) ، « ومثل الحشيش سريعا ييبسون ومثل البقل الاخضر عاجلا يذبلون » (٨) لأن مثل هؤلاء هم مأكل للشياطين .

٢٣ ــ كما ان الله يسمى محبة كذلك يدعى مستقيما ، ولذا قال سليمان الحكيم في نشيد الانشاد مخاطبا القلب النقي : « ان المستقيمين يحبونك » (٩) ، وقال داود ابوه : « الرب صالح ومستقيـم » (١٠) ، وحين يقـول انـه « يخلص المستقيمي القلوب » (١١) فهو يفهمنا ان الله يخلص من كان سميا له . ويقول ايضا ان الرب

---

(٤) متى ٥ : ٥ .
(٥) مز ٢٤ : ٩ .
(٦) متى ٦ : ١٣ .
(٧) مز ٣٦ : ٩ .
(٨) مز ٣٦ : ٢ .
(٩) نشيد الانشاد ١ : ٣ .
(١٠) مز ٢٤ : ٨ .
(١١) مز ٧ : ١٠ .

http://coptic-treasures.com

ينظر الى المستقيمين ووجهه يلقاهم (١٢) .

٢٤ ــ ان سجية الاطفال الاولى هي بساطة عادمة التصنع . وحين كان آدم يقتنيها لم يكن يبصر عري نفسه ولا قبح جسده .

٢٥ ــ ان البساطة الفطرية حسنه ومغبوطة ، ولكنها ليست كالبساطة المطعمة من الخبث بالاتعاب والاعراق (١٣) . لأن الاولى مصونة من التكلف والاهواء ولكن الثانية تؤول الى اتضاع اسمى . وثواب الاولى ليس بوفير اما ثواب الثانيه فلا حد لـــه .

٢٦ ــ علينا كلنا نحن الذين نبتغي استرضاء الرب واستمالته الينا ان نتقدم منه كالتلاميذ الى معلمهم ببساطة ودون تصنع وكلفة او خبث ومواربـــة . فانه بسيط عادم التركيب ويريد ان تكون النفوس المقبلة اليه بسيطة سليمـــة ، اذ لن تخلـــو البساطة يوما من التواضع .

٢٧ ــ الخبيث نبي كاذب يتخيل انه يدرك افكار رفيقه من اقواله وما في قلبه من سيمائه .

٢٨ ــ رايت مستقيمين تعلموا الخبث من قوم خبثاء فتعجبت كيف استطاعوا ان يفقدوا هكذا سريعا فطرتهم ومزيتهم . وبمقدار ما يسهـــل تحـــول المستقيمين الى الخبث يصعب انتقال الخبثاء الى الاستقامة . ولكن الغـــربة الصـــادقة والطاعة وصيانة الشفتين كثيرا ما قدرت بصورة عجيبة على شفاء سقماء ممتنع شفاؤهم .

٢٩ ــ ان كانت المعرفة تنفخ الكثيرين فلعل الغباوة والجهل يذللان الكثيريـــن بالمقدار نفسه ، على ان هناك احيانا اناسا يتفاخرون بجهلهم .

٣٠ ــ ولقد صار لنا بولس البسيط المثلث الغيطة (١٤) مثالا حيا ورسما للبساطة السعيدة . اذ لم يسمع يوما ولم ير قط ولن يرى نجاح عظيم كنجاحه في وقت قصير على غراره .

٣١ ــ الراهب الذي يتسم بالبساطة هو بمنزلة اصم ، عاقل ومطياع ، قد القى حمله على مرشده . الحيوان لا يعارض من يربطه والنفس البسيطة لا تعارض وليها بل تتبع سائقها الى حيث يشاء ولا تعرف ان تقاوم ولو سيقت الى الذبح .

٣٢ ــ يصعب ويعسر على الاغنياء دخول الملكوت (١٥) وعـــلى « الفهمـــاء » الاغبياء الاتيان الى البساطة .

٣٣ ــ كثيرا ما اصلحت سقطة اناسا خبثاء فآتتهم بغير اختيـــارهم بساطـــة وخلاصا .

٣٤ ــ صارع في سبيل نبذ حكمتك فان فعلت هذا تجد خلاصا وسلامة بيسوع المسيح ربنا آمين .

هذه درجة رابعة وعشرون من امتلكها فليتشجع لأنه اصبح متشبها بالمسيح معلمه ، ونجا .

---

(١٢) انظر مز ١٠ : ٨ .

(١٣) اي البساطة الناتجة عن الخبث بعد تطعيمه بالاتعاب والاعراق .

(١٤) هو من آباء البرية القديسين امتاز ببساطته الكلية .

(١٥) متى ١٩ : ٢٣ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة الخامسة والعشرون

في التواضع الجليل مبيد الاهواء بصورة خفية

١ ــ من يشاء ان يصف بكلام محسوس الشعور بمحبة الرب وفعلها فينا ، او الشعور بالتواضع المقدس ، والطهارة المغبوطة ، واشراق الله في النفس ، وخوفه تعالى ، ويقين القلب ، وذلك بصورة صحيحة ودقيقة ، واضحة وصادقة ، ويظن انه بوصفه هذا ينير الذين لم يذوقوا ذلك الشعور ولم يختبروه ، يشبه رجلا يريد ان يبين بأقواله وتشابيهه حلاوة العسل لمن لم يذوقوه البتة . اما هذا فعبثا يشرح حتى لا اقول انه يثرثر . واما ذاك فاما ان يبدو وكأنه عديم الخبرة بما يصف او ان يكون مغرورا .

٢ ــ وعلى هذا النحو فان الفضيلة التي نعتزم بحثها الآن قائمة امامنا ، بمثابة محك ، ككنز موضوع في آنية خزفية (هي اجسادنا) يعجز كل قول عن وصف خاصيته . وقد سطرت عليه كتابة سماوية لا تفهم ولا تدرك ، والذين يسعون لتفسيرها يواجهون ابحاثا كثيرة وتعبا لا حد له . اما تلك الكتابة فهي : « التواضع المقدس » .

٣ ــ ليدخل معنا الى هذا المحفل الروحي الكلي الحكمة جميع المنقادين بروح الله ، حاملين بأيديهم العقلية الواح المعرفة التي كتبها الله في قلوبهم ... فالتأمنا وبحثنا ودققنا معا في فحوى تلك الكتابة الشريفة فقال احدنا : « التواضع نسيان دائم لما احكمنا » . وقال غيره : « هو ان يحسب الانسان نفسه آخر الناس كلهم واكثرهم خطايا » . وقال آخر : « انه ادراك النفس لضعفها وعجزها » . وقال غيره : « هو ان يسبق الواحد قريبه في حالات الغيظ فيزيل حقده اولا » . وقال آخر : « هو معرفة الانسان لنعمة الله عليه واشفاقه » . وقال غيره ايضا : « هو احساس نفس منسحقة وجحود للمشيئة الذاتية » . ولما سمعت انا هذه الاوصاف كلها وتأملتها في ذاتي وتصفحتها باحتراس لم استطع ان اتبين مما قيل ماهية حس تلك الفضيلة المباركة . لذلك عمدت الى تحديدها ، انا آخر الجميع ، ككلب يجمع الفتات المتساقط عن مائدة اولئك الآباء المغبوطين ، فقلت : التواضع نعمة للنفس ليس لها اسم يعبر عنها الا عند الذين تعلموها بالخبرة . انها غنى لا يوصف ودلالة

http://coptic-treasures.com

الى الله لأنه قال : « تعلموا » ، لا من ملاك او انسان او كتاب ، بل « مني » ، اي من سكناي واشراقي وفعلي فيكم ، « فاني وديع ومتواضع القلب » والذهن والراي ، « فتجدوا راحة » من قتالاتكم وتخفيفا للافكار في نفوسكم (١) .

٤ ــ ان منظر هذه الكرمة المقدسة ونحن بعد في شتاء الاهواء هو غير منظرها ونحن في ربيع براعم الاثمار ، وغيره ايضا في صيف اكتمال الفضائل . ولكن هذه المراحل المختلفه تسهم كلها في جني سرور واحد وثمر واحد وبالتالي فهي تحتوي دلائلها الخاصة على ذلك السرور وكأنها علامات للثمار المقبلة ، لأننا متى بدأ عنقود هذه الكرمة المقدسه يزهر فينا نمقت للحال بتوجع كل مجد بشري وكل مديح ، ونقتلع الغضب والغيظ من ذواتنا . ثم كلما نمت في النفس ملكة الفضائل هذه وبلغت ملء قامتها الروحيه احتسبنا كافة الصالحات التي نعملها كلا شيء ، اذ تتبدد في نظرنا بصورة لا تدرك ، بل حسبناها كرذالة معتقدين ان وقر خطايانا يزداد ثقلا كل يوم ، بل ظننا ان وفرة المواهب الالهية المسبغة علينا تزيد في عذابنا لعدم استحقاقنا لها ، ولذا يبقى عقلنا منيعا ، صائنا ذاته بأمان في حجره الاتضاع ، يسمع فقط جلبات اللصوص حوله والاعيبهم دون ان يستطيع احدهم الاضرار به ، لأن الاتضاع ملاذ حصين .

٥ ــ لقد تجاسرنا فتفلسفنا قليلا ووصفنا بهذه الكلمات اليسيرة تفتح زهرة تلك الثمرة النضرة ابدا وبداية نموها . اما النمو الكامل لهذه الفضيلة الجليلة فليسأل عنه الرب اخصاء الرب . لأنه يتعذر التكلم في قدر هذه الثروة المقدسة وبالأكثر في خاصيتها . غير اننا سنحاول وصف مميزاتها بايراد خواطر فكرنا في هذا الصدد .

٦ ــ ان التوبة الدؤوب ، والنوح الخالص من كل شائبه ، والاتضاع الكلي الطهر ، هي عند المبتدئين مراحل تختلف وتتميز بعضها عن بعض كما يتميز الخمير والدقيق عن الخبز . ذلك ان نفسنا تطحن بالتوبة الصريحة ثم تعجن بالله على نحو ما ، اذا جاز القول ، بماء النوح الصادق ، واخيرا تخبز بنار الرب فتصير خبزا متماسكا هو التواضع المبارك الحالي من خمير الخبرياء . وهكذا يكمل حبل التواضع الجليل المثلث الجدائل ، بل قل قوس القزح السماوي ، متجمعا في قوة واحدة وفعل واحد ومكتسبا خواصه المميزة . والعلامة الدالة على توفر احدى جدائله الثلاث تجدها قد صارت في الوقت نفسه علامة لرفيقتيها . وما قلته الآن بأيجاز سأحاول ان اوضحه واثبته تفصيلا .

٧ ــ ان الخاصة الاولى لثالوثية التواضع الفريدة العجيبة هذه هي اقتبال الهوان بأوفر سرور بأيدي نفس منبسطة تتسلمه وتحتضنه وتحله محل علاج شاف لأسقامها ومحرق لخطاياها . والخاصة الثانية هي تلاشي كل غضب مع عدم التباهي بالعزوف عن الغضب . اما الخاصة الثالثة والفضلى فهي حذر صادق من الحسنات الذاتية ورغبة دائمة في التعلم .

٨ ــ « ان غاية الناموس والانبياء هي المسيح للبر لكل من يؤمن» (٢) ، اما غاية الاهواء النجسة ونهايتها فهي العجب والكبرياء لكل من لا يتيقظ ويحترس . ولكن التواضع ذاك الأيل العقلي (٣) يصرعها ويقي من يقترن به من تأثير كل سم قاتل . اذ كيف واين يمكن ان ينبت فيه سم المراءاة ؟ او الوقيعة ؟ واين تلبد فيه حية وتستتر ؟ بل الا ينتزعها بالحري من ارض القلب ويشهرها ويميتها ويبيدها ؟

---

(١) مت ١١ : ٢٩ .

(٢) رو ١٠ : ٤ .

(٣) انظر المزمور ٤١ : ١ .

http://coptic-treasures.com

٩ ــ لا يرى عند المقترن بالتواضع اي مظهر من مظاهر المقت او اي نوع من انواع المحاججه او اي اثر للعصيان ، ما لم يكن الامر متعلقا بالايمان .

١٠ ــ من اتحد بالتواضع اتحاد العروس بعروسه فهو على الدوام لطيف ، متوجع القلب ، شفوق ، هادىء ، بشوش ، سهل الانقياد ، لا يحزن احدا ، يقظ ، نشيط ، وبكلمة واحده خال من الاهواء ، « لأن الرب ذكرنا في مذلتنا وانقذنا من اعدائنا » (٤) ومن اهوائنا وادناسنا .

١١ ــ الراهب المتواضع لا يتحرى عن الخطايا . اما المتكبر فيفحص عن احكام الله .

١٢ ــ تراءى الشياطين يوما لأحد الاخوة الجزيلي المعرفة وطوبوه على فضيلته فأجابهم قائلا : ان كففتم عن مدحي بهذه الافكار التي تزرعونها في قلبي فسوف استنتج من انصرافكم عني اني عظيم . وان لم تكفوا فمن مدحكم لي سأسقط لنجاستي « لأن كل متشامخ القلب هو نجس عند الرب » (٥) ، فانصرفوا اذا لأتعظم متشامخا او فامدحوني وبسببكم اقتني مزيدا من التواضع » . فانذهلوا من هذا الجواب المحير وتلاشوا في الحين .

١٣ ــ لا يكونن في نفسك بئر لذلك الماء الحي يفيض احيانا ويجف احيانا اخرى من حر التكريم والتكبر بل فليطفح كل حين بنبع اللاهوى ونهر المسكنة .

١٤ ــ اعلم ايها الحبيب ان الاودية تتوشح بالحبوب وبالثمار الروحية (٦) . فالوادي هو النفس السحيقة بين الجبال (اعني بها الاتعاب والفضائل) ، وهي تبقى على الدوام وادعة لا صلف فيها ولا حركة : ما صمت ولا سهرت ولا نمت على الحضيض ولكنني « اتضعت فخلصني الرب سريعا » (٧) ، يقول النبي داود .

١٥ ــ التوبة تنهض والنوح يقرع باب السماء ولكن التواضع المقدس يفتح . اقول هذا واسجد لثالوث في وحدانية ولوحدانية في ثالوث .

١٦ ــ الشمس تنير كل ما هو منظور والتواضع يؤيد كل ما يفعله العقل . ففي غياب النور كل شيء معتم ، وفي غياب التواضع كل اعمالنا منتنة .

١٧ ــ ان مكانا واحدا في الخليقة كلها شاهد الشمس مرة فقط (٨) ، وفكرا واحدا (٩) كثيرا ما ولد تواضعا . وهناك يوم واحد (١٠) ابتهج به العالم كله ، وهذه فضيلة واحدة يتعذر على الشياطين تقليدها .

١٨ ــ التكبر يختلف عن عدم التكبر وكلاهما يختلفان عن الاتضاع . فالمتكبر يدين غيره طول النهار ، وغير المتكبر لا يدين احدا ، وقد يدين ذاته احيانا . اما المتضع فيدين ذاته كل حين وهو غير ملام .

١٩ ــ الاتضاع غير الاجتهاد في سبيل الاتضاع ، وغير الثناء على المتضعين : فالاول يتصف به الكاملون والثاني المطيعون (١١) الحقيقيون والثالث جميع المؤمنين .

---

(٤) مز ١٣٥ : ٢٣ ــ ٢٤ .
(٥) امثال ١٦ : ٥ .
(٦) مز ٦٤ : ١٣ .
(٧) مز ١١٤ : ٦ .
(٨) قعر البحر الاحمر .
(٩) كفكر الموت او الدينونة او آلام المسيح .
(١٠) يوم خروج نوح من الفلك او يوم الفصح او يوم الميلاد .
(١١) رهبان الشركة .

http://coptic-treasures.com

٢٠ ــ من اتضع في داخله لا تخونه شفتاه لأن الكنز لا يخرج مالا يحويه .
٢١ ــ ان الفرس الذي يجري وحده كثيرا ما يظن انه يعدو عدوا حثيثا ، اما اذا رافق خيلا تجاريه فحينئذ يفطن لبطئه وتوانيه .
٢٢ ــ ان كف الفكر عن التباهي بالمواهب الطبيعية فهذا دليل على تماثله الى العافية وما دمنا نشعر بتلك النتانة فلن نحس برائحة الطيب .
٢٣ ــ قال التواضع الجليل : ان عاشقي لا ينتهر ولا يدين ولا يتراس ولا يظهر حكمته حتى يقترن بي . لانه بعد اقترانه بي لن تسري عليه شريعة فيما بعد .
٢٤ ــ زرع الشياطين الاشرار مديحا في قلب احد الحريصين على هذا التواضع المغبوط والجادين في سبيله فاحتال هو بالهام الهي ليقهر خبث الابالسة بحيلة مقدسة . فقام وكتب على حائط قلايته اسماء الفضائل السامية كالمحبة الكاملة والتواضع الملائكي والصلاة النقية والعفة غير الفاسدة وامثالها . وكلما بدات افكاره تمتدحه كان يخاطبها بقوله : لنذهب الى مؤنبنا ، ثم يأتي ويقرأ ويصيح بذاته : يوم تقتني هذه الفضائل سوف تعرف انك ما زلت ايضا بعيدا عن الله .
٢٥ ــ نحن لا نقدر ان نصف قوة شمس التواضع وكنهها ولكننا ندرك ذاتيتها من خلال مفاعيلها وصفاتها .
٢٦ ــ تواضع القلب ملاذ الهي يحجب عن نظرنا ما حققناه . تواضع القلب عمق من التذلل لا قرار له ، بعيد عن منال السالبين . تواضع القلب « برج في وجه العدو حصين » (١٢) « لا يتفوق عليه عدوه ، وابن المعصية ، بل فكر المعصية ، لا يعود يضره ، وسيقطع اعداءه من امام وجهه ويهزم مبغضيه » (١٣) .
٢٧ ــ الى جانب الخواص التي ذكرنا لهذا التواضع الغني العظيم والتي هي ظاهرة كلها تدل الناظرين على ذلك الغنى ما عدا واحدة منها (١٤) ، هناك خواص اخرى تقوم في نفس مالك تلك الثروة ولا يراها الناظرون . وانك لسوف تعرف بلا انخداع ان الاتضاع المقدس موجود فيك اذا صرت في كثرة نور لا يوصف وفي عشق للصلاة لا ينطق به . وقبل البلوغ الى هذه الحال اذا بقي قلبك سليما لا يثلب هفوات الآخرين . ويسبق ذلك كله مقت لكل عجب .
٢٨ ــ من عرف ذاته وميز كل شعور من مشاعر نفسه فقد زرع في الارض . ومن لم يزرع على هذه الصورة فلن يزهر التواضع فيه .
٢٩ ــ من عرف ذاته حصل على روح مخافة الرب ، ومتى سلك بموجب هذا الروح وصل سريعا الى باب المحبة .
٣٠ ــ ان تواضع القلب هو باب الملكوت يولج اخصاءه الى داخله . واعتقد ان الرب انما يقصد الداخلين من هذا الباب حين يقول : « يدخل ويخرج » من الدنيا بلا خوف « ويجد مرعى » وخضرة في الفردوس . وجميع الذين جاؤوا الى الاسكيم الرهباني من غير هذا الباب هم سراق له ولصوص » (١٥) .
٣١ ــ وعلينا نحن الساعين الى التواضع الا نكف عن تصفح ذواتنا . وان كنا نشعر حقا ان قريبنا يتقدمنا في كل شيء فرحمة الله قريبة منا .
٣٢ ــ كما لا يمكن ان تصدر النار من الثلج لا يمكن بالاكثر ان يسكن التواضع

---

(١٢) مز ٦٠ : ٤ .
(١٣) مز ٨٨ : ٢٣ .
(١٤) ملامة النفس .
(١٥) يو ١٠ : ٨ ــ ٩ .

http://coptic-treasures.com

في غير مستقيمي الراي . فان التواضع يبلغه المؤمنون الاتقياء ، شرط ان يتطهروا من خطاياهم اولا .

٣٣ — ان معظمنا يدعون ذواتهم خطاة ، ولعلهم يعتقدون ذلك فعلا ، الا ان الهوان هو الذي يمتحن القلب .

٣٤ — ان المسارع الى ميناء التواضع الهادىء لن يكف يوما من ان يفكر ويتخيل ويبتكر طرائق مختلفة ، اقوالا وافكارا وتصورات ، ابحاثا واستقصاءات ، مساعي واختراعات ، نذورا وصلوات ، محتالا بكل سبيل لكيما بوسائل اوفر تذللا واكثر هوانا وبمعونة الله ينقذ سفينة نفسه من التعظم الدائم الهيجان . ذلك لأن من ينجو من التعظم يصبح كالعشار حسن الاستغفار في بقية خطاياه كلها .

٣٥ — يتخذ البعض من سيئاتهم السابقة ، حتى بعد غفرانها ، مدعاة للاتضاع يردعون به تعظمهم الباطل الى آخر حياتهم . وآخرون يذكرون آلام المسيح فيحسبون ذواتهم انهم مدينون له ابدا . وغيرهم يذللون انفسهم بسبب النقائص الحاصلة منهم كل يوم . وآخرون قد طرحوا عجرفتهم من جراء التجارب والهفوات العارضة لهم . وغيرهم امتلكوا ام المواهب (اي التواضع) لافقارهم من المواهب . وهناك ايضا اناس (ان وجدوا في ايامنا هذه) يضعون انفسهم بمقدار ازدياد مواهب الله فيهم ، محتسبين انهم غير مستحقين لثروة كهذه ومعتقدين انهم يضيفون كل يوم على دينهم دينا . هذا هو التواضع . هذه هي الغبطة . هذه هي الجائزة التامة .

٣٦ — متى رايت راهبا او سمعت عنه انه قد اقتنى اللاهوى الاسمى في سنين قليلة فتحقق انه لم يسلك طريقا آخر غير هذا الطريق المغبوط والاقصر من كل الطرق الاخرى .

٣٧ — المحبة والتواضع زوج جليل طاهر لان الاولى ترفع اما الثاني فيحفظ الذين ارتفعوا ولا يدعهم يوما يسقطون .

٣٨ — الانسحاق يختلف عن معرفة الذات وكلاهما يختلف عن التواضع .

٣٩ — فالانسحاق وليد السقوط ، لأن من يسقط يتهشم فيقف في صلاته مكروبا بغير دالة ولكن بوقاحة ممدوحة متكئا على عكاز الرجاء وطاردا به كلب اليأس .

٤٠ — اما معرفة الذات فهي ادراك المرء لمقدرته وذكر لا يهدأ لأصغر زلاته .

٤١ — واما التواضع فعلم روحي يعلمه المسيح للذين يؤهلون له وهو مدخر عقليا في خزانة نفوسهم ويتعذر تعبيره باقوال حسية .

٤٢ — من يقل انه يحس تماما بشذا هذا الطيب ويتحرك قلبه للمدائح ولو يسيرا او يفهم قوة اقوالها ، فلا يضلن فانه مخدوع .

٤٣ — سمعت انسانا يقول من كل قلبه : « لا لنا يا رب لا لنا بل لاسمك اعط المجد » (١٦) ، لأنه عرف ان طبيعتنا لا تلبث عادة غير متضررة من المديح ، « لأن من قبلك هي مدحتي في جماعة عظيمة » (١٧) اي في الدهر الآتي لاني قبل ذلك الدهر لا استطيع ان احتمل المديح بدون خطر .

٤٤ — ان كان منتهى الكبرياء وحدها (بتشديد الدال) وحالها الاخير ان نتظاهر حبا بالمجد بفضائل ليست فينا ، فالدلالة على منتهى عمق التواضع هي ان نظهر بحضرة الناس عللا ليست فينا وذلك تذللا منا . هكذا صنع الذي تناول بيديه الخبز والجبن (١٨) ..

---

(١٦) مز ١٣ : ٩ .

(١٧) مز ٢١ : ٢٦ .

(١٨) الانبا سمعان الذي ركب الحائط ياكل خبزا وجبنا هربا من مدح السلطان القادم لمشاهدته .

http://coptic-treasures.com

وهكذا صنع الذي نزع ثوبه متعريا ، وهو عفيف طاهر ، وطاف المدينة ، خاليا من الهوى (١٩) . فامثال هؤلاء لن يهتموا بالا يعثروا احدا اذ قد نالوا بصلاتهم قوة غير منظورة ليستميلوا اليهم كل احد . اما من اهتم بعدم اعثار الناس فقد دل على افتقاره الى تلك القوة . لاننا نستطيع ان نعمل كل شيء حيث يكون الله متأهبا لاستجابتنا .

٤٥ ــ آثر بالحري ان تغم الناس ولا تحزن الله لانه يفرح اذا رآنا ساعين وراء الهوان حتى نطرح غرورنا الباطل ونسحقه ونبيده .

٤٦ ــ ان الغربة القصوى توفر لنا مثل هذه الجهادات لأن العظماء وحدهم يحتملون الاستهزاء حقا من اقربائهم ومعارفهم . لا نعجبن لهذا القول فانه لم يقدر احد يوما على صعود سلم دفعة واحدة .

٤٧ ــ بهذا يعرف الجميع اننا تلاميذ الله (٢٠) : اذا كتبت اسماؤنا في سماء التواضع (٢١) لا اذا خضعت لنا الشياطين .

٤٨ ــ ان عدم الاثمار يرفع عادة اغصان شجر الليمون الى فوق ، اما اذا حنيت الى اسفل فتخصب سريعا بالثمار . فمن يتأمل في ذلك يفقه معناه .

٤٩ ــ ان التواضع المقدس يقتني من عند الله قوة يرتقي بها المرء فيه ، فواحد يصعد الى الدرجة الثلاثين وآخر الى الستين وآخر الى المئة (٢٢) . فالدرجة الاخيرة يرتقي اليها المتحررون من الاهواء ، والدرجة الوسطى الشجعان ، اما الدرجة الاولى فيستطيع بلوغها الجميع .

٥٠ ــ من عرف ذاته لا يقدم ابدا على الاهتمام بما يفوق طاقته ، لكنه يستمر ثابتا في درب التواضع المبارك .

٥١ ــ كما يروع الباز العصافير كذلك تخيف المناقضة المتواضعين .

٥٢ ــ لقد وجد الكثيرون الخلاص خلوا من نبوءات واستنارات وآيات وعجائب ، ولكن لن يدخل احد خدر العرس بدون الاتضاع . لأن هذا حفظ اولئك وبدونه صارت تلك سببا لهلاك العادمي الفطنة .

٥٣ ــ لقد دبر الرب لأجل اتضاعنا ان لا يستطيع احد معاينة جراحاته وعيوبه كما يراها قريبه ، فنضطر بالتالي الى ان ننسب شفاءنا لا الى ذواتنا بل الى القريب والى الله .

٥٤ ــ يكره المتواضع مشيئته كرهه للضلال ، وفي توسلاته الى الرب باليمان لا ريب فيه يتفقه فيعرف كيف يطيع وماذا ينبغي ان يعمل . وهو لا ينظر الى سيرة مرشديه بل يلقي همه على الله الذي علم بلعام قديما ما ينبغي ان يعمل بواسطة حمار . ومع انه ينقاد بروح الله في كل ما يرتئي ويعمل وينطق فهو لا يثق بنفسه . لأن ثقة المتواضع بنفسه منخز له وعبء عليه كعبء محاورة الآخرين على المتكبر اذا فرضت عليه .

٥٥ ــ يبدو لي ان الملاك وحده غير معرض للخطايا اذ اني اسمع الملاك الارضي نفسه يقول : « لست اشعر بشيء في ذاتي لكني لست بذلك مبررا ، فالذي يحكم في هو الرب » (٢٣) . ولذلك ينبغي ان نحكم على انفسنا ونذمها دائما كي نطرح عنا

---

(١٩) الآبا سرابيون .
(٢٠) يو ١٣ : ٣٥ .
(٢١) لو ١٠ : ٢٠ .
(٢٢) انظر متى ١٣ : ٩ .
(٢٣) اكو ٤ : ٤ .

http://coptic-treasures.com

بتذللنا الاختياري خطايانا الكرهية . والا فسنحاسب عليها محاسبة شاقة وكاملة عند خروجنا من الدنيا .

٥٦ — من يسأل الله نعما دون استحقاقه فسينال لا محالة مننا فوق قدره . ويشهد بهذا العشار الذي التمس صفحا فاقتبل تبريرا (٢٤) ، واللص الذي طلب ذكره في الملكوت فورث الفردوس كله (٢٥) .

٥٧ — كما لا يمكن ان ترى نار ، يسيرة كانت ام كبيرة ، في طبيعة اية خليقة ، كذلك لا يوجد في التواضع الصادق اي عنصر مادي (٢٦) . وما دمنا نسقط باختيارنا فهذا التواضع ليس فينا . لأن عدم السقوط هو علامة حضوره فينا .

٥٨ — ان السيد اذ علم ان فضيلة النفس تتأثر بالحشمة الخارجية اتزر بازار (٢٧) وارانا بذلك منهج طريق الاتضاع ، لأن النفس تتشبه بالهيئة الظاهرة وتتشكل باعمال السيرة وتماثلها . فالرئاسة كانت سببا لتشامخ احد الملائكة ، مع انه لم يقتبلها لهذه الغاية .

٥٩ — ان حال الجالس على عرش غير حال الجالس على مزبلة . ولعله لاجل هذا جلس ذلك الصديق الكبير على المزبلة خارج المدينة . لأنه امتلك حينذاك تواضعا كاملا وقال من كل قلبه : حقرت ذاتي وذبت واحتسبت ذاتي ترابا ورمادا (٢٨) .

٦٠ — اني ارى انه لم يخطأ احد من الناس كما خطىء منسى الذي نجس هيكل الله وانتهك بالاصنام حرمته كلها . ولو صام العالم كله من اجله لما أمكنه ان يكفر عن خطيئته . الا ان التواضع استطاع ان يشفيه من اسقام لا شفاء لها . هذا وقد قال داود لله « لو آثرت الذبيحة لكنت الآن اعطي لكنك لا تسر بالمحرقات » ، اي بالاجسام المضنية بالاصوام ، « فالذبيحة لله روح منسحق . . . » وما يتلو ذلك معلوم عند الجميع (٢٩) .

٦١ — هتف التواضع المغبوط الى الله يوما بفم داود النبي بعد ارتكابه الفسق والقتل : « قد خطئت الى الرب » . فسمع سريعا هذا القول : « الرب قد انتزع عنك خطيئتك » (٣٠) .

٦٢ — لقد علم آباؤنا الدائمو الذكر ان اتعاب الجسد طريق للتواضع واساس له . اما انا فأوصي بالطاعة واستقامة القلب اللتين تعارضان بطبيعتهما الغرور .

٦٣ — ان كانت الكبرياء قد جعلت من بعض الملائكة ابالسة فلا جرم ان التواضع يستطيع ان يجعل من الشياطين ملائكة . ولذا فليئق الذين سقطوا ويتشجعوا .

٦٤ — لنبادر ونكافح بكل قوتنا لكي نصعد الى راس هذه الفضيلة . والا فالى كتفيها على الاقل . وان كنا نعجز عن ذلك فلا اقل من ان لا نهوي من احضانها . لاني اعجب ان كان الساقط من احضان التواضع يرزق اية موهبة ابدية .

٦٥ — اوتار الاتضاع وسبله هي التالية ، ولكنها ليست بالضرورة علامات ثابتة لاقتنائه : الفاقة ، الغربة الخفية ، الحكمة المستورة ، بساطة الكلام ، التماس الصدقة ، كتمان حسن النسب ، اقصاء الدالة ، طرح الثرثرة .

---

(٢٤) لو ١٨ : ١٠ .
(٢٥) لو ٢٣ : ٤٣ .
(٢٦) اي هوى .
(٢٧) يو ١٣ : ٤ .
(٢٨) ايوب ١٣ : ٦ .
(٢٩) مز ٥٠ : ١٧ .
(٣٠) ٢ ملوك ١٢ : ١٣ .

http://coptic-treasures.com

٦٦ ــ لا شيء البتة يذلل النفس كالفاقة والاستجداء ، وتظهر حينذاك حكمتنا ومحبتنا لله اذ نكون قادرين على الترفع ونفر منه بغير التفات .

٦٧ ــ ان تهيأت لتقاتل هوى من اهوائك فاقتن التواضع حليفا لك ، فانه سوف يطأ الافعى والثعبان ويدوس الاسد والتنين (٣١) ، اعني الخطيئة واليأس والشيطان والجسد .

٦٨ ــ تواضع القلب « شاروق » سماوي قادر على رفع النفس من قعر الخطايا الى السماء .

٦٩ ــ عاين احدهم جمال الاتضاع في قلبه فاشتمله الذهول ، ثم سأله عن اسم والده فابتسم له بابتهاج وسكون وقال : لماذا تطلب معرفة اسم والدي ؟ فانه ليس له اسم ، ولن ابوح لك به حتى تقتني الله فيك ، له المجد الى الابد آمين .

هذه درجة خامسة وعشرون من سعدها فقد اباد اهواءه .
اللجة ام الينبوع ، اما التواضع فينبوع التمييز .

(٣١) مز ٩٠ : ١٣ .

http://coptic-treasures.com

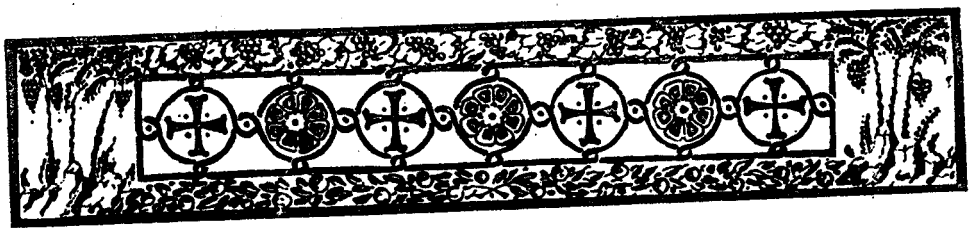

المقالة السادسة والعشرون

في تمييز الافكار والاهواء والفضائل

١ ــ التمييز عند المبتدئين هو معرفة ذواتهم معرفة حقيقية . اما عند المتوسطين فهو حس داخلي لا يخطىء ، يميز السجية الصالحة حقا عن السجية الطبيعية وعن السجية الرديئة . واما عند الكاملين فهو معرفة ناتجة عن استنارة الهية تستطيع ان تضيء بمصباحها ما هو مظلم عند الآخرين . ولعل تحديد التمييز بصورة عامة هو انه معرفة ثابتة لمشيئة الله في كل ظرف وفي كل آن ومكان ، تتوفر فقط لانقياء القلوب والاجساد والافواه .

٢ ــ من غلب بتقواه الاهواء الثلاثة (١) قهر معها الخمسة الاخرى (٢) ، ومن توانى في القضاء عليها لن يقهر غيرها اصلا .

٣ ــ التمييز ضمير طاهر وحس نقي .

٤ ــ اذا سمع احد او ابصر في السيرة الرهبانية امرا يفوق الطبيعة فلا يسقطن عن جهل في عدم التصديق اذ حيث يسكن الله الفائق الطبيعة تصير الاعمال فائقة الطبيعة .

٥ ــ ان القتالات الشيطانية تنشأ كلها فينا لاحد الاسباب العامة الثلاثة التالية : التواني والغرور وحسد الشياطين . فالمتواني يرثى له ، والمغرور شقي ، اما المحسود من الشياطين فمغبوط .

٦ ــ ليكن لنا ضميرنا بعد الله رقيبا ومرشدا ومقياسا في كل شيء ، حتى اذا عرفنا مهب الريح رفعنا قلوعنا مقابلها .

٧ ــ يعترضنا الشياطين في كل اعمالنا المرضية لله بحفرهم لنا ثلاث حفرات : الحفرة الاولى انهم يحاولون منع قيام العمل الصالح اصلا ، والثانية انهم بعد فشلهم في مسعاهم الاول يجتهدون لحملنا على عدم اتيان ذلك العمل بقصد ارضاء الله . وان اخفقوا في هذه المحاولة ايضا يقفون بنا خلسة يطوبوننا على اننا نسلك في كل شيء بحسب رضى الله . اما المحاولة الاولى فنقاومها بالتيقظ وذكر الموت ،

---

(١) الشراهة وحب المال والعجب .

(٢) الزنى والغضب واليأس والضجر والكبرياء .

http://coptic-treasures.com

واما الثانية فبالطاعة والانسحاق واما الثالثة فبلوم ذواتنا على الدوام . وسوف يعترضنا هذا الجهاد الى ان تدخل نار الله مقدسنا (٣) ، حيث لا نعود بحاجة حينذاك الى ان نتحسب للخطايا لان « الهنا نار آكلة » (٤) تبيد فينا كل شهوة وانفعال وتخيل وقساوة وظلمة ، سواء كانت داخلية او خارجية ، حسية او عقلية .

٨ ــ اما الشياطين فيصنعون بنا عكس ما ذكر . لانهم حين يستولون على النفس ويطفئون ضوء العقل لا يعود فينا نحن الاشقياء لا تيقظ ولا تمييز ولا معرفة ولا خجل بل جفاء وعدم احساس وعدم تمييز وعمى .

٩ ــ ان الذين استفاقوا من الزنى او رجعوا عن الدالة او تحولوا عن الوقاحة الى الاحساس يعرفون جيدا ما قلناه : كيف انهم بعد افاقة عقولهم وزوال تحجرهم بل زوال عماهم يخجلون من ذواتهم ، اذا جاز القول ، بسبب ما كانوا يقولون ويعملون في سلوكهم السابق .

١٠ ــ ان لم يمل نهار النفس الى المساء والظلمة لا يسرق السارقون ولا يذبحون ويهلكون .

١١ ــ فالنفس تسرق وتفقد فضيلتها حين نأتي اعمالا رديئة كانها غير رديئة ونحن مسبيون ولا نشعر . اما ذبح النفس فهو موت العقل لاستغراقه في اعمال منحرفة . واما هلاكها فهو يأسها من ذاتها بعد انحرافها .

١٢ ــ لا يتذرعن احد بعدم قدرته على اتمام وصايا الانجيل ، فان البعض قد عملوا اكثر منها . ويثبت لك هذا من احب قريبه اكثر من ذاته وبذل نفسه عنه ، مع ان الرب لم يأمره بذلك (٥) .

١٣ ــ ليتشجع الذين استعبدتهم اهواؤهم ، لانهم وان كانوا قد سقطوا في كافة الحفرات واقتنصوا بسائر الفخاخ وانسقموا بكل الامراض فسيصيرون بعد تعافيهم مصابيح منيرة ومرشدين واطباء للجميع يكشفون لهم اعراض كل مرض وينقذون بفضل تجربتهم من اشرف على السقوط .

١٤ ــ ان وجد رهبان لا تزال تتسلط عليهم عاداتهم السيئة لكنهم يستطيعون تعليم غيرهم ، ولو بمجرد الكلام ، فليعلموا ، (ولكن دون ان يتراسوا) ، لعلهم يخجلون يوما من اقوالهم فيشرعون بتطبيق ما يقولون ، او يتم فيهم ما شاهدته في اناس متمرغين في الحمأة : فهؤلاء وهم عالقون بالطين كانوا يخبرون المجتازين بهم كيف غطسوا فيه ويرشدونهم لكي لا يسقطوا بدورهم في ذلك الطريق . ولأجل انقاذهم غيرهم من تلك الحمأة فقد افتداهم الرب القادر على كل شيء . اما العالقون بأهوائهم يتهافتون على الملذات باختيارهم فليكن تعليمهم عن طريق الصمت ، لانه قيل : « الاعمال التي ابتدأ يسوع يعملها ثم يعلم بها » (٦) .

١٥ ــ نعم ايها الرهبان المساكين نحن نجتاز لجة خطرة حقا وحافلة بالارياح والصخور والدوامات والضحول (٧) ، والوحوش والقراصنة والاعاصير والامواج الكثيرة . اما الصخر فنقصد به الغضب الوحشي الذي يثور فينا على حين غرة . واما الدوامة فهي عدم الرجاء يستولي على العقل ويحاول ان يهبطه الى قعر اليأس . واما الضحل فهو جهلنا الذي يجعلنا نتمسك بالامور الرديئة كانها

---

(٣) مزمور ٧٢ : ١٧ .

(٤) عب ١٢ : ٢٩ .

(٥) الانبا ليو الذي افتدى ثلاثة اسرى بشخصه (انظر المرج الروحي ليوحنا موسخوص الفصل ١١١) .

(٦) اع ١ : ١ .

(٧) الضحل هو الماء اليسير او القريب القعر .

http://coptic-treasures.com

صالحة . واما الوحش فهو الجسد الكثيف الفظ . واما القراصنة فهم دوافع الغرور الخطرة جدا التي تسلب حمولتنا وتعب فضائلنا كلها . واما الموج فهو البطن الملآن المتخم الذي يدفعنا بنهمه الى الوحش . واما الاعصار فهو الكبرياء التي تطرحنا الى الاعماق بعد ان تصعدنا الى السماء .

١٦ — يعرف المتعلمون كافة اية دروس تناسب مستوى المبتدئين وايها تناسب المتوسطين وايها تناسب المعلمين (بكسر اللام) . فلنحترس ونحتط للأمر لئلا تطول دراستنا ونبقى رغم ذلك في طور احكام (بكسر الهمزة) حروف الهجاء . فانه لعمري خزي كبير ان يرى شيخ ذاهبا الى المدرسة .

١٧ — وهذه هي حروف الابجدية الصالحة للجميع : طاعة ، صوم ، مسح ، رماد ، دموع ، اقرار بالهفوات ، صمت ، اتضاع ، سهر ، شجاعة ، برد ، تعب ، شقاء ، هوان ، انسحاق ، عدم حقد ، محبة الاخوة ، لطف ، ايمان بسيط خال من الابحاث الفضولية ، اقصاء الاهتمامات الدنيوية ، الابتعاد عن الوالدين دون مقتهما ، زهد ، بساطة وبراءة ، تذلل اختياري .

١٨ — اما الذين تقدموا في الفضيلة فهذا هو نظامهم ودليلهم : عدم الغرور ، عدم الغضب ، حسن الرجاء ، هدوء ، تمييز ، ذكر دائم للدينونة ، حنو ، محبة للغرباء ، تأديب الآخرين باعتدال ، صلاة خالية من الاهواء ، عدم محبة المال .

١٩ — واما الكاملون في تقوى الروح والجسد فهذا هو نهجهم وحالهم وشرعهم : قلب حصين لا يسبى ، محبة كاملة ، ينبوع من التواضع ، عقل متغرب عن العالم ، سكنى المسيح فيهم ، ضوء صلاة لا ينطفىء ، كثرة الاشراق الالهي فيهم ، اشتياق الى الموت ، مقت للحياة الدنيا ، هرب من الجسد ، تشفع في العالم ، اقتسار لله ، الاشتراك مع الملائكة في عبادته تعالى ، لجة من المعرفة ، ادخار للأسرار ، احتفاظ بما لا يباح به ، خلاص للناس ، سيادة على كل من الشياطين والاهواء والجسد ، تسلط على الطبيعة ، اقصاء للخطيئة ، بيت للاهوى ، تشبه بالسيد بمعونة السيد .

٢٠ — حينما يمرض جسمنا نحتاج الى تيقظ بليغ لأن الشياطين متى ابصرونا مطروحين ارضا ، عاجزين عن ممارسة اعمال النسك لمقاومتهم ، يعمدون الى محاربتنا بقسوة . فان روح الغضب ، مع روح التجديف احيانا ، يحوم حول المرضى المقيمين في العالم ، اما الخارجون عن العالم فان كانت حوائج المعيشة متوفرة لهم يهاجمهم شيطانا الشراهة والزنى ، وان كانوا محرومين من كل تعزية يلازمهم روح الضجر الطاغي وروح عدم الشكر .

٢١ — شاهدت ذئب الزنى يزيد في اوجاع مريض ويسبب له حركات جسدية واحتلامات . وكان ذلك الجسم الهائج في وسط آلام شديدة مشهدا عجيبا . ورايت مرضى طريحي الفراش تعزيهم قوة الهية ، نظرا لتوبتهم وتوجع قلبهم ، فيزيلون آلامهم بهذه التعزية حتى انهم لم يعودوا يريدون الشفاء من امراضهم . وعدت فرايت مرضى آخرين قد تحرروا من احد الاهواء النفسانية بسبب مرضهم الذي كان بمثابة عقاب لهم ، فمجدت من طهر حماة بحماة .

٢٢ — ان القلب ، كونه روحيا في الاصل ، ينطوي على حس روحي . فلا نتوقفن عن طلب استعادة هذا الحس (الذي هو فينا وليس فينا في آن واحد) . فانه اذا عاد وظهر فينا فسيبطل تلقائيا ولا شك تأثير الحواس الخارجية علينا . هذا ما علمه احد الحكماء فقال : « وستجد فيك حسا الهيا » (٨) .

---

(٨) القديس نيلوس السينائي (على الاغلب) .

http://coptic-treasures.com

٢٣ ــ ليكن سلوكنا في السيرة الرهبانية (حتى لا اقول في السيرة الملائكية) من كل القلب ، سواء في الاعمال او الاقوال او الافكار او الحركات ، والا فليست هي سيرة رهبانية .

٢٤ ــ عناية الله شيء ونصرته شيء آخر ، وكذلك حمايته ورحمته وتعزيته . فعنايته تظهر في الخليقة كلها . اما نصرته ففي المؤمنين فقط ، وحمايته في المؤمنين حقيقة ، ورحمته في خدامه ، وتعزيته في محبيه .

٢٥ ــ قد يكون دواء ما لأحد الناس سما لغيره ، وقد يكون هذا الدواء نفسه سما لهذا الانسان عينه اذا تناوله في غير وقته .

٢٦ ــ رايت طبيبا جاهلا قد حقر مريضا متهشما فأوقعه في اليأس . وشاهدت طبيبا بارعا طبب بالهوان قلبا متشامخا متكبرا ففرغ منه كل نتن .

٢٧ ــ رايت مريضا يعمد حينا الى شرب دواء الطاعة فينشط ويعمل بلا هوادة في سبيل تنقية ذاته ، ولكنه يلبث حينا آخر ساكنا بلا حراك من جراء مرض عين نفسه . فمن له اذنان للسمع فليسمع .

٢٨ ــ يوجد اناس (ولست اعرف السبب لأني لم اعتد ان اتطاول وافحص مواهب الله) يجنحون بطبعهم ، اذا جاز القول ، الى الاعتدال او الطهارة او الهدوء ، او الاحتشام او الوداعة او التخشع . ويوجد آخرون تعاندهم طبيعتهم عينها في اقتناء هذه المناقب فيغصبون ذواتهم على ممارستها قدر طاقتهم ، ورغم انهم يفشلون احيانا فاني اجلهم اكثر من الاولين لأنهم يقتسرون طبيعتهم .

٢٩ ــ لا تتباه ايها الانسان بثروة حزتها بلا تعب ، فان معطي المواهب سبق فعلم ضعفك الجم وعجزك وانحلالك فشاء ان يخلصك مجانا بعطاياه .

٣٠ ــ ان تربيتنا ، مع ما يرسخ فينا من عادات ومعلومات في سن الطفولة ، تقاومنا متى كبرنا وتعيق سعينا في الفضيلة والسيرة الرهبانية .

٣١ ــ الملائكة نور للرهبان ، وسيرة الرهبان نور للناس اجمعين . فليجتهد الرهبان اذا ليصيروا في كل شيء مثالا صالحا ولا يكونوا عثرة لأحد (٩) في كل ما يعملون ويقولون لأنه « اذا كان النور ظلاما فالظلام كم يكون » (١٠) .

٣٢ ــ ان سمعتم مشورتي (يا من تريدون ان تسلكوا هذا الطريق) فيجدر بنا ان لا ننهمك فنقسم (بتشديد السين) نفسنا في محاربة الالوف والربوات من الاعداء (١١) لأننا لا نقدر ان ندرك انواع مكرهم كلها ولا ان نتبينها .

٣٣ ــ بمعونة الثالوث القدوس لنتدرع بالثلاثة لمحاربة الثلاثة (١٢) ، والا فسنسبب لأنفسنا اتعابا جزيلة .

٣٤ ــ ان كان يسكن فينا حقا « من حول البحر الى يبس » (١٣) فان اسرائيلنا ، واقصد به عقلنا المعاين لله ، سوف يعبر البحر هادئا سالما لا محالة ويشاهد المصريين غارقين في مياه دموعه . وان لم يسكن ذاك فينا فمن يستطيع ان يحتمل دوي امواج (١٤) ذلك البحر ، اعني به الجسد ؟

---

(٩) ٢ كو ٦ : ٣ .

(١٠) متى ٦ : ٢٣ .

(١١) مز ٩٠ : ٧

(١٢) اي لنحارب الشهوة بالامساك ، وحب المال بحب الله ، والغرور بالتواضع . وفي تفسير آخر : الفقر والعفة والطاعة مقابل حب المال واللذة والتسلط .

(١٣) مز ٦٥ : ٦ .

(١٤) مز ٦٤ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

٣٥ ــ ان قام الله فينا من جراء جهادنا فسيبدد اعداءه . وان اقتربنا اليه بالمعاينة العقلية فسيهرب مبغضوه من امام وجهه ووجهنا (١٥) .

٣٦ ــ لنجتهد ان نتعلم الالهيات بالاتعاب والاعراق لا بالكلام فاننا في وقت خروجنا من الدنيا لا نحتاج الى تقديم اقوال بل افعال .

٣٧ ــ ان الذين يسمعون بوجود كنز في مكان ما يفتشون عنه ، ، واذا عثروا عليه بتعب يحرصون على الاحتفاظ به . اما الذين يغتنون بلا تعب فيبددون ثروتهم سريعا .

٣٨ ــ ان التغلب على النقائص المتأصلة في الانسان امر صعب جدا . اما الذين لا يكفون عن اضافة نقائص جديدة على نقائصهم السابقة فاما ان يكونوا قد يئسوا من انفسهم او انهم لم ينتفعوا من زهدهم شيئا . لكنني اعلم ان الله قادر على كل ما يشاء وانه لا يتعذر عليه شيء .

٣٩ ــ سألني بعضهم سؤالا صعبا يفوقني وامثالي ولا يحتويه اي كتاب من الكتب الواصلة الي فقالوا : ما هي اولاد كل من الرذائل الثمانية ؟ او اي الرذائل الثلاث الكبرى تلد الخمس الباقية ؟ ولما احترت وتذرعت بجهلي تعلمت من اولئك الابرار ما يلي : الشراهة هي ام الزنى . والعجب ابو الضجر . والحزن ، مع الغضب ايضا ، ابن الثلاث الباقية (١٦) . والعجب ابو الكبرياء ايضا .

٤٠ ــ ثم توسلت الى اولئك الدائمي الذكر ان اعرف ايضا اولاد الثمانية كلها وولد كل منها ، فعلمني بلطف كثير اولئك المتحررون من اهوائهم قائلين : ليس للأهواء الغاشمة نظام او ترتيب بل كلها تشويش وبلبلة . وثبت المغبوطون قولهم هذا ببراهين مقنعة مقدمين امثالا كثيرة اوردنا بعضها في هذه المقالة كمقياس للأمثال الاخرى .

٤١ ــ وهكذا فان الضحك في غير وقته يتولد احيانا من الزنى واحيانا من العجب اذا ما كرم احد ذاته متظاهرا بالوقار بلا خجل .

٤٢ ــ والنوم الكثير ينجم حينا عن التنعم وحينا آخر عن الصوم اذا تفاخر الصائم بصومه ، وحينا عن الضجر وحينا آخر عن الطبيعة .

٤٣ ــ وتأتي الثرثرة من العجب احيانا ومن الشراهة احيانا اخرى .

٤٤ ــ والضجر ثمر التنعم حينا وثمر عدم خوف الله حينا آخر .

٤٥ ــ والتجديف ابن الكبرياء بالدرجة الاولى ولكنه كثيرا ما يتولد من الادانة الخفية للقريب او من حسد الشياطين الغاشم .

٤٦ ــ وقساوة القلب تنتج عن الشبع وعن عدم الحس وعن التعلق بالاشياء احيانا كثيرة ، والتعلق بالاشياء ربما يتولد من الزنى او من العجب او من اسباب اخرى كثيرة .

٤٧ ــ وينجم الخبث عن الغرور والغضب .

٤٨ ــ وتأتي المراءاة من الرضى عن الذات واتباع المشيئة الذاتية .

٤٩ ــ اما الفضائل المناقضة لهذه الرذائل فتتولد من اضداد اسبابها ، ولئلا يطول الشرح (لأن الوقت قد يضيق بي ان شئت ان افحص عنها واحدة فواحدة) فان التواضع يبيد اصلا الاهواء المذكورة كلها ، والذين اقتنوه قد قهروها بأسرها .

٥٠ ــ والدا الشرور كلها اللذة والخبث ، فمن حواهما لن يعاين الرب . هذا ولن ينفعنا طرح اللذة شيئا ما لم نطرح الخبث ايضا معها .

---

(١٥) مز ٦٧ : ١ .

(١٦) الكبرياء وحب المال والكسل .

http://coptic-treasures.com

٥١ ــ ليكن لنا خوف الرؤساء والوحوش مثالا لخوف الرب . وليصر عشق الاجساد مثالا للشوق الى الله . اذ ليس ما يمنع من استخدام الرذائل كأمثلة للفضائل .

٥٢ ــ لقد فسد الجيل الحاضر فسادا مريعا وامتلأ كله غرورا ورياء . فقد لا يزال يمارس اتعابا جسدانية نظير آبائنا القدماء لكنه غير اهل لمواهبهم . مع ان طبيعتنا في نظري لم تحتج يوما الى المواهب كاحتياجها اليها الآن . وقد اصابنا هذا بعدل لأن الله لا يتجلى في الاتعاب بل في البساطة والاتضاع . واذا كانت قوة الله فينا « بالضعف تكمل » (١٧) ، فلن يرذل المجاهد المتضع (١٨) .

٥٣ ــ اذا رأينا احد مجاهدي المسيح مصابا بداء جسداني فلا نحاولن بخبث معرفة سبب مرضه بل فلنسلم بالامر الواقع ونجتهد بالحري ان نشفيه بمحبة بريئة وبساطة كعضو منا وكجندي رفيق لنا قد جرح في الحرب .

٥٤ ــ رب مرض كان للتنقية من الزلات ورب آخر لتذليل الذهن .

٥٥ ــ ان سيدنا وربنا الكلي الصلاح اذا راى البعض متكاسلين في النسك الى الغاية يذلل اجسادهم بأحد الامراض بمنزلة نسك بلا تعب ، ولربما طهر به نفوسهم احيانا من الافكار الشريرة والاهواء .

٥٦ ــ اننا نقبل كل ما يعرض لنا من امور منظورة وغير منظورة اما قبولا حسنا او بهوى او بين بين . فاني رأيت ثلاثة اخوة يعاقبون فالاول اغتاظ والثاني لم يغتم واما الثالث فاجتنى من عقابه فرحا كثيرا .

٥٧ ــ ابصرت فلاحين يلقون في الارض نوعا واحدا من البذار الا ان كلا منهم قصد من زرعه غرضا خاصا به . فالواحد كان غرضه ان يوفي ديونه ، والآخر ان يجمع ثروة ، وغيره ان يكرم سيده بالهدايا ، وآخر ان يتصيد بحسن عمله مديحا من المجتازين في طريق العمر ، وغيره ان يحزن عدوه الذي يحسده ، وغير هؤلاء ان لا يلومه الناس على بطالته . وهذه اسماء البذار الذي القاه الفلاحون في الارض : صوم وسهر وصدقة وخدمة وما الى ذلك . فليفحص كل اخ قصده بعناية في ضوء مشيئة الرب .

٥٨ ــ كما اننا نستقي من البئر ضفدعا مع الماء احيانا ، على غير انتباه منا ، كذلك كثيرا ما نصنع الرذائل مضفورة مع الفضائل بصورة غير منظورة . فان الشراهة مثلا تختلط مع ضيافة الغرباء ، والزنى مع المحبة ، والدهاء مع التمييز ، والخبث مع الفطنة . ثم يندس مع الوداعة كل من الغش والمماطلة والبلادة والمحاججة واتباع المشيئة الذاتية وعدم الطاعة ، ومع الصمت ادعاء العلم ، ومع الفرح الغرور ، ومع الرجاء التواني ومع المحبة الادانة ، ومع الهدوء الضجر والكسل ، ومع الطهارة الحدة ، ومع التواضع الدالة . ويرافق العجب هذه الفضائل كلها بمنزلة مرهم بل سم مشترك يطليها .

٥٩ ــ لا نغتمن اذا التمسنا من الرب نعمة ما طيلة فترة من الزمن ولم نستجب فان الرب يود لو يصير جميع الناس عادمي الاهواء في لحظة واحدة لكنه يعرف بسابق معرفته ان هذا ليس لصالحهم .

٦٠ ــ كل الذين يسألون الله امورا ولا ينالونه لا يستجابون لأحد الاسباب التالية : اما لكون سؤالهم سابقا لأوانه ، او لانهم يطلبون بعجب ما هم غير اهل له ،

---

(١٧) ٢ كو ١٢ : ٩ .

(١٨) مز ٥٠ : ١٧ .

http://coptic-treasures.com

او لكونهم عتيدين ان يتكبروا اذا بلغوا مرادهم ، او لكونهم بعد امتلاك سؤالهم سيجنحون الى التواني .

٦١ ــ لا يشك احد في ان الشياطين والاهواء تنصرف عن النفس اما انصرافا وقتيا او انصرافا دائما ، ولكن قليلين يعرفون اسباب انصرافها عنا .

٦٢ ــ فقد تنصرف الاهواء كلها عن بعض المؤمنين ، بل عن غير المؤمنين ايضا ، ما عدا هوى واحدا تخلفه وراءها بمنزلة امير يحل مكانها كلها ، ما دام يستطيع بشره ان يهبط المرء حتى من السماء .

٦٣ ــ وقد تستأصل مادة الاهواء الخسيسة وتفنى بنار الهية آكلة فتطهر النفس وتنصرف عنها الاهواء كلها ، الا اذا عدنا فاجتذبناها الينا بالتواني والسيرة العالمية .

٦٤ ــ وقد ينصرف الشياطين عنا من تلقاء انفسهم لكي يوحوا الينا بالاطمئنان ثم يسبون نفسنا الشقية على حين غرة .

٦٥ ــ واعرف لهؤلاء الوحوش انصرافا غير هذا ، فانهم ينصرفون عن النفس بعد ان تعتاد الشر اعتيادا تاما وتصبح متمكنة في الاهواء كل التمكن ، فتصير مضلة ومحاربة لذاتها . والاطفال مثال لذلك اذ انهم بعد اعتيادهم الرضاعة زمانا طويلا يمصون اصابعهم بدلا من الثدي .

٦٦ ــ واعرف ايضا حالة خاصة من اللاهوى في النفس ناتجة عن بساطة كثيرة في الشر وبراءة ممدوحة لأن معونة الله مخلص مستقيمي القلوب (١٩) متوفرة لهؤلاء بحق وهي تنجيهم من الشرور دون ان يحسوا بها ، ما دام الاطفال عند تعريتهم من ثيابهم لا يعون عريهم اصلا .

٦٧ ــ ليس في طبيعتنا رذيلة او هوى في الاصل لأن الله لم يخلق الاهواء بل اوجد فينا فضائل طبيعية كثيرة ومنها بدون شك : الرحمة ، اذ ان الوثنيين انفسهم يتحننون ويشفقون ، ثم المحبة ، لأن البهائم العديمة النطق كثيرا ما تدمع على فراق رفيقاتها ، ثم الايمان ، لاننا نجد انفسنا جميعا مفطورين عليه ، ثم الرجاء ، اذ اننا على رجاء الانتفاع نقرض ونقترض ، ونزرع ، ونسافر .. فان كانت المحبة فضيلة طبيعية فينا على ما تبين ، وهي « رباط الشريعة وكمالها » (٢٠) ، فالفضائل بالتالي ليست بعيدة عن طبيعتنا ، فليحز اذا الذين يحتجون بعدم قدرتهم على اكتسابها .

٦٨ ــ اما المناقب الفائقة الطبيعة فهي الطهارة وعدم الغضب والتواضع والصلاة والسهر والصوم ونخس القلب المتواصل . وهذه يعلمنا بعضا منها الناس ، وبعضا آخر الملائكة . اما البعض الباقي فالاله الكلمة هو معلمها ومعطيها .

٦٩ ــ وعلينا عند الاضطرار ان نقايس بين الشرور ونختار اخفها . مثالا على ذلك كثيرا ما نكون قائمين بالصلاة فيأتينا اخوة فنضطر الى ترك الصلاة او الى احزان الاخ ورده خائبا . فالمحبة اعظم من الصلاة لأن الصلاة وصية جزئية اما المحبة فتشمل الفضائل كلها ولا تتعارض واياها .

٧٠ ــ لما كنت شابا يافعا ذهبت مرة الى احدى القرى ، وعند جلوسي للطعام داهمني كل من العجب والشراهة فخشيت عاقبة الشراهة وآثرت الانغلاب للعجب اذ عرفت ان روح الشراهة كثيرا ما يغلب روح العجب عند الشباب ، وليس هذا بمستغرب لأن الشراهة عند الرهبان هي اصل الشرور على غرار محبة المال عند اهل العالم .

---

(١٩) مز ٧ : ١٠ .

(٢٠) افسس ٤ : ٣ وكو ٣ : ١٤ و رو ١٣ : ١٠ .

http://coptic-treasures.com

٧١ ــ كثيرا ما يستبقي الله عند الروحانيين اهواء خفيفة الوطأة ؛ وذلك تدبيرا منه لكيما يؤنبوا ذواتهم بشدة على بعض النواقص الطفيفة الخالية من الخطيئة فيمتلكوا ثروة من التواضع لا تسلب .

٧٢ ــ يتعذر اقتناء التواضع على من لا يسلك طريق الطاعة في بدء رهبانيته ، اذ ان كل من يتعلم صناعة من غير معلم يغتر بنفسه .

٧٣ ــ يحدد الآباء ان الجهاد الرهباني يقوم على فضيلتين عامتين شاملتين اكثر من كل الفضائل (٢١) وذلك بحق لأن الواحدة تقصي الملذات والاخرى تثبت بالتواضع اقصاءها . اما النوح فله ذلك الفعل المضاعف اذ يقصي الخطيئة ويولد التواضع .

٧٤ ــ الاتقياء يلبون كل من يسألهم ، ومن هم اكثر تقى يجودون حتى على من لا يسألهم . ولعل الذين بلغوا اللاهوى وحدهم لا يسترجعون متاعهم ممن اخذه منهم ، لا سيما ان كانوا قادرين على ذلك .

٧٥ ــ لا نكفن عن فحص ذواتنا في جهاد الاهواء والفضائل متسائلين اين نحن : افي البداية ام في منتصف الطريق ام في النهاية ؟

٧٦ ــ ان كافة القتالات التي تثيرها الشياطين علينا تنجم عن احد اسباب ثلاثة : اما عن حب اللذة او عن الغرور او عن حسد الشياطين . فالذين يحسدهم الشياطين مغبوطون ، والمغرورون اشقياء ، ومحبو اللذة باطلون لا يصلحون لشيء .

٧٧ ــ يوجد حس او بالاحرى سجية تسمى الصبر على الاتعاب واحتمال المشقات ومن تملكته لا يعود يخشى اي تعب او الم ولا يحجم عنه البتة . وبهذه الشيمة المأثورة تأيدت نفوس الشهداء فازدروا العذابات واحتملوها بأيسر مرام .

٧٨ ــ رصد الافكار غير حفظ القلب ، وبمقدار بعد المشرق عن المغرب (٢٢) يعلو الثاني على الاول ، وان كان الاول اوفر تعبا .

٧٩ ــ الابتهال من اجل التخلص من الافكار ، غير الاعتراض لها ، والاعتراض لها غير ازدرائها والاعراض عنها . فالنهج الاول يشهد به القائل : « اللهم اصغ الى معونتي .. » (٢٣) وما شابه هذا القول . والنهج الثاني يشهد به القائل : « سأجيب الذين يعيرونني » (٢٤) ، وايضا « جعلتنا مقاومة لجيراننا » (٢٥) . اما النهج الثالث فيشهد به من ترنم قائلا : « اعتقل لساني ولم افتح فمي » (٢٦) ، و « وضعت حارسا لفمي حينما وقف الخاطىء قبالتي » (٢٧) ، وايضا « المتكبرون تمادوا في المعاصي اما انا فلم اجنح عن شهاداتك » (٢٨) . فمن اعتمد النهج الوسط (مقاومة الافكار) يحتاج ان يلجأ الى النهج الاول (الصلاة) مرارا كثيرة حين يفاجأ بالافكار وهو على غير استعداد . اما من توقف عند النهج الاول فلا يقوى على استخدام النهج الثاني لصد اعدائه . واما من بلغ النهج الثالث (ازدراء الافكار) فقد بصق على الشياطين وازدراهم كل الازدراء .

---

(٢١) هما الصوم والطاعة .
(٢٢) مز ١٠٢ : ١٢ .
(٢٣) مز ٦٩ : ١ .
(٢٤) مز ١١٨ : ٤٢ .
(٢٥) مز ٧٩ : ٧ .
(٢٦) مز ٣٨ : ١٠ .
(٢٧) مز ٣٨ : ٢ .
(٢٨) مز ١١٨ : ٥١ .

http://coptic-treasures.com

٨٠ ــ لا يحد جسد ما لا جسد له ، ولكن كل شيء مستطاع لمن يقتني الله .

٨١ ــ كما يستطيع ذوو حاسة الشم السليمة معرفة حامل الطيوب سرا مهما اخفاها ، كذلك تعرف النفس النقية وتتبين في الآخرين الطيب الذي اقتنته هي من لدن الله او النتانة التي تخلصت منها ، وان كان غيرها لا يشعر بذلك .

٨٢ ــ ليس من الممكن ان يصير الجميع عادمي الاهواء لكنه من الممكن ان يخلص الجميع ويتصالحوا مع الله .

٨٣ ــ لا تستولين عليك تلك الافكار الغريبة التي تجنح بك الى الفحص عن احكام الله الغامضة ، او عن الرؤى الممنوحة لبعض الناس ، موحية اليك خفية بأن الرب يحابي الوجوه ، فانها ثمرة الغرور وبه تعرف وتتسم .

٨٤ ــ كثيرا ما يتظاهر شيطان حب المال بالتواضع . اما شيطان العجب ، ومثله شيطان اللذة ، فيحثنا على الاحسان . فان تحررنا من كليهما فلا نكفن عن اعمال الرحمة اينما كنا .

٨٥ ــ قال البعض ان هناك شياطين يعاندون شياطين آخرين ، ولكني علمت انهم جميعا يسعون لاهلاكنا .

٨٦ ــ كل عمل روحي ، منظورا كان او عقليا ، يتقدمه عزم ملائم وشوق صالح ، وترافقه معونة الله . فان لم يسبق العمل الروحي عزم وشوق يلائمانه فلا تأتي معونة الله .

٨٧ ــ اذا كان لكل شيء تحت السماء وقت كما يقول الجامعة (٢٩) ، وسيرتنا الجليلة مشمولة بهذا القول ، فلنبحث ، ان شئتم ، ونطلب في كل وقت ما يناسبه . اذ ان للمجاهدين ولا شك وقتا للاهوى ووقتا للأهواء ، اعني في « طفولتهم » ، ثم وقتا للدموع ووقتا لقساوة القلب ، وقتا للطاعة ووقتا للأمر والنهي ، وقتا للصوم ووقتا لتناول الطعام ، وقتا لحرب الجسد اللدود ووقتا لخمود ثورته ، وقتا للعواصف النفسية ووقتا لسكون الروح ؛ وقتا لحزن القلب ووقتا للفرح الروحي ، وقتا للتعليم وآخر للاستماع ، وقتا للأدناس الليلية لعلها بسبب الغرور وآخر للتطهر منها بواسطة الاتضاع ، وقتا للمصارعة وآخر للراحة والامان ، وقتا للهدوء وآخر لتعاطي الاشغال بغير تشتت ، وقتا للصلاة المتواصلة وآخر للخدمة الصادقة . فلا تخدعنا غيرة متكبرة فنطلب الشيء قبل اوانه . لا نطلبن في الشتاء ما يجنى في الصيف ، ولا في اوان البذر ما يوافق اوان الحصاد ، اذ لنا وقت نزرع فيه الاتعاب وآخر نحصد فيه عطايا النعمة التي لا توصف . والا فلن نجتني ثمار كل وقت حتى في اوانه .

٨٨ ــ لقد حصل البعض ، بتدبير الهي لا يوصف ، على الثواب الجليل قبل تجشمهم الاتعاب ، والبعض الآخر اثناء الاتعاب ، وغيرهم بعد الاتعاب ، وآخرون في ساعة الموت فقط . ترى من هم الاكثر تواضعا بين هؤلاء ؟

٨٩ ــ هناك يأس ناتج عن ثقل خطايا وتعب ضمير وحزن لا يحتمل من جراء اثخان النفس بجراحات كثيرة تغرق تحت وطأتها في قعر القنوط . وهناك يأس آخر نقع فيه بسبب الكبرياء والغرور اذا احتسبنا اننا لا نستوجب السقطة العارضة لنا . فمن يراقب يتبين ما يميز كلا منهما : فالاول (يأس الخطايا) يؤول الى الاستسلام للامبالاة في السيرة النسكية ، والثاني (يأس الغرور) يفضي الى ممارسة اتعاب النسك كأنها بلا جدوى . الا ان الامساك عن الاهواء وحسن الرجاء يشفيان الاول ، اما الثاني فيشفيه التواضع وعدم ادانة احد .

---

(٢٩) الجامعة ٣: ١ .

http://coptic-treasures.com

٩٠ ــ لا ندهش او نستغرب اذا راينا اناسا يفعلون الشر وهم يتكلمون بالخير. فان الغرور والتكبر اسقطا الحية حتى في الفردوس .

١١ ــ ليكن لك هذا وتمانونا في كل ما تمارسه سواء كنت عالما في الطاعة ام خارج الطاعة ، وسواء في اعمالك الخارجية او الداخلية ، ان تنظر هل انت سالك حقا بحسب مشيئة الله ؟ مثالا على ذلك اذا اتينا عملا ، صغيرا كان ام كبيرا ، ولم نكتسب منه مزيدا من التواضع فلست اظن اننا فعلناه بحسب مشيئة الله . لان النمو في الاتضاع عندنا نحن المبتدئين هو علامة السعي بحسب مشيئة الرب . ولعل العلامة عند المتقدمين هي انقطاع القتالات عنهم . اما عند الكاملين فهي تكاثر النور الالهي وفيضه فيهم .

٩٢ ــ قد تكون الامور الصغيرة غير صغيرة في نظر الاعظمين . اما في نظر الاصغرين فالامور الكبيرة ليست كاملة كل الكمال .

٩٣ ــ اذا جلت الغيوم عن السماء سطعت الشمس ، واذا تحررت النفس من النقائص واستحقت الغفران ابصرت نور الله .

٩٤ ــ الخطيئة شيء والبطالة شيء آخر ، كذلك كل من التواني ، والهوى ، والسقطة . والقادر ان يفسر هذا الامر بوضوح بنعمة الرب فليفعل .

٩٥ ــ يغبط البعض موهبة اجتراح العجائب وغيرها من المواهب الروحية الظاهرة اكثر من كل شيء آخر ، وقد غاب عن بالهم ان مواهب كثيرة خفية تفوق تلك ، ولذلك تبقى في منأى عن السقوط .

٩٦ ــ من تنقى تنقية كاملة يبصر نفس قريبه في اية حالة هي دون ان يبصر النفس عينها . اما من لا يزال في طور التنقية فيستدل على حال النفس من خلال الجسد .

٩٧ ــ كما ان نارا قليلة تأتي مرارا كثيرة على غابة باكملها كذلك ثقب صغير يضيع كل تعبنا .

٩٨ ــ قد تؤول راحة الجسد احيانا الى اذكاء قوة العقل ولا توقد نار الشهوة فينا ، بينما ارهاق الجسد احيانا يحركه علينا ، وذلك لئلا نكون متكئين على انفسنا (٣٠) بل على الله الذي يميت بصورة خفية الشهوة الحية فينا .

٩٩ ــ اذا راينا اناسا يحبوننا في الرب فلنزدد احتراسا لئلا تقوم بيننا وبينهم دالة اذ لا شيء كالدالة يقضي على الحب ويحل البغض مكانه .

١٠٠ ــ ان عين النفس شفافة ونافذة جدا تفوق نضارة كل الخلائق الاخرى ما خلا العادمي الاجساد . ولذا كثيرا ما يستطيع الناس الذين هم عرضة للأهواء معرفة الافكار الخاطرة في نفوس غيرهم وذلك من تلقاء كثرة حبهم لهم ، خاصة اذا كانوا لم ينحرفوا ويتدنسوا بحمأة الجسد . فان كانت الطبيعة غير المادية لا يقاومها شيء مثل الطبيعة المادية فليفهم القارىء .

١٠١ ــ ان العوائد الشعبية التي تستهدف معرفة المستقبل تعاند عناية الله السابقة المعرفة ، فضلا عن انها عندنا (نحن الرهبان) تنافي المعرفة الروحية .

١٠٢ ــ فليدرك مرضى النفوس افتقاد الرب لهم من خلال حالة اجسادهم والشدائد والتجارب الخارجية التي تنتابهم ، واما الكاملون فليعلموا ذلك من حضور الروح القدس فيهم وازدياد مواهبهم .

١٠٣ ــ يوجد شيطان يوافينا عند استلقائنا على فراشنا ويرشقنا بأفكار رديئة

---

(٣٠) ٢ كو ١ : ٩ .

http://coptic-treasures.com

دنسة اذ اننا نكسل ونحجم حينذاك عن التدرع عليه بالصلاة فنرقد في افكار قبيحة وتتراءى لنا احلام نجسة .

١٠٤ ــ ويوجد شيطان يسمى السابق يداهمنا فور استيقاظنا من النوم ويدنس اول فكر لنا . فاعط انت للرب باكورة نهارك لانه سيكون باكمله لمن يتلقاها اولا . وقد اسر لي مجاهد فاضل قولا جديرا بالذكر فقال : « انني من خلال صباحي الباكر اعرف مجرى نهاري كله » .

١٠٥ ــ كثيرة هي الطرق المؤدية للخلاص او للهلاك . ولذلك كثيرا ما يحدث ان ما لا يناسب الواحد يوافق الآخر ، وقصد كليهما مرضي عند الله .

١٠٦ ــ يبذل الشياطين جهدهم عند ابتلائنا بالمحن ليجعلونا نقول او نعمل ما لا يليق ، وعند عجزهم عن ذلك يوحون الينا خلسة ان نشكر الله بتكبر .

١٠٧ ــ الذين وضعوا قلوبهم فوق ، متى توفوا تصعد نفوسهم الى فوق . والذين وضعوا قلوبهم اسفل فالى اسفل ينزلون . لانه ليس لنفوس الراقدين مكان آخر بين هذين . ان النفس وحدها بين سائر المخلوقات خلقت قائمة في غيرها (اي في الجسد) وليس في ذاتها . وانه لأمر عجيب ان تثبت كائنة خارج الجسد الذي اوجدت فيه .

١٠٨ ــ البنات الورعات تلدهن الأمهات ، اما الأمهات فيلدهن الرب (٣١) . ومن الحكمة ان يجري هذا النسق على الرذائل اضداد هذه الفضائل (٣٢) .

١٠٩ ــ ان موسى بل الله نفسه يأمر بأن لا يخرج جبان الى الحرب لئلا تصير له الضلالة الاخيرة النفسية شرا من السقطة الاولى الجسدية ، وذلك بعدل وحق (٣٣) .

عينا الجسد نور لسائر الاعضاء ، وتمييز الفضائل نور للذهن .

---

(٣١) يعني ان الايمان والرجاء والمحبة هي الفضائل العامة التي تلد بقية الفضائل وان الله هو مولدها فينا .

(٣٢) يعني ان الشراهة وحب المال والعجب هي الرذائل العامة التي تلد الرذائل الخاصة وابليس هو ابوها .

(٣٣) انظر تثنية الاشتراع الاصحاح ٢٠ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة السادسة والعشرون نفسها : القسم الثاني

فصل في صواب التمييز

١١٠ — كما يشتاق الأيل الظمآن الى مجاري المياه (١) كذلك يشتاق الراهب الى معرفة المشيئة الالهية الصالحة ، وليس الى معرفتها فقط بل ايضا الى معرفة المشيئة المختلطة بين الصلاح والشر ، والمشيئة الشريرة المضادة . ولنا في هذا الموضوع العسير كلام جزيل بغية التمييز بين الاعمال التي يجب ان نباشرها سريعا دون اي ارجاء او ابطاء ، حسب رأي القائل : « الويل لمن يتباطأ يوما بعد يوم وحينا بعد حين » (٢) ، والاعمال التي ينبغي ان نقوم بها بتريث واحتراس حسب وصية القائل : « بالتدابير تعمل حربك » (٣) والقائل الآخر : « ليكن كل ما تعملونه بلياقة وترتيب » (٤) . لانه ليس لكل الناس ، لا ليس لكل الناس اطلاقا ان يميزوا سريعا ويعرفوا مثل هذه الامور المعضلة على جليتها . فان داود نفسه المتوشح بالله والناطق بالروح كثيرا ما نراه يبتهل ملتمسا هذه الموهبة وقائلا حينا : « علمني ان اعمل رضاك لأنك انت هو الهي » (٥) ، وحينا آخر : « ارشدني الى حقك » (٦) ، وايضا « عرفني يا رب الطريق التي اسلك فيها لاني اليك رفعت نفسي » (٧) متساميا بها فوق كل اهتمام دنيوي وكل هوى .

١١١ — على الطالبين معرفة مشيئة الرب ان يميتوا مشيئتهم اولا ، وبعد ان يصلوا الى الله بايمان وبساطة خالية من الخبث ويسألوا آباءهم او اخوتهم بقلب متواضع وفكر غير مرتاب ، ان يقبلوا ما يشيرون به عليهم كأنه من فم الله ، حتى

---

(١) مز ٤١ : ١ .
(٢) الجامعة ٥ : ٧ — ٨ .
(٣) امثال ٢٤ : ٦ و ٢٠ : ١٨ .
(٤) اكو ١٤ : ٤٠ .
(٥) مز ١٤٢ : ١٠ .
(٦) مز ٢٤ : ٥ .
(٧) مز ١٤٢ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

ولو كان منافيا لرغبتهم او كان الذين سألوهم غير متقدمين في الروحانيات . وذلك ان الله ليس ظالما حتى يضل نفوسا قد رضخت بايمان وطهاره لمشورة قريبها وحكمه . لانه حتى ان كان الذين [illegible] اغبياء الا ان الله اللاهيولي واللامنظور هو الناطق فيهم . فالذين يرتضون ان ينهجوا هذا النهج ارتضاء لا ريب فيه هم ممتلئون اتضاعا جزيلا . هذا وما دام داود قد « كشف الغازه على القيثار » (٨) افلا تظنون ان عقلا ناطقا ونفسا عاقلة يفضلان جدا في الارشاد آلة صماء ؟

١١٢ — كثيرون هم الذين اعتدادا بانفسهم لم يصلوا بعد الى اتباع هذا المنهج الصالح ، الكامل والسهل في آن واحد ، بل حاولوا ان يدركوا بانفسهم وفي انفسهم ما هو مرضي للرب فوضلوا لنا في هذا الصدد احكاما جمة ومختلفة .

١١٣ — ان بعض الملتمسين تلك المشيئة الالهية عمدوا الى التخلي عن كل تعلق لهم واخضعوا فكرهم للرب في ابتغاء الامور ونبذها على السواء وافرزوا له عقولهم اياما معينة في توسل حار مجرد من اية مشيئة خاصة فادركوا مشيئته تعالى وذلك بمخاطبة الروح لروحهم او من خلال تلاشي مقاصدهم الذاتية في انفسهم تلاشيا كاملا .

١١٤ — وآخرون استنتجوا من الهموم والعوائق التي عقبت شروعهم بما عزموا النية عليه ان مرادهم مرضي لله وفق الراي القائل « لقد اردنا ان نجيء اليكم مرة واثنتين فمنعنا الشيطان » (٩) .

١١٥ — وآخرون تبينوا بالعكس قبول قصدهم عند الله من العون غير المتوقع الذي اسعفهم في تحقيق بغيتهم ؛ فقالوا مع القائل : ان الله يعين كل من يتوخى الصلاح (١٠) .

١١٦ — من استنار بالله وجواه في داخله يعرف مشيئته تعالى ويتأكد منها باقتباله العون الالهي السابق الذكر حالا سواء في الاعمال الصالحة او في الاعمال القابلة للتاجيل .

١١٧ — ان التردد في الحكم على الامور والاستمرار طويلا في الشك والحيرة دلالة على نفس غير مستنيرة تطلب مجد الناس .

١١٨ — ليس الله بظالم حتى يغلق الباب دون الذين يقرعون باتضاع .

١١٩ — ينبغي ان نتوخى الغاية المقبولة عند ربنا في كل ما نفعل ، سواء في الامور المستعجلة او المؤجلة ، لان اعمالنا المنزهة عن رغباتنا الشخصية وعن كل دنس والمؤداة فعلا لاجل الرب لا لغرض آخر ستحسب لنا كلها بمنزلة الاعمال الصالحة وان لم تكن صالحة كل الصلاح .

١٢٠ — ذلك لان البحث عما يفوقنا لا يخلو من خطر ، فضلا عن ان حكم الرب بشاننا لا يحد ، اذ كثيرا ما يعمد الى اخفاء مشيئته عنا تدبيرا منه لعلمه بانا اذا عرفناها سوف نعصاها فتجلب على انفسنا عقابا اشد .

١٢١ — القلب المستقيم يبقى نقيا مجموعا في وسط الاشغال والاهتمامات المتنوعة وهو يبحر في سفينة البراءة دون خطر .

١٢٢ — توجد نفوس شجاعة تبادر بشغف الهي واتضاع قلب الى القيام بأعمال تعلو على مقدرتها ، وتوجد قلوب متكبرة تباشر تلك الاعمال عينها ، لان أعداءنا يوحون

---

(٨) مز ٤٨ : ٤ .

(٩) اتس ٢ : ١٨ .

(١٠) لا يعرف لمن هو هذا القول .

http://coptic-treasures.com

الينا في احيان كثيرة ان نمارس ما يفوق قوتنا لكي نضجر فنهمل حتى ما هو في طاقتنا ونصير عندهم هزءا واضحوكة .

١٢٣ — رأيت اناسا سقماء نفسا وجسدا قد اعتمدوا ؛ تكفيرا عن سقطاتهم الكثيرة ، ممارسة اتعاب نسكية تتجاوز مقدرتهم ولا يطيقون متابعتها . فقلت لهم ان التوبة تقاس عند الله بمدى اتضاعها لا بكمية اتعابها .

١٢٤ — التربية او العشرة علة لاعظم الشرور احيانا ، ولكن النفس المعوجة كثيرا ما تجنح الى الهلاك لمجرد اعوجاجها . فالناجي من سوء التربية وسوء العشرة قد يكون ناجيا عن اعوجاج النفس ايضا . اما المعوج النفس فهو فاسد في كل مكان . اذ ليس من مكان اكثر حصانة من السماء (١١) .

١٢٥ — اذا عمد اناس غير مؤمنين او غير مستقيمي الايمان الى مناقشتنا في الدين وهم سيئو النية « فبعد الانذار مرة ومرتين لنكف عن مباحثتهم » (١٢) . اما الذين يتوخون معرفة الحق فلا نملن من فعل الخير معهم (١٣) مهما طال الزمن . ولكن لا نقدمن على ذلك في كلتا الحالتين الا اذا كان قلبنا متثبتا (١٤) (في المعرفة والايمان) .

١٢٦ — من يسمع اخبار فضائل القديسين الفائقة الطبيعة ويياس من نفسه يكون كثير الغباوة . لأن هذه الاخبار من شانها بالعكس ان تفيدك جدا باحد امرين : فهي اما تحثك على مماثلتها بشجاعة مقدسة او تأتي بك الى معرفة نفسك معرفة جزيلة وبالتالي الى تأنيبها بتواضع مثلث القداسة اذ تظهر لك عمق ضعفك .

١٢٧ — ان بعض الشياطين الانجاس يفوقون غيرهم خبثا فيشيرون علينا بأن لا نعمل الخطيئة وحدنا بل يحملوننا على ان يكون لنا شركاء في عمل الشر ليجعلوا عقابنا امر واشد . فاني شاهدت امرؤا علم غيره عادة خبيثة ثم عاد الى نفسه وبدا يتوب وكف عن خطيئته ولكن توبته بقيت غير فاعلة وذلك بتأثير رفيقه الذي تعلم منه .

١٢٨ — كثير هو خبث الشياطين ، كثير حقا وصعب كشفه ، وقليلون هم الذين يلحظونه . واعتقد ان هؤلاء القليلين انفسهم لا يلحظونه كليا . لماذا مثلا اذا تنعمنا وشبعنا نسهر احيانا كثيرة بأوفر افاقة ، واذا صمنا وتقشفنا ننغلب للنوم انغلابا يرثى له ؟ اذا اقمنا في الهدوء تقسو قلوبنا واذا في شركة الاخوة نتخشع ؟ اذا جعنا نجرب اثناء النوم واذا اتخمنا نلبث غير مجربين ؟ نصير في العوز بليدي الذهن متحجري القلب واذا شربنا الخمر نضحي مشرقين وسريعي التخشع ؟ فمن يستطيع في الرب فليفسر هذه العوارض لمن هم بصددها غير مستنيرين . فنحن في هذا المجال لسنا من المستنيرين . لكننا نستطيع ان نقول ما يلي : ان حدوث مثل ذلك التغيير فينا لا يحصل دائما من جراء الشياطين بل ينجم احيانا عن مزيج هذه الطبيعة الغليظ النهم ، الذي لا اعلم كيف اعطيته وتسربلته .

١٢٩ — وفي سبيل تمييز هذا الامر العسير فلنتضرع الى الرب تضرعا خالصا متواضعا مدة من الزمن طالبين كف العارض الحادث لنا ، فان استمر العارض فلنتيقن انه ليس من فعل الشيطان بل من طبيعتنا . وكثيرا ما يشاء التدبير الالهي ان يحسن الينا بكل الوسائل فيكبح غرورنا عن طريق مثل هذه الحوادث المضادة .

١٣٠ — ان سبر غور الاحكام الالهية محفوف بالخطر لان الذين يقدمون على

---

(١١) ومع ذلك فقد سقط منها الشيطان .

(١٢) تيطس ٣ : ١٠ .

(١٣) غلا ٦ : ٩ .

(١٤) عب ١٣ : ٩ .

http://coptic-treasures.com

ذلك يسيرون في سفينة الغرور . ولكن لا بد من ذكر شيء عنها من اجل دعم ضعف الكثيرين .

١٣١ ــ سأل احدهم بعض القادرين على التمييز ما السبب في ان الله العارف مسبقا بهفوات البعض قد انعم عليهم بمواهبه وعجائبه ؟ فأجاب : لكيما يصون ويثبت باقي الناس الروحانيين ، ويبين حرية الانسان ، ويجعل الذين يسقطون لا عذر لهم في يوم الدين .

الكمال فقد اوصانا باصلاح اخينا ايضا قائلا : « اذا اخطأ اليك اخوك الخ... » (١٦) فان كان تأنيبك لأخيك بل بالاحرى تنبيهك له نقيا متواضعا فلا تحجم عن اتمام وصية

١٣٢ ــ الشريعة غير الكاملة تقول : « تيقظ لنفسك » (١٥) . اما الرب الفائق الرب (ولا سيما مع الذين يقبلون منك التأنيب) . وان كنت لم تصل بعد الى هذه الحال فتمم على الاقل وصية الشريعة .

١٣٣ ــ لا تعجب اذا رأيت احباءك يعادونك لتوبيخك اياهم فان ذوي الخفة اداة بيد الشيطان يستخدمهم بصورة خاصة ضد من يعاديه .

١٣٤ ــ يدهشني جدا كيف ان الله القادر على كل شيء ، فضلا عن الملائكة والقديسين ، يؤازرنا في اكمال الفضائل ، في حين ان الشيطان الشرير وحده يدفعنا الى اتمام الرذائل ، فنجنح الى الاهواء جنوحا اسرع وايسر . اني لا اشاء ان اوضح هذا الامر بل لا استطيع .

١٣٥ ــ ان كانت البرايا كلها تحافظ على طبيعتها التي خلقت عليها فكيف حصلت ، وانا صورة الله ، ممتزجا بالحمأة كما قال غريغوريوس النزينزي العظيم ؟ ان استحال شيء بطريقة ما الى خلاف ما خلق عليه فمن البين انه سيجنح دون انقطاع الى الرجوع لحالته الطبيعية الاولى . فعلى الانسان بالتالي ان يسعى بكل وسيلة ليصعد جسده الترابي اذا جاز القول ويجلسه على عرش الله . ولا يتذرعن احد بصعوبة هذا الارتقاء لأن الطريق والباب مفتوحان امامنا .

١٣٦ ــ ان الاستماع الى ما احكمه الآباء من الاتعاب والفضائل ينبه العقل والنفس الى اقتفاء آثارهم . والاصغاء الى اقوالهم يرشد السالكين في اثرهم الى مماثلتهم .

١٣٧ ــ التمييز سراج في الظلام وهدى للضالين ونور للعيون الكليلة . ذو التمييز يستعيد الصحة ويستأصل المرض .

١٣٨ ــ ان جماعة الذين يظهرون اعجابهم بصغائر الامور انما يفعلون لسببين : اما لجهلهم المطبق او بقصد تذليل انفسهم عن طريق تعظيم اعمال الغير ورفع شأنها .

١٣٩ ــ لنجد (بتشديد الدال) ليس فقط في صد الشياطين بل ايضا في شن الحرب عليهم ، لأن من يصدهم يغلبهم حينا ويغلبونه حينا ، اما الذي يهاجمهم بلا هوادة فيطردهم على الدوام .

١٤٠ ــ من قمع اهواءه يطعن الشياطين ، ومن تظاهر باتباعها يخدعهم فيحجمون عن محاربته . فان احد الاخوة اهين مرة فلم ينفعل داخليا البتة ، وبعدما صلى عقليا بدأ يندب اهانته ساترا لاهواه بهوى مصطنع . واخ آخر كان لا يصبو الى الرئاسة بالكلية فتظاهر بأنه يسعى اليها . وكيف اصف لك طهارة ذاك الذي هرع الى بيت للبغاء متظاهرا بطلب الخطيئة فاجتذب البغي الى حياة النسك ؟ وقد اتى بعضهم

---

(١٥) تثنية ٤ : ٩ .

(١٦) متى ١٨ : ١٥ .

http://coptic-treasures.com

بعنقود عنب في الصباح الباكر الى احد المقيمين في الهدوء فقام لتسوه بعد انصرافهم والتهمه التهاما خلوا من اية شهوة ، موحيا للأبالسة بانه شره . وآخر اضاع قليلا من الخوص فتظاهر بالاكتئاب طول النهار لاضاعته . ان امثال هؤلاء يحتاجون الى تيقظ كثير لئلا يعمدوا الى اللهو بالشياطين فينتهي امرهم الى لهو الشياطين بهم . فهم بالحقيقة الذين قال فيهم الرسول « مضلين وهم صادقون » (١٧) .

١٤١ — من يبتغ ان يقدم للمسيح جسدا طاهرا وقلبا نقيا فليحرص على التمسك بالوداعة والاعتدال . لأن تعبنا كله يذهب سدى بدون هاتين الفضيلتين .

١٤٢ — كما يختلف نور العيون (١٨) بين شخص وآخر كذلك يختلف حلول نور الشمس العقلية في النفس ويتنوع . لأن حلوله عن طريق الدموع الجسدية غير حلوله عن طريق الدموع النفسانية ، وحلوله من خلال عيني الجسد غير حلوله من خلال عيني العقل ، وحلوله على اثر سماع قول نافع غير حلوله الحاصل من الفرح المتحرك تلقائيا في النفس ، وحلوله الناتج عن الهدوء والعزلة غير حلوله الناتج عن الطاعة . وعلاوة على هذه الاصناف كلها فهناك حلول فريد يخطف العقل ويوقفه لدى المسيح في نور عقلي لا يحد ولا يوصف .

١٤٣ — بين الفضائل فضائل اساسية تلد الفضائل الاخرى ، والرجل الفطن يجتهد ان يقتنيها قبل غيرها . والله نفسه يعلمنا اياها ، في حين ان معلمي الفضائل الثانوية كثيرون .

١٤٤ — لنحترس من التعويض عن نقص الاغتذاء بالاكثار من النوم او عن نقص النوم بالاكثار من الاغتذاء ، فان هذا هو شأن الفاقدي التمييز .

١٤٥ — رأيت مجاهدين قد تراخوا لسبب ما فنعموا بطنهم قليلا ثم عمدوا سريعا الى تعذيب ذلك الشقي بشجاعة بالوقوف ما طال الليل فلقنوه ان يحجم عن الشبع بسرور .

١٤٦ — ان شيطان حب المال يصارع بحدة من زهدوا في المال فاذا لم يقو عليهم اوحى لهم بأن يذكروا الفقراء ، وبهذه الحجة اقنع الروحانيين البعيدين عن المادة ان يعودوا الى الاهتمام بالمادة من جديد .

١٤٧ — لا نغفلن في اوقات القنوط عن ذكر وصية الرب لبطرس بالغفران لمن اخطأ اليه سبعين مرة سبع مرات (١٩) . لأن من اوصى غيره بهذه الوصية سوف يفعل هو اكثر منها بكثير . اما في حالات التكبر فلنذكر بالعكس القول القائل بأن من يتمم الشريعة الروحانية كلها ويسقط في هوى واحد ، هو الغرور ، « فقد صار مجرما في الكل » (٢٠) .

١٤٨ — ان بعض الارواح الشريرة الحسود تنصرف عن القديسين من تلقاء ذاتها لئلا تسبب لهم اكاليل الغلبة في حروب لا تستطيع ان تقهرهم فيها .

١٤٩ — « طوبى لصانعي السلام » (٢١) ولن يعترض على ذلك احد . غير اني شاهدت صانعي عداوة جديرين بالطوبى . فقد تحاب اثنان محبة غير طاهرة ، وتلافيا لذلك توسط احد اكثر الآباء تمييزا ووشى الى هذا وذاك ان صاحبه يغتابه فمقت

---

(١٧) ٢ كو ٦ : ٨ .
(١٨) يقصد اللون .
(١٩) متى ١٨ : ٢٢ .
(٢٠) يعقوب ٢ : ١٠ .
(٢١) مت ٥ : ٩ .

http://coptic-treasures.com

كل منهما رفيقه ، فاستطاع هذا الحكيم ان يتفادى شرا شيطانيا بمكر انساني ، وان يختلق وقتا ليفك رباط الزنا !

١٥٠ ــ قد يبطل البعض وصية بسبب وصية اخرى ، فاني رأيت شابين يتحابان حبا مرضيا لله فاتفقا على ان ينفصلا الى حين ، تلافيا للأذى اللاحق بضمير الآخرين .

١٥١ ــ كما ان العرس والمأتم يتنافيان ، كذلك الكبرياء واليأس لا يتفقان . ولكنهما يجتمعان احيانا بتشويش من الشياطين .

١٥٢ ــ ان بعض الشياطين الانجاس يفسرون لنا الكتب الالهية في اوائل زهدنا . ويعمدون الى ذلك بصورة خاصة لدى المعجبين بأنفسهم ، ولا سيما الذين احكموا العلوم البشرية ، لكي يضلوهم شيئا فشيئا ويفضوا بهم الى البدع والتجديف . ونتبين هذا اللاهوت الشيطاني ، وبالاحرى هذه الشعوذة ، من الشعور المشوش والفرح غير النقي المنسابين الى النفس وقت التفسير .

١٥٣ ــ لقد اتخذت البرايا كلها من الخالق نظامها وابتداءها ، والبعض منها نهايتها ايضا . غير ان الفضيلة حازت غاية لا نهاية لها . وذلك ان المرنم قال : « لكل كمال رأيت حدا اما وصيتك فواسعة جدا » (٢٢) . فان كان بعض المجاهدين الصالحين ينطلقون من قوة العمل الى قوة النظر (٢٣) ، وان كان الحب لا يسقط ابدا (٢٤) ، وان كان الرب يحفظ دخول مخافتك وخروج محبتك (٢٥) ، فغاية الحب اذا لا حد لها ولن ننتهي ابدا من التقدم فيه ، لا في الدهر الحاضر ولا في الآتي ، مستمدين دون انقطاع نورا من نور . ومهما كان هذا مستغربا عند كثيرين فاني سوف اقول ايها المغبوط ان الملائكة انفسهم ، بحسب الادلة التي اوردناها ، لا يعدمون التقدم بل يزدادون على الدوام مجدا فوق مجد ومعرفة فوق معرفة .

١٥٤ ــ لا تتعجب من ان الشياطين اعداءنا يوحون الينا احيانا كثيرة بأفكار صالحة يلحقونها بأفكار تناقضها ثم يدحضونها ، فان قصدهم انما هو اقناعنا بأنهم يعرفون افكار قلوبنا .

١٥٥ ــ لا تحكم بقساوة على الذين يعلمون تعليما بليغا بأقوالهم ويتلكأون عن تطبيقه بأعمالهم ، فان منفعة الكلام كثيرا ما عوضت عن نقص العمل ، اذ لا نقتني جميعنا كل المحامد بالتساوي ، فان الكلام عند البعض يزيد على العمل ، بينما يفوق العمل الكلام عند آخرين .

١٥٦ ــ لم يبدع الله الشر ولم يسببه ، وقد ضل الذين زعموا ان في النفس اهواء شريرة وخفي عليهم اننا نحن الذين حولنا خواص طبيعتنا الى اهواء . فان قدرة انجاب الاولاد مثلا هي فينا بالطبع ولكننا حولناها الى الزنى . فينا الغضب بالطبع وذلك لكي نغضب على الشيطان فوجهناه نحن ضد القريب . فينا الغيرة لنتنافس في الفضيلة فتنافسنا في الشر . من طبع النفس ان تتوق الى المجد ولكن الى العلوي . فينا التكبر بالطبيعة ولكن على الشياطين فقط . كذلك فينا الفرح ولكن لنفرح بالرب وبحسن عمل القريب . قد اعطينا الحقد لكن لنغتاظ من اعداء النفس ، ونلنا شهوة الطعام ولكن ليس للافراط في تناوله .

١٥٧ ــ ان النفس النشيطة تثير على ذاتها الشياطين . واذا تكاثرت حروبها

---

(٢٢) مز ١١٨ : ٩٦ .

(٢٣) مز ٨٨ : ٨ هذا ويقصد « بالعمل » اعمال التوبة والنسك و « بالنظر » معاينة الامور الالهية .

(٢٤) اكو ١٣ : ٨ .

(٢٥) مز ١٢٠ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

تكاثرت اكاليلها . من لم يجرحه محاربوه فمن البين انه لن يكلل . ومن لا يخر عزمه بتعبل السقطات العارضة له فسوف يمجده الملائكة كمحارب صنديد .

١٥٨ ــ ان الذي قضى في بطن الارض ثلاثة ايام عاد حيا الى الابد ؛ والذي يقهر اوقات التجربة (٢٦) الثلاثة لن يموت فيما بعد .

١٥٩ ــ قد يسمح الله من اجل تربيتنا روحيا بأن تعرف الشمس فينا غروبها (٢٧) بعد شروقها ، فيجعل الظلمة خباء له (٢٨) فيصير ليل ؛ وفيه تعبر الينا الاشبال الضارية وجميع وحوش غاب الاهواء الشائكة ، بعد ان كانت قد انصرفت عنا ، وتزار لتختطف الرجاء الذي فينا وتلتمس من الله طعامها الذي هو اهواؤنا على صعيدي الفكر والعمل . ثم تشرق الشمس فينا من جديد عبر ظلمة التواضع فتجتمع الوحوش وفي صيرها تربض (٢٩) ، اعني في قلوب الشهوانيين وليس فينا . حينئذ يقول الشياطين فيما بينهم : لقد عظم الرب رحمته على هؤلاء ، فنجيبهم : لقد صنع الرب الينا العظائم فغدونا فرحين (٣٠) ، اما انتم فمنبوذون . هوذا الرب راكب على سحابة خفيفة ، اي في نفس قد تعالت فوق كل شهوة ارضية ، وقادم الى مصر ، اي الى القلوب المظلمة ليزعزع اصنامها ، صنع الايادي (٣١) ، افكار عقل الانسان .

١٦٠ ــ ان كان المسيح القادر على كل شيء قد هرب من هيرودس جسديا فليتعلم المتهورون الا يلقوا بذواتهم في التجارب ، فانه قيل : « لا تعط رجلك للزلل » (٣٢) .

١٦١ ــ كما يلتف اللبلاب (٣٣) على السروة يلتصق الغرور بالشجاعة .

١٦٢ ــ لا نظنن يوما اننا قد امتلكنا صلاحا ما بل فلنفحص ذواتنا باجتهاد لنتبين ما اذا كانت مزية ذلك الصلاح هي حقا فينا ، واذ ذاك نفطن اننا مقصرون جدا عن امتلاكه .

١٦٣ ــ ابحث وفتش بلا انقطاع عن دلائل الاهواء فيك فتفطن حينذاك لوفرتها ، اذ نحن عاجزون عن كشفها فينا بسهولة ما دمنا خاضعين لها ، وذلك اما لضعفنا او لتأصلها العميق فينا .

١٦٤ ــ الله في محبته يحكم على القصد والنية ، غير انه يطلب منا ايضا ان نعمل قدر طاقتنا . عظيم هو من لا يقصر عن طاقته بشيء واعظم منه من يقدم بتواضع على ما يفوق قدرته .

١٦٥ ــ كثيرا ما يمنعنا الشياطين عن القيام بأعمال سهلة وموافقة لنا جدا ويحثوننا على ان نباشر عوضا عنها اعمالا شاقة اصعب منها .

١٦٦ ــ اني ارى ان يوسف العفيف قد مدح لفراره من الخطيئة لا لانعتاقه من الهوى . اما نحن فلننظر ما هي وكم هي الخطايا التي يكسبنا الهرب منها اكليلا ،

---

(٢٦) وهي الشراهة وحب المال والغرور او بحسب الياس الكريتي : الغرور والزنى وحب المال ، وفي تفسير آخر : سن الحداثة وسن الكهولة وسن الشيخوخة .

(٢٧) مز ١٠٣ : ١٩ .

(٢٨) مز ١٧ : ١٢ .

(٢٩) مز ١٠٣ : ٢٠ ــ ٣٠ .

(٣٠) مز ١٢٥ : ٣ ــ ٤ .

(٣١) اشعياء ١٩ : ١ .

(٣٢) مز ١٢٠ : ٣ .

(٣٣) عشب طفيلي .

http://coptic-treasures.com

لأن الهرب من الظل يختلف عن السعي الحثيث نحو شمس البر .

١٦٧ ــ الظلام علة التعثر ، والتعثر علة السقوط ، والسقوط علة الموت .

١٦٨ ــ الذين اظلموا بالخمر يغتسلون بالماء ، اما الذين اظلموا بالاهواء فيغتسلون بالدموع .

١٦٩ ــ تكدر البصر غير الرمد ، والعمى غيرهما . فالاول يشفيه الامساك والثاني الهدوء ، اما الثالث فالطاعة والله الذي صار مطيعا من اجلنا (٣٤) .

١٧٠ ــ نستطيع ان نتخذ طريقة تنظيف الامتعة الدنيوية مثالا لتنقية مريدي الحياة العلوية ، فنقول ان الجماعة الرهبانية السالكة بحسب مشيئة الرب هي بمنزلة حانوت القصار تجرد النفس من اوساخها وفظاظتها وقباحتها ، اما عزلة التوحد فهي كالمصبغة تجمل (بتشديد الميم) الذين طرحوا عنهم الفسق والحقد والغضب وصاروا الى الهدوء .

١٧١ ــ يقول البعض ان استمرار السقوط في خطايا معينة يأتي من نقص التوبة الملائمة للتكفير عن السقطات السابقة ولتقويمها . ولكن هل يا ترى كل من لا يسقط في خطاياه السالفة قد تاب توبة حقيقية ؟ فقد تستمر سقطات البعض اما لنسيانهم زلاتهم السابقة بالكلية او لشغفهم باللذة واتكالهم على محبة الله للبشر او ليأسهم من الخلاص . وربما لامني لائم ان قلت انهم امسوا غير قادرين على ان يضبطوا جسدهم لاقتساره اياهم بقوة العادة .

١٧٢ ــ لماذا يا ترى لا تبصر النفس الارواح التي تفد اليها مع انها تماثل النفس في الطبيعة اذ هي مجردة من الجسد ؟ العل هذا لاقتران النفس بالجسد ؟ ان الذي قرنهما يعلم وحده ذلك .

١٧٣ ــ سألني مرة بالحاح احد ذوي المعرفة فقال : بين لي ما هي الارواح الشريرة التي تخفض العقل وما هي التي ترفعه عندما نخطأ ؟ فتحيرت انا لهذا السؤال واكدت له جهلي بقسم . فعلمني حينئذ قائلا : ها انذا اودعك خميرة تمييز في كلمات قليلة واتركك تفتش عن كامل الجواب بتعبك . ان ارواح الزنى والغضب والشراهة والضجر والنوم لا ترفع العقل . اما ارواح حب المال وحب الرئاسة والثرثرة ، وارواح كثيرة غيرها ، فقد الفت ان تزيد على شرها شرا (هو الترفع والغرور) . ولذا يحسب روح الادانة معها .

١٧٤ ــ من زار علمانيين او استقبلهم يوما او ساعة ثم حزن لانصرافهم ولم يفرح بالحري كمن افلت من فخ وعقال فهو العوبة العجب او الزنى .

١٧٥ ــ لننظر قبل كل شيء من اين تهب الريح لئلا نكون قد شرعنا قلوعنا ضدها .

١٧٦ ــ عز (بتشديد الزين وكسرها) شيوخا مجاهدين قد طحنوا بالنسك اجسادهم متيحا لهم قليلا من الراحة ، والزم بالامساك احداثا قد طحنوا بالخطايا نفوسهم ، مذكرا اياهم بالعقاب .

١٧٧ ــ من المتعذر ، كما ذكرنا في موضع آخر ، ان نتنقى من الشراهة والعجب في مستهل زهدنا تنقية سريعة وكاملة . ولكن لا نحارين العجب بالتنعم وعدم الامساك (٣٥) ، لأن انهزام العجب يولد عند المبتدئين عجبا ، بل فلنغلبه بالتقشف والفاقة اذ ستأتي ساعة ، وهي الآن حاضرة لمن يشاء ، يخضع الرب العجب فيها تحت اقدامنا .

---

(٣٤) في ٢ : ٨ .

(٣٥) بحجة عدم افساح مجال للعجب بالامساك .

http://coptic-treasures.com

١٧٨ ــ ان الاحداث والشيوخ القادمين الى حياة العزلة لا يقاتلون (بفتح التاء) بالاهواء نفسها ، لانهم في احوال كثيرة يعانون من امراض متضاربة تماما . ولذا مغبوط هو التواضع المبارك الذي يجعل توبة الاحداث والشيوخ على السواء آمنة فعالة .

١٧٩ ــ لا تضطرب لما انا مزمع ان اقول : نادرة حقا ، وان وجدت ، هي النفوس المستقيمة العديمة الخبث والمكر والرياء ، ولا يناسبها ان تقيم مع الناس بالكلية ، بل يمكنها بمساعدة مرشدها ان تصعد من هدوء العزلة الى السماء كأنه من ميناء ، ناجية من جلبة حياة الاديرة ومعاثرها .

١٨٠ ــ قد يشفي الفاسقين الناس ، والخبثاء الملائكة ، اما المتكبرون فالله وحده يستطيع ان يشفيهم .

١٨١ ــ قد يكون من المحبة في احوال كثيرة ان نترك قريبنا ، اذا نزل بنا ، يعمل ما يشاء ، ونظهر له كل بشاشة .

١٨٢ ــ لنتساءل هل التندم على الافعال الصالحة ينقضها كما تنقض الندامة الاعمال الرديئة ، وكيف يتم ذلك والى اي حد ومتى ؟

١٨٣ ــ علينا ان نميز بدقة كثيرة متى ينبغي ان نقاوم اسباب اهوائنا وفي اية حال والى اي حد ، ومتى ينبغي بالعكس ان ننسحب من القتال ، على اعتبار ان الهرب قد يكون افضل احيانا نظرا لضعفنا وتفاديا لهلاكنا .

١٨٤ ــ لننظر ونترقب متى وكيف نستطيع ان نفرغ مرارة (الخطيئة) بمرارة (النسك) ومن هم الشياطين الذين يرفعوننا او يذللولنا ، ويقسوننا او يعزوننا ، ويظلموننا او يدعون انارتنا ، ومن هم الذين يجعلوننا خاملين او محتالين ، حزانى او فرحين .

١٨٥ ــ لا نتعجب ونضطرب اذا وجدنا انفسنا في بدء زهدنا اكثر عرضة للأهواء مما كنا عليه في العالم ، لانه لا بد ان تثور علينا اهواؤنا حتى نأتي الى الصحة ، فان الوحوش كانت الى الآن مخبأة فينا ولم تكن تظهر .

١٨٦ ــ اذا عرض للذين قاربوا الكمال الانغلاب للشياطين في زلة خفيفة فليحتالوا بكل حيلة ليقلعوا عن تلك الزلة ويكفروا عنها الى مائة ضعف .

١٨٧ ــ كما ان الرياح تحرك احيانا سطح البحر عند سكونه واحيانا اخرى تخبط قعره ، كذلك يبدو لي ان رياح الاثم العاتية ، تخبط قلب ذوي الاهواء ، اما الذين تقدموا في السيرة فتحرك سطح النفس منهم فقط . ولذا يستعيد هؤلاء سكونهم سريعا لان قلبهم لم يتدنس .

١٨٨ ــ انها مزية الكاملين ان يعرفوا دوما اي فكر يأتيهم من انفسهم وايا من الله وايا من الشياطين . لان الشياطين في البدء لا يقتصرون على الايحاء بهواجس شريرة . ولذا كان تمييز هذا الامر في الحقيقة لبكا عسيرا .

١٨٩ ــ كما يستنير الجسد بالعينين الحسيتين كذلك تستضيء عينا القلب بالتمييز السوي .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة السادسة والعشرون نفسها : القسم الثالث

مراجعة وجيزة لكل المقالات السابقة

١ ــ الايمان الوطيد يؤول الى الزهد في العالم ، والعكس بالعكس .
٢ ــ والرجاء الثابت يقود الى الزهد في المقتنيات ، والعكس بالعكس .
٣ ــ ومحبة الله اساس الغربة ، والعكس بالعكس .
٤ ــ لوم الذات وابتغاء الشفاء من الاهواء يولدان الطاعة .
٥ ــ انتظار الموت والذكر الدائم للمر والخل اللذين تناولهما السيد يولدان الامساك عن الاهواء .
٦ ــ الهدوء اساس العفة وعونها ، والصوم يطفىء ثورة الجسد ، وانسحاق القلب يطرد الافكار القبيحة .
٧ ــ الايمان والغربة يميتان الجشع ، بينما الحنق على القريب والتودد اليه يسلمان الجسد الى اعدائه .
٨ ــ الصلاة الحارة تبيد الضجر ، وذكر الدينونة يشحذ الهمة .
٩ ــ حب الهوان يشفي الغضب ، والترتيل ، الى جانب الاشفاق على القريب والتخلي عن المقتنيات ، يبدد الحزن .
١٠ ــ الزهد في الحسيات يأتي بنا الى معاينة الالهيات .
١١ ــ الصمت والهدوء يقاتلان العجب ، وان كنت مقيما في دير فارغب في الهوان .
١٢ ــ الكبرياء الظاهرة تشفيها الملمات ، اما غير الظاهرة فيشفيها الذي لا يرى ، الكائن قبل الدهور .
١٣ ــ الايل يبيد الافاعي الحسية ، والتواضع يبيد الافاعي العقلية باسرها .
١٤ ــ ان الامثلة المستوحاة من الطبيعة تساعدنا على توضيح الامور الروحية .
١٥ ــ فكما يتعذر على الحية نزع جلدها العتيق ما لم تندس في ثقب ضيق ، كذلك نحن ايضا لا نستطيع ان نطرح عنا نقائصنا وعتاقة نفسنا وننزع ثوب انساننا العتيق ما لم نعبر طريق الصوم الضاغطة وسبيل الهوان الضيق .

http://coptic-treasures.com

١٦ ــ وكما ان الطيور السمينة (١) لا يمكنها ان تطير عاليا كذلك من يغذي جسده وينعمه لا يمكنه ان يرتقي نحو السماء .

١٧ ــ الوحل اذا جف لا يرضي الخنازير والجسد اذا نحف وضمر لا يوافق غرض الشياطين .

١٨ ــ كما ان كثرة الحطب تخنق لهيب النار وتطفئه وتحدث دخانا كثيفا ، كذلك الحزن المفرط كثيرا ما يجعل النفس عكرة ومظلمة ويجفف الدموع .

١٩ ــ كما لا يصلح الاعمى لرمي القوس كذلك لا يرجى خير من التلميذ المعاند .

٢٠ ــ كما يستطيع الحديد المسقي ان يحدد الحديد غير المسقي ويشحذه ، كذلك كثيرا ما خلص اخ نشيط اخا متوانيا .

٢١ ــ كما ان بيض الطيور اذا طمر في السماد يؤول الى فراخ ، كذلك الافكار التي لا يباح بها تؤول الى افعال .

٢٢ ــ كما ان الخيل الراكضة تسابق بعضها بعضا كذلك الجماعة الصالحة يتنافس افرادها في الخير ويشجعون بعضهم بعضا .

٢٣ ــ كما تحجب الغيوم الشمس كذلك تظلم الافكار الشريرة العقل وتعطله .

٢٤ ــ كما ان من تبلغ الحكم عليه بالاعدام لا يتحدث عن المسارح وهو مساق الى الموت كذلك التائب الحقيقي لا يداري بطنه البتة .

٢٥ ــ كما يزداد احساس الفقراء بفقرهم اذا ابصروا كنوز الملوك كذلك تتضع النفس اذا طالعت فضائل الآباء الجليلة .

٢٦ ــ كما يلتصق الحديد بالمغنطيس كارها ، وينجذب اليه بفعل قوة سرية في الطبيعة ، كذلك تقتسر العادات من تأصلوا في نقائصهم .

٢٧ ــ كما يسكن الزيت البحر وهو صاغر كذلك يخمد الصوم ثورة الجسد وهو كاره .

٢٨ ــ كما يعلو الماء اذا حصر كذلك تصعد النفس بالتوبة الى الله احيانا كثيرة اذا حصرتها الاخطار ، فتنجو .

٢٩ ــ كما يفضح اريج الطيوب حاملها كذلك يدل على رجل الروح كلامه وتواضعه .

٣٠ ــ كما يتألق الذهب في نور الشمس كذلك يتجلى المرء بالفضيلة .

٣١ ــ كما تخبط الرياح اللجة كذلك يعكر الغضب الذهن اكثر من اي هوى آخر .

٣٢ ــ كما اننا لا نشتهي ما نسمع عنه ان لم نره كذلك ينعم اطهار الجسد من جراء طهارتهم براحة جزيلة .

٣٣ ــ كما ان اللصوص لا يهاجمون باستخفاف مستودع اسلحة الملك كذلك اللصوص العقليون لا يسرقون بسهولة من يعتصم بالصلاة القلبية .

٣٤ ــ كما ان النار لا تولد ثلجا كذلك من يبتغ الكرامة الارضية لن يتمتع بالكرامة السماوية .

٣٥ ــ كما ان شرارة واحدة كثيرا ما تحرق حطبا وافرا كذلك فان عملا صالحا واحدا قد يمحو هفوات كثيرة وعظيمة .

٣٦ ــ كما يتعذر قتل وحش بدون سلاح كذلك يمتنع التغلب على الغضب بدون اتضاع .

---

(١) بالنسبة لحجمها الكامل .

http://coptic-treasures.com

٣٧ ــ كما اننا لا نستطيع ان نعيش بدون طعام كذلك لا مجال لنا ان نتوانى ولو يسيرا ، حتى الممات ، اذا اردنا الخلاص .

٣٨ ــ كما ان شعاع الشمس اذا دخل بيتا من خلال ثقب يضيء كل ما فيه ويظهر حتى دقيق الغبار ، هكذا خوف الله اذا حل في قلب انسان يكشف له كل خطاياه .

٣٩ ــ كما يتيسر اصطياد السراطين لسيرها تارة الى الامام وتارة الى الوراء ، كذلك النفس التي تضحك حينا وتبكي حينا وتتنعم حينا آخر تفشل ولا تنتفع شيئا .

٤٠ ــ كما يسلب النيام بأيسر مرام كذلك يسلب الذين يسعون الى الفضيلة وهم بقرب العالم .

٤١ ــ كما ان من يقاتل اسدا يهلك لساعته اذا ازاح نظره عنه كذلك يهلك من يحارب جسده اذا اراحه .

٤٢ ــ كما ان الصاعدين على سلم منحور يتعرضون للسقوط كذلك كل تكريم وتمجيد وسلطان ينافي الاتضاع ويطرح صاحبه .

٤٣ ــ كما يتعذر الا يذكر الجائع الخبز كذلك يتعذر الا يذكر الموت والدينونة من يسعى حثيثا الى الخلاص .

٤٤ ــ كما يمحو الماء الكتابة كذلك تمحو الدموع الزلات .

٤٥ ــ كما ان الذين ينقصهم الماء لمحو الكتابة يلجأون الى طرق اخرى ، كذلك اذا عجز البعض عن ذرف الدموع فانهم يمحون خطاياهم ويزيلونها بالحزن والاكتئاب الجزيل .

٤٦ ــ كما ان كمية كبيرة من السماد تولد دودا كثيرا كذلك كثرة الاطعمة تولد هفوات وافكارا رديئة واحلاما كثيرة .

٤٧ ــ كما ان الاعمى لا يبصر طريقه كذلك لا يرى الكسلان الصلاح ولا يفعله .

٤٨ ــ كما ان من كبلت رجلاه يعجز عن المشي ، كذلك يتعذر على مدخري الاموال الصعود الى السماء .

٤٩ ــ بعكس الجرح الطري الذي يسهل شفاؤه يصعب شفاء جراحات النفس المزمنة (هذا ان تم شفاؤها) .

٥٠ ــ كما يتعذر على الميت ان يمشي كذلك يتعذر على الواقع في اليأس ان يخلص .

٥١ ــ من يعتنق الايمان القويم ويستمر في ارتكاب الخطايا يشبه وجها لا عينين له . ومن لا ايمان له وان عمل بعض الصلاح يشبه من يستقي ماء ويصبه في خابية مثقوبة .

٥٢ ــ كما ان سفينة يقودها ربان ماهر تدخل سالمة الى الميناء بمعونة الله ، كذلك النفس التي يرعاها راع صالح ترتقي بسهولة الى السماء ، وان كانت قد اقترفت سيئات كثيرة .

٥٣ ــ كما يضل الطريق سريعا من لا دليل له مهما كان فطنا كذلك يهلك سريعا من يسير في الطريق الرهباني وهو يتولى امره بنفسه وان كان متفقها بكل حكمة العالم .

٥٤ ــ من كان ضعيف الجسد عاجزا عن احتمال اتعاب النسك ، وقد اجرم بارتكابه خطايا ثقيلة ، فليسلك سبيل الاتضاع بمتطلباته فانه لن يجد طريقا آخر للخلاص .

٥٥ ــ كما ان الصحة لا تستعاد سريعا بعد مرض طويل كذلك لا تقهر الاهواء للحال .

http://coptic-treasures.com

٥٦ ــ افطن لمدى توفر كل هوى وكل فضيلة فيك فتعرف مدى تقدمك .
٥٧ ــ كما يخسر الذين يستبدلون الذهب بالطين كذلك يخسر الذين يتشدقون بالروحيات طمعا بمكاسب جسدية .
٥٨ ــ لقد نال كثيرون صفحا سريعا عن خطاياهم واما اللاهوى فلم يبلغه احد عاجلا لانه يحتاج الى زمان طويل والى شوق والى الله .
٥٩ ــ لنترقب البهائم او الطيور التي تصلي لنا لتؤذينا في اوان الزرع والنمو والحصاد لكيما ننصب لها الشراك الملائمة .
٦٠ ــ كما لا يحق لمن تعتريه الحمى ان ينتحر كذلك لا يصح ان ييأس احد من ذاته الى الرمق الاخير .
٦١ ــ كما لا يليق بمن دفن اباه ان يمضي الى عرس توا بعد الدفن ، كذلك لا يناسب النائحين على زلاتهم ان يطلبوا من الناس اكراما او ترفيها او تشريفا في هذا الدهر .
٦٢ ــ كما تختلف مساكن المواطنين عن مساكن السجناء المجرمين كذلك ينبغي ان تختلف عيشة التائبين الباكين على آثامهم اختلافا كليا عن عيشة الذين لم يأثموا .
٦٣ ــ كما ان الملك لا يأمر بعزل الجندي الذي يتلقى الضربات على وجهه في الحرب بل يوعز بترقيته ، كذلك الملك السماوي يكلل الراهب الذي يصبر على تجارب الشياطين وضرباتهم الكثيرة .
٦٤ ــ الحس من خصائص النفس ، والخطيئة تعنفه ، وانتظام هذا التعنيف يؤول الى تلاشي الاثم او نقصانه ، اما ذلك الانتظام فوليد الضمير ، وتوبيخ الضمير هو صوت الملاك الحارس الذي اعطيناه يوم المعمودية . لذلك نجد ان تقريع غير المعمدين لانفسهم هو على شيء كثير من الابهام والغموض .
٦٥ ــ تناقص الاثم يؤول الى الكف عنه ، والكف عنه بدء التوبة ، وبدء التوبة هو بدء الخلاص ، وبدء الخلاص عزم صالح ، والعزم الصالح يولد ممارسة الاتعاب ، وممارسة الاتعاب تاتي بنا الى بداية الفضائل ، وبداية الفضائل تزهر وتفضي الى بدء العمل بها ، وثمر العمل بها المثابرة عليها ، ونتيجة المثابرة عليها اعتيادها ، واعتيادها يلد الخلق الصالح ، والخلق الصالح يلد خوف الله ، وخوف الله يلد حفظ الوصايا السماوية والارضية على السواء ، وحفظ الوصايا دلالة على المحبة ، وبدء المحبة كثرة التواضع ، والتواضع الكثير ابن اللاهوى ، واللاهوى كمال المحبة ، اعني سكنى الله الكاملة في انقياء القلوب لخلوهم من الاهواء ، لأن انقياء القلوب يعاينون الله (٢) ، له المجد الى ابد الدهور آمين .

(٢) متى ٥ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

المقالة السابعة والعشرون

في الهدوء المقدس ، الجسدي والنفسي (١)

١ ــ نحن بمنزلة عبيد مبيعين تملكنا الاهواء الشريرة ولذا نعرف الى حد ما فقط مكائد الارواح التي تسود على نفوسنا الشقية واساليبها وايحاءاتها وخدعاتها ، ولكن آخرين غيرنا ممن اعتقوا منها بفعل الروح القدس يدركون حيلها جليا بنوره المقدس ويكشفونها . ذلك لأن تصورنا لفرج العافية حين نعاني اوجاع المرض يقل وضوحا عن تصورنا لرهبة المرض واحساسنا بها حينما نتمتع بالعافية . فنحن اذا حيث اننا مرضى نخشى ان نتفلسف الآن في وصف ميناء الهدوء لا سيما واننا نعلم ان هناك كلبا يقف كل حين لدى موائد الرهبان محاولا التقاط كسرة خبز ، اعني نفس احدهم ، ليجري بها الى العزلة فيأكلها باطمئنان . لذا ولئلا نفسح بكلامنا مجالا لهذا الكلب ولا نعطي حجة للتمسيها لا نستنسب التحدث عن الهدوء الى جنود الرب الذين يحاربون الآن ببسالة في جماعة الاخوة ، ونكتفي بالقول بأن هالة من الهدوء والسكون تنسج حول الذين يجاهدون منهم بشهامة . ولكن ان شئتم فلنقل كلمة سريعة في صدد الهدوء وذلك في سياق بحثنا وعلى سبيل الاستدراك والتمييز حتى لا نحزن البعض ان اهملنا ذكره .

٢ ــ ان هدوء الجسد هو الاحاطة بطباعه واحاسيسه وكبحها . اما هدوء النفس فهو الاحاطة بأفكارها ، وهو ذهن حصين لا يسلب .

٣ ــ صديق الهدوء عقل شجاع صارم ساهر عند باب القلب يبيد الافكار الواردة اليه او يبعدها . من كان هادئا في أعماق قلبه يفهم ما نقول . اما من كان بعد طفلا فانه لم يذقه ولم يعهده .

٤ ــ لن تعوز الهادىء (٢) الفطن اقوال ينطق بها لانه يضيء بأعماله .

٥ ــ اول الهدوء ابعاد الضوضاء لأنها تعكر قعر النفس . اما كماله فعدم

---

(١) ويقصد به التوحد والعزلة في الصمت والسلام الداخلي والصلاة (صلاة القلب بالدعاء لاسم يسوع) .

(٢) الذي يعيش في عزلة الهدوء .

http://coptic-treasures.com

خشية الضوضاء بل عدم التأثر بها او الالتفات اليها . ومن يسع في اثر الهدوء بانتظام يزدد لطفا كلما تقدم فيه ويمس (بكسر السين) بيتا للمحبه بجملته لا يتحرك الى التحلم الا بصعوبة ولا يتحرك الى الغضب على الاجمال . وعكس ذلك بين بني .

٦ ــ الهادىء هو من يبذل جهده ليحصر عقله في حدود جسده ، على ما في ذلك من غرابة .

٧ ــ كما يرصد الهر الفارة ليصطادها كذلك يرصد عقل الهادىء الفارة العقلية. لا يكن هذا المقال عندك مرفوضا والا فما عرفت الهدوء بعد .

٨ ــ الراهب الذي يعيش برفقة آخرين غير الراهب المتوحد المنفرد . فالراهب المنفرد تعوزه يقظة جزيلة وعقل لا يدور . وكثيرا ما يعين الاول رفيقه ، اما الثاني فالملاك وحده معينه .

٩ ــ ان القوات العقلية تشارك الهادىء الحقيقي صلاته وعبادته وترتاح الى السكنى معه ، اما من كان عكس ذلك فأسكت عنه .

١٠ ــ ان قعر العقائد عميق ، وعقل الهادىء يجول فيها دون خطر .

١١ ــ كما ان السباحة بالثياب غير آمنة كذلك تعاطي اللاهوت من قبل ذوي الاهواء لا يخلو من خطر .

١٢ ــ ان قلاية الهادىء سور لجسده تحوي داخلها بيتا للمعرفة .

١٣ ــ من يقدم على سيرة الهدوء وهو مستعبد لأحد الاهواء يشبه من يثب من السفينة الى اليم متوهما انه يصل الى اليابسة على خشبة بسرعة وامان .

١٤ ــ ان الهدوء في اوانه يوافق من يقاتلون حمأة الجسد ، اللهم ان كان لهم مرشد ، لان الهادىء المتوحد يحتاج الى قوة ملائكية . واني لاتكلم عن الهادئين بالحقيقة جسدا وروحا .

١٥ ــ متى توانى الهادىء مال الى الكذب وحمل الناس بأحاجيه على قطع هدوئه . واذا ترك قلايته تعلل بالشياطين وقد تناسى انه صار شيطانا لنفسه .

١٦ ــ رايت هادئين قد اروا غليل شهوتهم وشوقهم اللاهب الى الله دونما ارتواء فاضرموا نارا على نار وعشقا على عشق وشوقا على شوق .

١٧ ــ الهادىء ملاك ارضي قد اعتق صلاته من الفتور والتواني بثبات شوقه وغيرته . الهادىء هو من صاح حقا : « مستعد قلبي يا الله » (٣) . هادىء ذاك الذي قال : « انا نائم ولكن قلبي مستيقظ » (٤) .

١٨ ــ اغلق باب قلايتك على جسدك وباب لسانك على كلامك وباب قلبك دون الارواح الشريرة .

١٩ ــ سكون البحر وحر الظهيرة افرغا صبر البحار ، وعوز الهادىء امتحن ثباته . الاول اذا اغتم سبح والثاني اذا ضجر اختلط بالآخرين .

٢٠ ــ لا تخف ان يلهيك الضجيج عن الله فان التوبة المتألمة لا تجبن له ولا ترتاع .

٢١ ــ ان الذي تعلم عقله ان يصلي حقيقة يخاطب الرب وجها لوجه كمن يخاطب الملك همسا في اذنه ، والذي يصلي بفمه يجثو امامه كمن يجثو للملك بحضرة مجلسه ، والمقيم في العالم يتوسل الى الملك في وسط جلبة سائر الشعب . ان كنت عالما بحرفة الصلاة فلن يخفى عنك ما قلناه .

---

(٣) مز ٥٦ : ٨ .

(٤) نشيد الانشاد ٥ : ٢ .

http://coptic-treasures.com

٢٢ ــ اجلس في مكان عال وارصد نفسك ان كان لك في الرصد دراية ، فتبصر حينذاك اي لصوص يأتونك ليدخلوا ويسرقوا عناقيدك وكيف ومتى ومن اين يأتون وما عددهم .

٢٣ ــ اذا مل الرقيب (٥) فلينهض ويصل ثم ليجلس من جديد ويتابع عمله الاول بشجاعة .

٢٤ ــ لقد اراد احدهم ممن خبروا هذه الامور ان يخبر عنها بدقة وتفصيل ، الا انه خشي ان يثبط عزيمة الجادين في هذا السبيل او يفزع وينفر بجلبة اقواله العازمين على سلوكه .

٢٥ ــ من يعمد الى شرح حالة الهدوء بدقة ومعرفة يثير عليه الشياطين اذ لا يستطيع سواه ان يفضح قبائحهم .

٢٦ ــ من بلغ الهدوء الكامل ادرك عمق الاسرار الالهية ، الا انه ما كان قد ادركه لو لم يكن قد ابصر وسمع اصوات الامواج والارياح اولا وربما تبلل من جرائها. ويؤيد الرسول العظيم ما قلناه ، لانه لو لم يخطف (من اضطراب العالم) الى الفردوس كانه الى الهدوء لما امكنه ان يسمع كلمات لا ينطق بها (٦) . ان اذن الهادىء تسمع من الله العجب ولذا قال ايوب الحكيم في سفره : « اية عجائب لم تسمعها منه اذني ؟ » (٧) .

٢٧ ــ الهادىء هو من يهرب من كل الناس دون ان يمقت الناس . وذلك بالهمة نفسها التي يسعى بها اليهم غيره بدافع التواني . انه لا يشاء ان تنقطع عنه حلاوة الله ولو قليلا .

٢٨ ــ اذهب ووزع مالك سريعا (لان بيعه يحتاج الى وقت) ، واعطه للرهبان المساكين (٨) ، لكي يرافقوك بصلاتهم في ابتغائك حياة العزلة ، وارفع صليبك حاملا اياه بممارسة الطاعة وبالصبر الكثير على ثقل قطع المشيئة ، وهلم بعد ذلك اتبعني (٩) الى الاقتران بالهدوء الجزيل الغبطة فأعرفك العمل الذي يتعاطاه الملائكة وسيرتهم الظاهرة . فان اولئك العقليين لا يشبعون الى ابد الابدين من تسبيح الخالق ، وكذلك الذين دخلوا سماء الهدوء لا يكفون عن تسبيحه . اولئك اللا ماديون لا يهتمون بالمادة وكذلك هؤلاء اللا ماديون الكائنون في جسد مادي لا يهتمون بطعام . وكما لا يحس اولئك بحاجة الى غذاء هكذا لا يحتاج هؤلاء الى الانهماك في استحضار الغذاء . اولئك لا يعنون بالاموال والاملاك وهؤلاء لا يبالون بتشويش الارواح الشريرة . اولئك الذين هم من فوق لا يشتهون المخلوقات وهؤلاء الذين هم على الارض لا ينظرون الى الحسيات . اولئك لن يكفوا يوما عن التقدم في الحب وهؤلاء لا يكفون كل يوم عن التشبه بهم . اولئك لا يجهلون مدى وفور تقدمهم وهؤلاء يعرفون توقهم الى الارتقاء . فانهم لن يقفوا الى ان يبلغوا حال السيرافيم ، ولن يكلوا حتى يصيروا ملائكة . فمن يرجو ذلك هو سعيد ، والمزمع ان يبلغه مثلث السعادة . اما من وصل فذاك ملاك .

---

(٥) رقيب نفسه .

(٦) ٢ كو ١٢ : ٤ .

(٧) ايوب ٤ : ١٢ (الترجمة السبعينية) .

(٨) متى ١٩ : ٢١ اي للعائشين الحياة المشتركة في الدير .

(٩) متى ١٦ : ٢٤ .

http://coptic-treasures.com

فصل خاص في وصف مختلف حالات الهدوء والتمييز بينها

٢٩ ــ لا يخفى على احد وجود فوارق في الآراء والمناهج في سائر العلـــوم . اذ ليست كل الانجازات لجميع الناس ، وذلك اما لقلة اجتهادهم او لعجزهم . وبالتالي فالقادمون الى ميناء الهدوء هذا ، بل الى هذه اللجة وربما الى هـــذا القعـــر ، هم قادمون اما لتلافي ثرثرتهم او لتجاوز شهوانيتهم ، وغيرهم لانهـــم سريعـــو الغضب ولا يستطيعون ان يضبطوه وهم مقيمون بين الناس ، وآخرون لانهـــم ، من تلقاء الغرور ، يؤثرون الاستقلال في السيرة على الخضوع للارشـــاد ، وغيرهـــم لانهم لا يستطيعون الانقطاع عن الماديات وهم في وسطها والبعض ليصيروا بانفرادهم عن الناس مجدين في سعي الفضيلة ، وغيرهم ليعذبوا انفسهم تكفيرا عن زلاتهم خفية عن الناس ، وآخرون ليحصلوا بسبب الانفراد على تشريف لانفسهم . ويوجد غيرهم يقترنون بالهدوء تمتعا بحب الله وحلاوته (ان كان ابن الانسان سيجد مثل هـــؤلاء على الارض عند مجيئه) ، ولكنهم لن يحققوا امنيتهم ما لم يعطوا الضجـــر بانواعه كتاب طلاق ما دام وصالهم به يحسب زنى .

٣٠ ــ هذا وقد نجرت حسب معرفتي القليلة وليس كمهندس حكيم ، سلمـــا للصعود ، فلينظر كل واحد في اية درجة منها هو : افي درجة الاستقـــلال في السيرة ام طلب التشريف لم تدارك فرط اللسان ام تـــلافي الغضب ام الهـــرب من التعلق بالناس ام وفاء دين الزلات ام ابتغاء الجد والغيره ام استمداد المزيد من نار المحبة الالهية ؟ ان الآخرين اولون والاولين آخرون . اما الدرجات السبع الاولى فهي اعمال اسبوع هذا الدهر ، بعضها مقبول وبعضها مرفوض . واما الدرجـــة الثامنة فمن الواضح انها علامة الدهر الآتي .

٣١ ــ ايها الراهب المنفرد ارصد الاوقات التي تحوم فيها الوحوش حولك والا فلن تستطيع ان تنصب الفخاخ الملائمة لاقتناصها . وان كان الضجر الذي طلقته قد انتزح عنك بالتمام فجهادك جزيل ، اما ان كان لا يزال ينقض عليك فلست اعـــرف كيف تقيم في الهدوء .

٣٢ ــ لماذا لم يظهر عند الرهبان الطابينسيين (١٠) الابرار آباء نيرون بمقدار ما ظهر عند الاسقيطيين (١١) ؟ من استطاع ان يفهم فليفهم ، فاني لا اقدر والاحرى اني لا اريد ان اتكلم .

٣٣ ــ ان بعض الرهبان يدأبون على التخفيف من وطأة اهوائهـــم وغـــيرهم يعكفون على الصلاة وترتيل المزامير اكثر اوقاتهم ، بينما آخرون ينكبون بشغف على التأمل العقلي ويؤخذون به . فليبحث عن جواب لسؤالي السابق على اساس ترتيب هذه السلم المتدرجة . ومن يسع الى ذلك فليسع بتوفيق الرب .

٣٤ ــ قد تؤم الاديار ذات المعيشة المشتركة نفوس متوانية اذا توافرت لها فيها اسباب التواني تنتهي الى هلاك تام . ولكن نفوسا اخرى تطـــرح عنها توانيها اذا ما اقامت مع آخرين . وكثيرا ما يعرض ذلك لا للنفوس المتهاونة فقط بل للنفوس الغيورة ايضا .

٣٥ ــ وينطبق هذا القول ايضا على حياة العزلة لان الهدوء قـــد استلم كثيرين فاضلين فخذلهم لاتباعهم مشيئاتهم واوضحهم محبين للذات ، بينما تسلم غيرهم فأبرزهم مجتهدين حارين من جراء خوفهم من العقاب واهتمامهم به .

---

(١٠) هم الرهبان الذين اسسهم القديس باخوميوس في طابينسي في مصر وهم يعيشون حياة مشتركة .

(١١) هم العائشون في الاسقيط في صعيد مصر وهم متوحدون .

http://coptic-treasures.com

٣٦ ــ لا يجترئن احد ينكده غضب ، او غرور ، او رياء ، او حقد ، على اقتفاء سيرة الهدوء لئلا يجني منه ضلالا عقليا لا غير . وان كان احد نقيا من تلك الاهواء فسوف يعرف ما يوافقه . واخشى ان لا يعرف هو ايضا ما يلائمه (١٢) .

٣٧ ــ اليكم سمات الجادين بصورة سليمة في جهاد الهدوء ، وممارساتهم : عقل متيقظ وفكر نقي وانخطاف في الرب وذكر دائم للعقاب واشتهاء للموت وعدم الشبع من الصلاة واحتراس لا يسلب واضمحلال الزنى وعدم التعلق بشيء وموت عن العالم واقصاء الشراهة ومعرفة التكلم في اللاهوت وينبوع من التمييز وتحالف مع الدموع وتلاشي الثرثرة ، وسائر المناقب المماثلة التي يخالفها كليا عامة الناس .

٣٨ ــ اما سمات الذين يمارسون الهدوء بدون معرفة فهي : فقرهم الروحي وازدياد غيظهم وادخارهم للحقد ونقصان المحبة عندهم وتمادي غرورهم . وما يتبع ذلك اسكت عنه (١٣) .

٣٩ ــ ولكن لما كان كلامنا قد اتخذ هذا السياق فيلزمنا اضطرارا التحدث الآن في هذا الشأن عمن يسلكون في الطاعة ايضا لا سيما وان كلامنا في هذا الكتاب موجه اليهم في الاساس .

٤٠ ــ فاليكم اذا دلائل المقترنين بالطاعة الرصينة والبهية الحسن اقترانا شرعيا ونقيا طاهرا ، وهي الدلائل عينها التي حددها آباؤنا المتوشحون بالله والتي لا تكتمل الا في حينها ، مع اننا نزداد فيها كل يوم نجاحا وتقدما : النمو التدريجي في التواضع ، تناقص الغضب (كيف لا يتناقص وقد افرغت المرارة) ، تلاشي الارتياب، تكاثر المحبة ، الاعراض عن الاهواء ، التحرر من المقت ، تناقص الفسق بسبب اقتبال التوبيخات ، عدم معرفة الضجر ، تزايد الجد ، العطف والود ، اقصاء الكبرياء . ولكن هذا يبتغيه الجميع ويحققه قليلون : اذا لم يكن في النبع ماء فاسمه لا يصلح له ، والمغزى مفهوم عند ذوي الفهم .

٤١ ــ ان المراة التي لا تحفظ مضجعها تدنس جسدها ، والنفس التي لا تحفظ عهدها تدنس روحها ، تلك يلحقها ذم ومقت وضرب وطلاق (وهو ادعى للشفقة من كل شيء) ، وهذه يلحقها تدنيس ونسيان لذكر الموت ونهم لا يشبع وفقدان لضبط النظر وسعي للغرور وعدم الشبع من النوم وقساوة القلب وعدم الاكتراث وتكاثر الافكار الرديئة مع الانسياق لها واسر القلب واضطراب الاعمال وعدم الاذعان والمحاججة وعدم الايمان وعدم الايقان بالخلاص والثرثرة والتعلق بالمقتنيات والدالة التي هي اثقلها كلها . اما ما يستدعي الشفقة اكثر من الكل فهو قلب غير تائب ينجم عنه عند المتوانين عدم الاحساس الذي هو ام الارواح الشريرة والسقطات .

٤٢ ــ ان خمسة (١٤) من الافكار الثمانية تحارب الهادئين (١٥) ، والثلاثة الباقية (١٦) تقاتل المطيعين (١٧) .

٤٣ ــ من ينصرف في هدوئه الى محاربة الضجر كثيرا ما يتأذى ، اذ يضيع وقت

---

(١٢) ما لم يرجع الى راي غيره .

(١٣) اي سقوط الجسد وضلال العقل .

(١٤) الكبرياء والعجب والكسل والضجر ومحبة المال .

(١٥) اي المتوحدين .

(١٦) الشراهة والغضب والزنى .

(١٧) في الدير ذي المعيشة المشتركة .

http://coptic-treasures.com

الصلاة والثيوريا (١٨) في مقاتلته والاحتيال عليه .

٤٤ ــ استولى علي التواني مرة وانا جالس في قلايتي فهممت بتركها فزارني اناس وطفقوا يطوبونني كثيرا على اقامتي في الهدوء فطرد الغرور حالا فخر التواني . فعجبت كيف ان هذا الشيطان المثلث الحسكات يناهض الارواح كلها .

٤٥ ــ ارصد في كل حين حملات قرينك عليك (١٩) وتراجعاته عنك وكافة انعطافاته وتقلباته وكيف واين تتجه . فمن اقتنى هدوءا بالروح القدس لا يخفى عليه ما نقول .

٤٦ ــ ان عمل الهدوء الاول هو عدم الاهتمام بكافة الامور ، الصالحة منها وغير الصالحة ، لأن من يفسح مجالا للأولى سوف يسقط لا محالة في الثانية . وعمل الهدوء الثاني صلاة لا تفتر . اما عمله الثالث فيقظة قلب منيعة لا تسلب . من لم يتعلم القراءة يعجز بالطبع عن مطالعة الكتب ومن لم يمارس العمل الاول يعجز بالاكثر عن ممارسة العملين الآخرين كما يجب .

٤٧ ــ لما كنت اواظب على العمل الاوسط (٢٠) وجدت يوما بين الوسطانيين (٢١) فصار احدهم ينيرني ويروي عطشي الى المعرفة . وعندما وجدت مرة اخرى بينهم سألته عن هيئة الرب قبل اتخاذه الصورة البشرية المنظورة فلم يستطع اجابتي اذ لم يسمح له بذلك ، فسألته ان يقول لي كيف هو الآن فقال هو في الحالة الخاصة به وليس في حالتنا هذه . فاستخبرته ما هو وقوفه وجلوسه عن يمين الآب فأجابني : يتعذر على الاذن البشرية ادراك هذه الاسرار ، فناشدته ان يأخذني دون ابطاء الى من يشدني الحنين اليه فقال : لم يحن الوقت بعد لأن نار عدم الفساد لا تضطرم كفاية فيك . هذا ولست اعلم هل عاينت هذه الرؤيا في الجسد ام خارج الجسد (٢٢) . ولا استطيع الفصل في ذلك البتة .

٤٨ ــ من الصعب ان ننفض عنا نعاس الظهيرة لاسيما في اوقات القيظ ، ولعل العمل اليدوي حينئذ وحينئذ فقط ليس مرفوضا .

٤٩ ــ خبرت ان روح الضجر يسبق ويمهد السبيل لروح الزنى حتى اذا اعيا الجسد اعياء شديدا واغاصه في النوم قام روح الزنى بتدنيس الهادئين في النوم كأنهم في اليقظة . وان انت قاومتهما بشدة عمدا الى مقاتلتك بعنف نيكفاك عن جهاداتك كأنها لم تجدك نفعا . وليس ما يوضح انهزام الشياطين لنا كالحرب القاسية التي يشنونها علينا .

٥٠ ــ اذا خرجت من عزلتك احفظ ما جمعت فان فتح باب القفص طارت منه العصافير ، وحينئذ لن نستفيد من هدوئنا شيئا .

٥١ ــ شعرة صغيرة تكدر العين واهتمام يسير يبدد الهدوء . لأن الهدوء انما هو اقصاء لهواجس الافكار وجحود للاهتمامات كافة وان كانت صالحة .

٥٢ ــ من بلغ حقا الى الهدوء لن يهتم حتى بجسده لأن الذي وعد (٢٣) هو غير كاذب .

---

(١٨) التأمل العقلي ومعاينة الامور الالهية .

(١٩) روح الضجر .

(٢٠) الصلاة الدائمة .

(٢١) الملائكة (ما بين الله والناس) .

(٢٢) ٢ كو ١٢ : ٢ وما يليها .

(٢٣) عب ١٠ : ٣٢ انظر متى ٦ : ٢٥ ــ ٣٤ .

http://coptic-treasures.com

٥٣ — من يبتغي ان يحضر عقله نقيا لدى الله وهو منشغل بالاهتمامات ومضطرب يشبه من يكبل رجليه بقيود وثيقة ويريد ان يمشي مشيا سريعا .

٥٤ — الضليعون بالفلسفة العالمية قليلون ولكني اؤكد ان العالمين حقا بفلسفة الهدوء الالهي هم اقل منهم .

٥٥ — من لم يعرف الله بعد لا يؤهل للهدوء بل يعرض نفسه فيه لأخطار كثيرة . ان الهدوء يدمر غير المختبرين لانهم لم يذوقوا حلاوة الله ، فيضيعون وقتهم في السهو واللهو .

٥٦ — من خبر حسنات الصلاة يهرب من الجموع هرب الحمار البري من الناس ، اذ ما الذي سوى الصلاة يجعله كالحمار البري حرا من مخالطة الناس ؟

٥٧ — من كان مستعبدا للأهواء واقام في القفر يلهج باهوائه . هذا ما اخبرني به وعلمني اياه شيخ قديس هو جرجي الارسيلايتي الذي تجهله ابوتك (٢٤) ، فقد ادبني مرة وارشد نفسي الباطلة الى الهدوء فقال : انني ترقبت فلاحظت قدوم شيطاني الغرور والزنى عادة في الصباح ، وارواح الضجر والحزن والغضب عند الظهيرة ، والشياطين الانجاس اسياد البطن عند المساء .

٥٨ — مطيع بسيط في الدير افضل من معتزل شارد لاه في البرية .

٥٩ — من احترف سيرة الهدوء السليمة ولا يلاحظ ربحه كل يوم فاما ان يكون لا يمارس الهدوء بصورة سليمة او ان يكون مسلوبا من غروره .

٦٠ — الهدوء هو عبادة الله والوقوف بين يديه تعالى دون انقطاع .

٦١ — ليلتصق ذكر يسوع بنفسك (بفتح الفاء) (٢٥) فتعرف حينذاك منفعة الهدوء .

٦٢ — سقطة المطيع في الدير مشيئته الذاتية ، وسقطة المعتزل الهادىء انقطاعه عن صلاته .

٦٣ — ان كنت تفرح بحضور الضيوف اليك فاعرف انك قد تفرغت للضجر لا لله .

٦٤ — ليكن الحاح الارملة التي ظلمها خصمها (٢٦) مثالا لصلاتك ، وليصر ارسانيوس الكبير ، الهادىء الملائكي ، رسما لهدوئك . فاذكر في عزلتك سيرة هذا المتوحد العظيم وانظر كيف كان ، مرات كثيرة ، يرد الآتين اليه لئلا يخسر ما هو اعظم (٢٧) .

٦٥ — لقد لاحظت ان الشياطين يحثون الرهبان الدوارين الجهلة على زيارة الهادئين الحقيقيين بتواتر بغية تعويقهم عن جهادهم ولو قليلا . فيا هذا لاحظ مثل هؤلاء ولا تمتنع عن كسفهم بخوف الله لعلهم بذلك يكفون عن دورانهم وتوانيهم ، لكن انظر الا تندفع بحسن نيتك فتحزن نفسا ربما جاءتك عطشى لتنهل منك ماء ، فانك تحتاج في كل شيء الى نور التمييز .

٦٦ — ليسلك الهادئون ولا سيما المنفردون منهم بوعي واحساس فان من يسعى وفق الاصول يتمم اعماله واقواله وافكاره وخطواته ومقاصده وحركاته كلها بحرارة في حضرة الرب ولوجهه تعالى . وان كان لا يزال يسهو عن ذلك فهو لا يتصرف بعد حسب اصول الفضيلة .

---

(٢٤) اي يوحنا رئيس دير رايثو في فلسطين ، الذي كتبت السلم بناء على طلبه .

(٢٥) هذه اشارة الى صلاة يسوع كما نصليها الآن : « ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني انا الخاطىء ».

(٢٦) لو ١٨ : ١ — ٨ .

(٢٧) اي النصيب الصالح الذي اختارته مريم اخت لعازر (لو ١٠ : ٤٢) .

http://coptic-treasures.com

٦٧ ــ قال قائل سأكشف على القيثار قضيتي ومرادي (٢٨) لأن تمييزي لا يزال ناقصا ، اما انا فسأقرب الى الله في الصلاة مشيئتي فأنال منه يقيني .

٦٨ ــ الايمان جناح الصلاة لأن صلاتي بدونه ترجع الى حضني (٢٩) . الايمان ثبات النفس ويقينها فلا تضطرب لأية محنة . ليس المؤمن من يعتقد بان الله قادر على كل شيء بل من يؤمن انه سوف ينال منه اي شيء يطلبه . الايمان يأتينا بما لا نأمل وقد أوضح لنا هذا اللص الشكور (٣٠) . أم الايمان الشدة والقلب المستقيم ، فالقلب المستقيم يؤسسه والشدة تبنيه . والايمان بدوره ام الهادئين اذ كيف يهدأ من لا يؤمن ؟

٦٩ ــ المقيد في السجن يرتاع خوفا من القاضي ، والمعتزل في قلايته يتولد فيه خوف الرب . ولا يخيف الاول مجلس القضاء مثلما يخيف الثاني كرسي الديان . انت تحتاج ايها العجيب الى خوف كثير في هدوئك اذ لا شيء يطرد الضجر مثله . المجرم المحكوم عليه بالاعدام يترقب كل حين مجيء منفذي الحكم عليه ، اما المجاهد الحقيقي فيتطلع الى اليوم الذي يأتيه فيه رسول الموت ليخرجه من جسده . ذاك مثقل بوثاق حزنه وهذا ماسور بنبع دموعه .

٧٠ ــ ان اقتنيت عكاز الصبر كفت الكلاب سريعا عن وقاحتها لديك . فالصبر جهاد للنفس ثابت لا ينثلم ولا تزعزعه اية صدمة ، متوقعة كانت ام غير متوقعة . الصبر يحد من الضيق بارتضائه اياه يوما فيوما . الصبور مجاهد لا يسقط بل من خلال السقطات يصنع لنفسه الظفر . الصبر قطع للتعلل بعلل التواني ولمراعاة الذات . لا يحتاج المجاهد الى طعام مثل احتياجه الى الصبر ، لأنه بحرمانه من الاول ينال اكليلا اما بحرمانه من الثاني فيهلك . الصبور انسان مات قبل دفنه وجعل قلايته قبرا له . الرجاء والنوح يولدان الصبر والخالي من كليهما عبد للضجر .

٧١ ــ على مجاهد المسيح ان يعرف اي اعداء ينبغي ان يطرد عن بعد وايهم ينبغي ان يصارع عن قرب . فالصراع احيانا يستحق الاكاليل واحيانا اخرى يستوجب الشجب ، وكذلك الاحجام عن الصراع . ولكن تمييز هذا الامر لا يكتسب بالتعليم النظري اذ ليس جميع الناس ذوي طباع واحدة واستعداد واحد .

٧٢ ــ احترس بصورة خاصة من أحد الارواح (٣١) بتيقظ بليغ فانه يقاتلك قتالا لا هوادة فيه ، في وقوفك وانتقالك ، وقعودك وتحركك ، واضطجاعك وقيامك ، وصلاتك ونومك .

٧٣ ــ ليست ارغفة القمح السماوي كلها ذات شكل واحد في الطعام الروحي ، فبعض الذين سلكوا في الهدوء اتخذوا لأنفسهم عملا داخليا متواصلا هو الهذيذ بالقول التالي : « جعلت الرب امامي في كل حين » (٣٢) ، وغيرهم اتخذوا الآية التالية : « بصبركم تقتنون انفسكم » (٣٣) ، وآخرون : « اسهروا وصلوا » (٣٤) ، وغير هؤلاء « هيء اعمالك لخروجك من الدنيا » (٣٥) ، وآخرون : « اتضعت فخلصني

---

(٢٨) مز ٤٨ : ٤ .
(٢٩) مز ٣٤ : ١٣ .
(٣٠) انظر لو ٢٣ : ٤٢ ــ ٤٣ .
(٣١) هو المتاني للعفة او للتواضع .
(٣٢) مز ١٥ : ٨ .
(٣٣) لو ٢١ : ١٩ .
(٣٤) متى ٢٦ : ٤١ .
(٣٥) امثال ٢٤ : ٢٧ .

http://coptic-treasures.com

الرب » (٣٦) ، والبعض : « ان آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد الآتي » (٣٧) ، والبعض الآخر يتأملون دائما قوله : « احذروا لئلا يغترسكم وليس من منقذ » (٣٨) . فكلهم يسمعون ولكن واحدا ينال الجائزة سالما (٣٩) .

٧٤ — من تقدم في سيرة الهدوء يجاهد ليس في اليقظة وحسب بل وهو نائم ايضا . من هنا ان البعض يقومون حتى اثناء النوم بشتم الشياطين القادمين عليهم ويعظون عن العفة نسوة سائبات . ولكن لا تنتظر انت مثل هذه العوارض ولا تستعد لها فان سيرة الهدوء بسيطة خالية من التعقيد .

٧٥ — لا يتسرعن احد في ابتناء تلاية هدوء (هي بمثابة برج) ما لم يجلس اولا ويحسب ويتلمس بالصلاة ان كان عنده ما يلزم لاكمال البناء ، لئلا يضع الاساس ثم يصير هزءا لاعدائه وتعويقا لمجاهدين آخرين (٤٠) .

٧٦ — تصفح الحلاوة الواردة اليك لئلا يكون قد ركبها لك بمكر اطباء ظالمون بل غدارون .

٧٧ — اعط اكثر ليلك للصلاة واقله للترنيم وتهيأ له في نهارك قدر طاقتك .

٧٨ — من شأن المطالعة (٤١) ان تضيء العقل بمقدار ليس بقليل ، لان تلك الاقوال هي للروح القدس وهي تقوم الذين يواظبون عليها . اذا كنت مجاهدا فليكن لك ما تقرأه سبيلا الى العمل به (٤٢) ، لانك اذا عملت به تصبح قراءة ما عداه فضلة زائدة . اطلب بالحري ان تستضيء باقوال الخلاص عن طريق الاتعاب لا عن طريق المطالعة . وقبل ان تحصل على قوة روحانية لا تطالع الاقوال الغامضة الغريبة لانها اقوال ظلمة تظلم الضعفاء .

٧٩ — كما ان قدحا واحدا من الخمر يكفي ليدل على طعمها كذلك كلمة واحدة يتفوه بها الهادىء توضح كل عمله الباطن وسيرته للقادرين على التذوق .

٨٠ — اقتن مقابل الغرور عين نفس ساهرة فليس بين السراق اخبث واخطر .

٨١ — احفظ لسانك عند خروجك من تلايتك فقد يبدد سريعا اتعابا كثيرة .

٨٢ — اطرح عنك الفضول والتكلف فان البحث عما لا ينفع يدنس الهدوء تدنيسا لا يقدر عليه غيره .

٨٣ — قدم لمن يزورونك ما يحتاجون اليه ، جسديا وروحيا . وان كان القادمون الينا احكم منا فلنظهر حكمتنا بصمتنا . اما ان كانوا اخوة معادلين لنا في السيرة فلنفتح باب الكلام باعتدال . الا ان الافضل على كل حال ان نحتسب الجميع خيرا منا .

٨٤ — اردت ان امنع الذين هم اطفال بعد في السيرة الرهبانية عن اي عمل جسدي اثناء اجتماع الرهبان للصلوات ، فثناني عن ذلك حامل الرمل في الزنبيل طول الليل (٤٣) .

---

(٣٦) مز ١١٤ : ٥ .

(٣٧) رو ٨ : ١٨ .

(٣٨) مز ٤٩ : ٢٢ .

(٣٩) اكو ٩ : ٢٤ .

(٤٠) لو ١٤ : ٢٨ — ٣٠ .

(٤١) مطالعة الكتاب المقدس .

(٤٢) يع ١ : ٢٢ .

(٤٣) هو الانبا باخوميوس وقد فعل ذلك لمقاومة النوم .

http://coptic-treasures.com

٨٥ ــ كما ان عقيدة الثالوث القدوس له المجد تضاد في المعنى عقيدة التجسد (لأن الاقانيم في الثالوث ثلاثة بينما الاقنوم في المسيح واحد ، والطبيعة في الثالــوث واحدة بينما في المسيح طبيعتان) على هذا المنوال تختلف الممارسات التي تلائم سيرة الهدوء عن التي تلائم سيرة الطاعة .

٨٦ ــ قال الرسول الالهي : « من عرف فكر الرب ؟ » (٤٤) . وانا اقول : من عرف فكر الرجل الهادىء بالجسد والروح ؟

٨٧ ــ عز الملك في غناه وكثرة رعاياه ، وعز الراهب الهادىء في غنى صلاته .

هذه درجة سابعة وعشرون من تهذب بها واحكمها فقد صار نظير ملاك .

(٤٤) رو ١١ : ٣٤ .

http://coptic-treasures.com

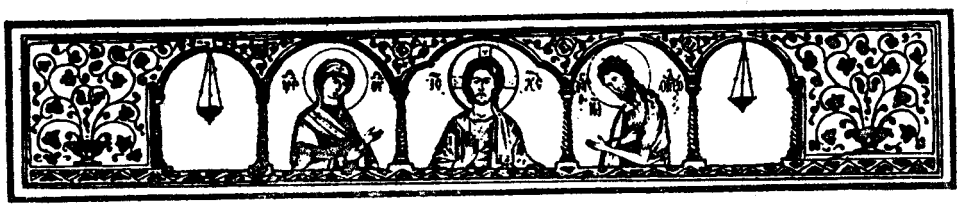

المقالة الثامنة والعشرون

في الصلاة المقدسة المغبوطة ام الفضائل وفي القيام بها بالعقل والجسد

١ ــ الصلاة في كنهها هي عشرة الانسان مع الله والاتحاد به تعالى ، اما في فعلها فهي دعم الكون ومصالحة الله ، وام الدموع وابنة لها ايضا ، وتكفير عن الخطايا ، وجسر لاجتياز التجارب ، وسور في وجه الاحزان ، وقطع دابر القتالات ، وشغل الملائكة ، وقوت جميع العادمي الاجساد ، والفرح المنتظر ، وعمل غير محدود ، وينبوع الصالحات ، ومعين (بفتح الميم) المواهب ، وتقدم غير منظور ، وغذاء النفس ، واستنارة العقل ، وفأس يقطع اليأس ، وعلامة الرجاء ، وتلاشي الغم ، وثروة الرهبان ، وكنز المتوحدين الصامتين ، وتسكين لغيظنا ، ومرآة لتقدمنا ، واظهار لقدرتنا ، وايضاح لحالنا ، واعلان المستقبل ، وسمة المجد . الصلاة هي للمصلي الحقيقي محكمة الرب ومنبره وحكمه قبل الحكم المنتظر .

٢ ــ فلنقم ونصغ الى هذه الجليلة ملكة الفضائل تصرخ بنا وتقول : « تعالوا الي يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم . احملوا نيري عليكم فتجدوا راحة لنفوسكم » ، وشفاء لجراحكم ، « لأن نيري لين » (١) وشاف لسقطات عظيمة .

٣ ــ عندما نتوجه للمثول لدى ملكنا والهنا ومخاطبته فلا نجعلن سعينا هذا بغير استعداد لئلا يبصرنا الملك من بعد غير لابسين الحلة اللائقة للوقوف امامه ، فيوعز الى اعوانه وخدامه بنفينا بعيدا عن وجهه مغلولين ويرد عرائضنا ممزقة امام وجهنا .

٤ ــ لتكن حلة نفسك عند ذهابك للمثول أمام الرب منسوجة كلها بخيوط عدم الحقد الكامل والا فلا تستفيد من صلاتك شيئا .

٥ ــ لتكن طلبتك بسيطة كل البساطة خالية من التكلف والتزويق لأن العشار والابن الشاطر قد صالحا الله بكلمة واحدة .

٦ ــ ان هيئة جميع المائلين للصلاة واحدة ولكن طلبة الواحد تختلف كثيرا عن طلبة الآخر ، فالبعض يصلون الى الباري كأنهم الى حبيب وسيد يسبحونه ويتضرعون

---

(١) متى ١١ : ٢٨ ــ ٣٠ .

http://coptic-treasures.com

اليه من اجل غيرهم لا من اجل انفسهم . وآخرون يبتغون مزيدا من الغنى الروحي والمجد والدالة لديه . وغيرهم يلتمسون النجاة من خصمهم نجاة تامة ( ) . وقسوم يسألون الحصول على نعمة ما . وآخرون يرجون تأكيدا كاملا لترك ديونهم ، والبعض اطلاقهم من حبسهم ، وآخرون الصفح عن اوزارهم .

٧ ــ ينبغي ان ندرج في عريضة توسلاتنا شكرا خالصا قبل اي شيء آخر ، ثم اعترافا بهفواتنا وتندما حارا عليها ، وبعد ذلك نعرض سؤالنا للملك . هذه هي طريقة الصلاة الفضلى على ما اوضحه ملاك الرب لاحد الاخوة .

٨ ــ ان كنت قد مثلت مرة امام قاضي ارضي فلن تحتاج الى مثال آخر لترقونك في صلاتك . اما ان كنت ما وقفت متهما امام الناس ولا شاهدت آخرين يستنطقون فتعلم حرارة الصلاة على الاقل من تضرع المرضى الى الاطباء حين يعدهم هؤلاء الى الشق او الكي .

٩ ــ لا تتانق في الفاظ صلاتك فان لغة اطفال بسيطة خالية من التنميق كثيرا ما استعطفت اباهم السماوي .

١٠ ــ لا تعمد الى الاكثار من الاقوال في الصلاة لئلا يشتت عقلك في البحث عن الفاظ التضرع . فان كلمة واحدة من العشار قد استرضت الله ، وصرخة ايمان واحدة خلصت اللص . فالثرثرة في الصلاة كثيرا ما تجنح العقل الى التخيلات وتشتته بينما الكلام المقتضب (٣) يجمعه .

١١ ــ اذا احسست بحلاوة او تخشع في لفظ من الفاظ صلاتك فاثبت فيه فان ملاكنا الحارس يصلي معنا حينذاك .

١٢ ــ لا تتقدم الى الله بدالة حتى وان كنت قد اقتنيت طهارة بل تقدم اليه بالاحرى بتواضع جزيل فتحظى بدالة اوفر .

١٣ ــ وان كنت قد صعدت سلم الفضائل كلها فصل من اجل غفران خطاياك ، اذ تسمع بولس يهتف قائلا عند ذكره للخطاة : « انا اولهم » (٤) .

١٤ ــ الاطعمة تتبل بالزيت والملح ، والصلاة تجنح (بتشديد النون وفتحها) بالعفة والدموع .

١٥ ــ اذا توشحت بتمام الوداعة وعدم الغيظ فلن تتعب كثيرا في تحرير عقلك من التشتيت .

١٦ ــ ما دمنا نجاهد لاحراز صلاة نقية والى ان نحرزها فنحن نشبه الذين يدربون الاطفال على البدء بالمشي .

١٧ ــ اجتهد لترفع فكرك الى فوق وبالاحرى لتحبسه في كلمات الصلاة . وان ضعف بسبب حداثته وترك الصلاة فاعده اليها من جديد ، اذ ان عدم الثبات هو من خصائص عقلنا ، ولكن الله قادر على تثبيت كل شيء . فاذا واصلت هذا الجهاد بلا هوادة يوافيك من يحصر بحر عقلك ويقول له : « الى هذا الحد تأتي ولا تتعدى » (٥) . الروح لا يقيد ولكن حيث خالق الروح فان كل شيء يخضع له .

١٨ ــ ان كنت قد عاينت شمس العدل يوما ، كما يترتب عليك ، فأنت تقدر ان تخاطبه كما يليق به ، والا فكيف تستطيع ان تحادث حقيقة من لم تر ؟

١٩ ــ فاتحة الصلاة ان نطرد الهواجس الخاطرة لنا باستغاثة واحدة حال

---

(٢) انظر المقالة الخامسة عدد ٢٥ .

(٣) يقصد ترداد كلمة واحدة او جملة واحدة monologia .

(٤) اتي ١ : ١٥ .

(٥) ايوب ٣٨ : ١١ .

http://coptic-treasures.com

ظهورها . ومنتصفها ان نحصر فكرنا في الفاظ الصلاة ومعانيها . اما كمالها فهو احيطف عقلنا في الرب .

٢٠ ــ ان الفرح الذي يحصل للمصلين في جماعة الرهبان غير فرح المصلين في العزلة . فالاول قد يداخله شيء من التيه ، اما الثاني فيملاه التواضع .

٢١ ــ اذا كنت تروض عقلك باستمرار على الا يشرد قط فسجده بقربك رهنا لك حتى اثناء الطعام . وان تركته يتيه بلا قيد فلن يتبت عندك يوما ، وقد قال الرسول العظيم الذي ارتقى الى الصلاه العليا الكامله : « اثناء بالحري ان اقول خمس كلمات بعقلي الخ... » (٦) ولكن مثل هذه الصلاة غريبة عن « الاطفال » بالروح . ولذلك نحن غير الكاملين نحتاج الى كثرة الفاظ الصلاة مع احتياجنا الى جودتها ، لان وفرتها تقود الى نقاوتها ، اذ قيل : « هو المعطي صلاه نقيه للمصلي » (٧) ، اي لمن كان دؤوبا على الصلاة رغم ما يخالطها من عكر وما يعاني فيها من تعب .

٢٢ ــ الصلاة العكرة غير الصلاة المتلاشية ، وغير الصلاة المسلوبة ، وتختلف عن الصلاة المستوجبة الدينونة . فالصلاة العكرة هي ان نقف امام الله ويخطر لنا فيها افكار غريبة عن الصلاة ، والصلاة المتلاشية هي ان نسبى اثناء الصلاه غارقين في اهتمامات لا جدوى منها ، والصلاة المسلوبة هي ان تشرد افكارنا في اوان الصلاة دون ان نشعر بذلك . والصلاة المستوجبة الدينونة هي ان ننقاد لاية تجربة تداهمنا وقت الصلاة ونؤخذ بها .

٢٣ ــ اذا اتفق حضور آخرين معنا وقت الصلاة فلنترسم شكل صلاتنا وارتفاعها الى الله في داخلنا دون اظهاره ، اما اذا لم يحضر احد من خدام المدح والاطراء فلنعبر عن ابتهالنا في هيئتنا الخارجية ايضا ، لأن الذهن عند غير الكاملين كثيرا ما يتمثل بالجسد .

٢٤ ــ يعوز الناس جميعا ، ولا سيما من يتوسل الى الملك لينال حل ديونه ، انسحاق لا يوصف . فما دمنا اسرى الجسد فلنصغ الى القائل لبطرس (٨) : اتزر بازار الطاعة وانزع مشيئتك وتقدم في صلاتك الى الرب عاريا ملتمسا مشيئته وحدها فتلقى الله حينذاك ضابطا دفة نفسك ومدبرا اياك بامان .

٢٥ ــ انهض من حبك للعالم ومن شغفك باللذة واطرح عنك كل اهتمام وانزع فكرك واجحد جسدك ، فليست الصلاة الا اغترابا عن العالم المنظور ، اذ « اي شيء لي في السماء ؟ » لا شيء ، « وما الذي ابتغيته في الارض ما عداك ؟ » لا شيء الا الالتصاق بك في صلاتي كل حين خلوا من التهاء . فالغنى مبتغى عند اناس والشرف عند غيرهم ، وتحقيق الانجازات عند آخرين ، « اما انا فمشتهاي الالتصاق بالله والقاء رجائي عليه » (٩) من اجل تلاشي اهوائي .

٢٦ ــ ان الايمان يعطي اجنحة للصلاة وبدونه لا تستطيع ان ترتفع الى السماء .

٢٧ ــ فلنثابر على الابتهال الى الرب نحن المستعبدين للاهواء لكي يعتقنا منها ، لأن جميع الذين بلغوا اللاهوى قد انطلقوا من اهوائهم ثم توصلوا الى الانعتاق منها .

٢٨ ــ ان القاضي وان كان لا يرهب الله (كونه الله) الا انه لأجل ان النفس

---

(٦) اكو ١٤ : ١٩ .

(٧) ملوك الاول ٢ : ٩ (بحسب نص الترجمة السبعينية) .

(٨) انظر اعمال ١٢ : ٨ .

(٩) مز ٧٢ : ٢٥ ــ ٢٨ .

http://coptic-treasures.com

التي ترملت منه بخطيئتها وسقطتها تزعجه بصلاتها سينصفها من الجسد خصمها ومن الارواح محاربيها (١٠) . فمدبرنا الصالح يجتذب النفوس الكريمة الى حبه بالاستجابة السريعة لسؤالها ويترك النفوس الضئيلة تصلي لديه طويلا جائعة عطشى الى مطلوبها ، لأن الكلب الشحيح حالما يلتقط كسرة الخبز ينصرف عمن اعطاه اياها .

٢٩ ــ لا تقل بعد مداومتك طويلا على الصلاة : « اني لم انتفع شيئا » ، لأنك قد انتفعت ، اذ اي خير يضاهي الالتصاق بالله والثبات في الاتحاد به بلا انفصال ؟

٣٠ ــ ان صدور الحكم على المجرم لا يروعه كما يروع رجل الصلاة وقوفه فيها. فان كان حكيما وفطنا امكنه ان يرد بذكرها كل اساءة وغضب واهتمام دنيوي وانشغال بال وضيق وشبع وشرود فكر وتجربة .

٣١ ــ تهيأ بصلاة داخلية دائمة للقيام بصلواتك فتتقدم سريعا . فقد رأيت اناسا تلألأوا بطاعتهم ، ولا يتوانون قدر طاقتهم عن ذكر الله في ذهنهم ، حالما يقفون في الصلاة يضبطون عقلهم سريعا في ذواتهم ويذرفون سيولا من الدموع ، لأن الطاعة المقدسة قد سبقت فأعدتهم لذلك .

٣٢ ــ التسبيح مع الجماعة عرضة لسبي الافكار وشرود الذهن ، وذلك بخلاف الصلاة على انفراد . ولكن هذه الاخيرة يقاتلها الضجر ، بينما يتعاضد الاخوة في الاولى بحرصهم المشترك .

٣٣ ــ ان الحرب تظهر مدى حب الجندي لملكه ، اما الوقوف في الصلاة في اوقاتها فيظهر حب الراهب لالهه .

٣٤ ــ ان صلاتك تكشف لك حقيقة وضعك لأن المتكلمين باللاهوت قد سلموا ان صلاة الراهب هي مرآته .

٣٥ ــ من يواصل عملا يقوم به عندما يحين وقت الصلاة تخدعه الشياطين لأن غاية اولئك اللصوص هي ان يسرقوا منا ساعة بعد اخرى .

٣٦ ــ لا ترد من يسألك ان تصلي من اجل احد وان كنت لم تقتن موهبة الصلاة ، لأن ايمان السائل كثيرا ما اسعف المصلي بانسحاق .

٣٧ ــ متى صليت من اجل آخر وسمعت صلاتك لا تترفع ، فان ايمان ذاك قد فعل وايد صلاتك .

٣٨ ــ كما ان كل صبي يسأل بدقة عما تعلمه كل يوم من معلمه كذلك من العدل ان يطالب كل عقل بعد كل صلاة بالقوة التي نالها من الله . ولذا فللنتبه للأمر . لأننا متى صلينا بوعي ويقظة حوربنا بتحرك الغيظ فينا بالاكثر بفعل اعدائنا .

٣٩ ــ لنمارس دائما كل الفضائل بحس كثير لا سيما الصلاة . ان النفس تصلي بحس متى تغلبت على الغضب .

٤٠ ــ ان المحامد التي نحصل عليها بصلاة كثيرة وخلال زمن طويل تدوم وتثبت .

٤١ ــ من اقتنى الرب لا يعود يحدد لذاته موضوع صلاته ، لأن الروح فيه حينذاك يصلي عنه بأنات لا توصف (١١) .

٤٢ ــ لا تقبل في صلاتك اي تصور حسي لئلا يصيب عقلك زيغان .

٤٣ ــ ان اليقين باستجابة الله لسؤالنا يحصل لنا في الصلاة . واليقين هو زوال الحيرة والارتياب ، بل هو بداهة ما لا يوضح بالبرهان .

---

(١٠) انظر لو ١٨ : ١ ــ ٧ .

(١١) رو ٨ : ٢٦ .

http://coptic-treasures.com

٤٤ ــ كن رحوما جدا ان كنت مهتما باستجابة صلاتك فانه فيها ينال الرهبان المائة ضعف في هذا الدهر والحياة الابدية في الدهر الآتي .

٤٥ ــ اذا اقامت النار في قلبنا اذكت صلاتنا ، ومتى ذكت صلاتنا وارتفعت الى السماء احدرت نار العنصرة واحلتها فينا .

٤٦ ــ يقول البعض ان الصلاة افضل من ذكر الموت ، اما انا فأسبح جوهرين في اقنوم واحد .

٤٧ ــ ان الفرس الاصيلة تجود في جريها وتزداد اندفاعا . اما الجري فهو التسبيح واما الفرس فهو العقل الشجاع ، فانه يستنشق رائحة الحرب من بعيد فيستعد لها ويلبث صامدا ولا ينهزم .

٤٨ ــ صعب هو انتزاع الماء من فم العطشان ، واصعب منه ان تقطع عن صلاتها النفس التائبة المتوجعة قبل ان تنهي مناجاتها لله .

٤٩ ــ لا تنه صلاتك قبل ان ترى لهيب التوبة وماء الدموع قد انقطعا عنك من عند الله ، فلعلك لا تصادف في كل حياتك وقتا موافقا كهذا لغفران خطاياك .

٥٠ ــ من ذاق الصلاة يدنس عقله في احيان كثيرة اذا قال كلمة طائشة ثم متى وقف يصلي لا يعود يجد مبتغاه كعادته .

٥١ ــ ان مراقبة القلب باستمرار غير مراقبته بواسطة العقل كسيد ورئيس كهنة يقرب ضحايا عقلية للمسيح . فان النار المقدسة السماوية كما قال احد « المتكلمين باللاهوت » (١٢) ، تحرق بانحدارها الذين يمارسون الطريقة الاولى وذلك لنقصان نقاوتهم بينما تنير ممارسي الطريقة الثانية بمقدار كمالهم . لأن هذه النار عينها تسمى نارا محرقة ونورا منيرا . ولهذا تكون حال البعض عند خروجهم من صلاتهم حال الخارجين من اتون نار وقد ازيلت عنهم اوساخهم ، وحال غيرهم حال من يخرجون من نور ، متألقين ومتسربلين حلة التواضع والفرح . لأن الخارجين من صلاتهم دون اختبار احدى هاتين الحالتين قد صلوا جسدانيا ان لم اقل يهوديا ، ولم يصلوا صلاة روحانية .

٥٢ ــ ان كانت بعض الاجسام تتفاعل مع اجسام اخرى اذا لامستها فتتغير ، فكيف اذن لا يتغير من يلامس جسد الله بيدين نقيتين ؟ (١٣) .

٥٣ ــ اننا نرى ان ملكنا الكلي الصلاح يمنحنا مواهبه على نحو ما يوزع الملك الارضي عطاياه لجنوده ، تارة بذاته وتارة بيد صديق وتارة اخرى بواسطة عبد ، وربما وهبها لهم بطريقة خفية . ولكن عطاءه يكون دائما بمقدار التواضع الذي نتشح به .

٥٤ ــ كما ان الملك الارضي يمقت من يكون قائما بحضرته ويحول وجهه عنه ليخاطب اعداء سيده ، هكذا يمقت الرب من يكون واقفا في صلاته وهو يتقبل افكارا نجسة .

٥٥ ــ اذا وافاك هذا الشيطان فاطرده كما تطرد كلبا ولا تتساهل معه البتة مهما بلغت وقاحته .

٥٦ ــ اسأل بدموع ، اطلب بطاعة ، اقرع بصبر ، « فان من يسأل بالدموع يأخذ ومن يطلب بالطاعة يجد ومن يقرع بالصبر يفتح له » (١٤) .

---

(١٢) القديس غريغوريوس النزينزي .

(١٣) يقصد المناولة .

(١٤) متى ٧ : ٨ .

http://coptic-treasures.com

٥٧ ــ احترس ولا تسرف في الابتهال من اجل انثى في صلاتك لئلا تجـرد من سلاحك من الجانب الايمن (١٥) .

٥٨ ــ لا تعمد الى حسف خطاياك الجسدية تفصيلا في صـلاتك الى الله لئلا تنصب فخا لذاتك .

٥٩ ــ لا تجعل وقت الصلاة وقتا لامعان النظر في اعتبارات روحية ولو ضرورية والا فتخسر النصيب الصالح (١٦) .

٦٠ ــ من يمسك على المدوام بعكاز الصلاة لن يعثر ، وان عثر فلن يسقط كليا ، لأن الصلاه هي اغتصاب لله كريم لديه تعالى (١٧) .

٦١ ــ نستدل على منفعه الصلاه من اتفاق الشياطين على اثارة العوائق لنـا في اوقات الصلاه النظاميه ، ونستدل على مفعولها من انهزام العدو عنـا . « فاني بهذا علمت انك رضيت عني ان عدوي لن يشمت بي » (١٨) في وقـت القتـال . «صرخت بكل قلبي » يقول المرنم (١٩) ، اي من اعماق الجسد والنفس والـروح . لأنه « حيث اجتمع الاثنان الاخيران فهناك يحون الله في وسطهما » (٢٠) .

٦٢ ــ ليست كل سجايا الجسد كما ليست كل سجايا الروح متشابهة عند كل الناس ، فان الاسراع في التسبيح (٢١) يوافق البعض بينما يوامق التباطـؤ البعض الآخر . اذ يقول الاوبون انهم يقتلون تشتت الذهن والاخرون بطء الفهم .

٦٣ ــ اذا كنت تسأل الملك دون انقطاع ان ينصرك على اعدائك تشجـع متى اقبلوا عليك . فانك لن تتعب كثيرا لأنهم سينصرفون عنك سريعا من تلقاء انفسهم . فهؤلاء الانجاس لا يريدون ان يشاهدوك فائزا مكللا من جراء مجاهدتك لهم بصلاتك . فضلا عن انهم سيهربون من صلاتك لأنها تجلدهم كما بنار .

٦٤ ــ كن مقداما كل الاقدام فيعلمك الله الصلاة . كما اننا لا نستطيع ان نتعلم النظر بواسطة الكلام لأن امر النظر يعود للطبيعة كذلك لا نستطيـع ادراك جمـال الصلاة بتعليم الآخرين . فان للصلاة معلمها الخاص هو الله الـذي يعلم الانسـان العلم (٢٢) ، ويعطي الصلاة للمصلي ، ويبارك اعوام الصديقين آمين (٢٣) .

هذه درجة ثامنة وعشرون من ارتقى اليها فقد قرب من اللاهوى .

---

(١٥) على اعتبار ان الجانب الايمن غير محمي بالترس .
(١٦) انظر لو ١٠ : ٤٢ .
(١٧) لو ١٨ : ٥ .
(١٨) مز ٤٠ : ١٢ .
(١٩) مز ١١٨ : ١٤٥ .
(٢٠) متى ١٨ : ٢٠ .
(٢١) في الاصل ترنيم المزامير .
(٢٢) مزمور ٩٣ : ١٠ .
(٢٣) ١ ملوك ٢ : ٩ .

http://coptic-treasures.com

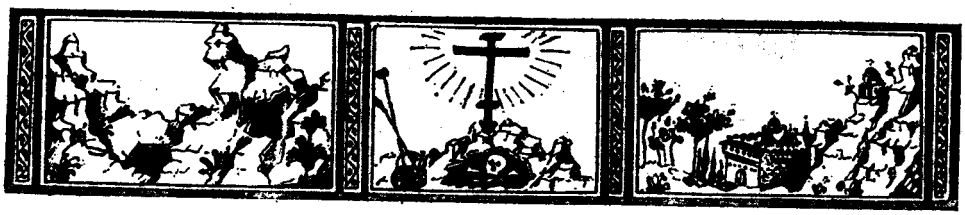

المقالة التاسعة والعشرون

في اللاهوى وهو الكمال المتشبه بالله ، السماء الارضية ؛ وقيامة النفس قبل القيامة العامة

١ ــ ها نحن الطريحين في هوة الجهل العميقة ، في ظلمة اهوائنا وظل موت جسدنا الفاسد ، نتجاسر فنتكلم عن السماء الارضية .

٢ ــ جمال السماء الكواكب ، وزينة اللاهوى الفضائل ، لأني ارى ان اللاهوى ليس الا سماء عقلية في القلب ؛ نغدو معها نحسب مكايد الشياطين العابا .

٣ ــ يحسب في اللاهوى اذا ، ويكون فيه حقا من حرر جسده من الفساد ، ورفع عقله فوق الخلائق ، واخضع له كل حواسه ، واوقف نفسه في حضرة ربه تمتد اليه تعالى دائما بما يزيد عن قوتها .

٤ ــ يحدد البعض اللاهوى بأنه قيامة النفس قبل قيامة الجسد ، ويحدده غيرهم بأنه معرفة كاملة لله ، تلي معرفة الملائكة .

٥ ــ ان كمال الكاملين هذا الذي هو في آن واحد كامل وغير كامل (اذ لا يفتأ ينمو الى ما لا نهاية كما وصفه لي شخص قد ذاقه) يقدس العقل ويفصله عن الماديات حتى ان المرء ، بعد ارتقائه الى ميناء سماوي ، غالبا ما يخطف في الجسد الى الثيوريا (١) وكأنه في السماء . وقد قال فيه من اختبره : « ان اعزاء الله قد تعالوا في الارض جدا » (٢) . وعرفنا احد المتوحدين المصريين متصفا بذلك ، وهو الذي لم يكن يترك يديه مرفوعتين مدة طويلة في صلاته مع الآخرين ، خوفا من ان يخطف عقله في حضرتهم .

٦ ــ من الكاملين من تحرر من اهوائه ، ومنهم من سما على هذه المرتبة . فالاول يمقت الشر مقتا شديدا ، والثاني يشتهي ان يستغني بالفضائل دون شبع .

---

(١) التأمل العقلي ومعاينة الاسرار الالهية .

(٢) مز ٤٦ : ١٠ .

http://coptic-treasures.com

٧ ــ العفة هي الاخرى تدعى بحق لا هوى ، لأنها مقدمة القيامة العامة وبداية عدم الفساد لمن كانوا فاسدين .

٨ ــ لقد اظهر انعتاقه من اهوائه من قال : « ان لي فكر الرب » (٣) . واظهره ايضا المصري الكبير (٤) القائل انه لا يخاف الرب ، وكذلك من ابتهل الى الله ان يرجع اليه اهواءه (٥) . ولكن هل اهل احد للاهوى قبل المجد المنتظر مثلما اهل له السرياني ؟ (٦) لأن داود الذائع الصيت في الانبياء قال للرب : « تغاض عني لكي استريح » (٧) ، اما ذاك المجاهد فقال له : « سكن عني امواج نعمتك » .

٩ ــ تبلغ النفس الى اللاهوى عندما تترسخ في الفضائل ترسخ الفاسقين في اللذات .

١٠ ــ ان كان منتهى الشراهة ان يغصب المرء نفسه ويتناول المزيد من الطعام وهو غير جائع فان منتهى الامساك ان يقهر المرء طبيعته ويمتنع عن الطعام وهو جائع . وان كانت ذروة الشبق ان يهتاج الانسان من شهوته للحيوانات غير الناطقة وللخلائق العادمة النفس فان ذروة العفة ان لا يهتاج الانسان لأي شخص كان ، كعدم اهتياجه للخلائق العادمة النفس . وان كان منتهى حب المال ان لا يشبع المرء ولا يكف عن جمعه فان منتهى الزهد في المقتنيات ان لا يشفق الانسان حتى على جسده . وان كان تمام الضجر ان يكون المرء في راحة كاملة وينفد صبره فان تمام الصبر ان يكون المرء في شدة ويحسبها راحة . وان كانت لجة الغيظ ان يغضب الانسان وهو على انفراد فان لجة طول الاناة ان يكون الانسان ساكنا هادئا في غياب ثالبه كما في حضوره . وان كان اوج العجب ان يتلذذ المرء وهو وحده بمدائح وهمية لا يوجهها اليه احد فمن الجلي ان اوج الانعتاق من العجب ان لا يحس بأي فخر في حضور من يمدحه . وان كانت علامة الكبرياء ، الذي هو هلاك النفس ، ان يتشامخ الانسان وهو في وضع بائس حقير فان دلالة الاتضاع ، الذي هو خلاص النفس ، ان يكون فكره ذليلا متواضعا في وسط اعمال سامية قد فوضت اليه ومناقب عالية قد احكمها . وان كانت دلالة العبودية الكاملة للأهواء ان يذعن المرء سريعا لكافة الهواجس التي تزرعها الشياطين فيه فاني اعتقد ان احدى علامات اللاهوى ان يستطيع المرء القول بصدق : « عند انصراف الشرير عني لم اكن ابالي » (٨) ولا علمت كيف جاء ولا لماذا جاء ولا كيف ذهب ، لكنني فاقد الاحساس كليا بهذه العوارض وامثالها كوني على الدوام متحدا بالهي بجملتي .

١١ ــ من قد اهل لهذه الحالة الجليلة وهو بعد في جسده فقد احتوى الله ساكنا فيه على الدوام ، ومدبرا له في كافة اقواله وافعاله وافكاره . وهو من خلال استنارته الداخلية يدرك مشيئة ربه كصوت في داخله ويسمو على كل تعليم بشري ويقول : « متى اجيء واظهر قدام الله ؟ » (٩) ، لأني لا استطيع بعد صبرا على اضطرام شوقي ، واحن الى الجمال الذي اعطيتني قبل ان استبدله بحمأة جسدي .

---

(٣) اكور ٢ : ١٦ و ٧ : ٤٠ .
(٤) انطونيوس الكبير .
(٥) القديس يوحنا كولوبوس .
(٦) افرام السرياني .
(٧) مز ٣٨ : ١٤ .
(٨) مز ١٠٠ : ٤ .
(٩) مز ٤١ : ٣ .

http://coptic-treasures.com

١٢ — وما حاجتي الى المزيد من الكلام ؟ فان المتحرر من الاهواء ليس هو حيا بعد بل المسيح يحيا فيه (١٠) ، كما قال ذاك الذي جاهد الجهاد الحسن واتم السعي وحفظ الايمان (١١) .

١٣ — كما ان تاج الملك لا يتركب من جوهرة واحدة كذلك اللاهوى لا يتركب من فضيلة واحدة بل من كل الفضائل .

١٤ — تصور ان اللاهوى هو قصر الملك السماوي في السموات ، وان درجاته الكثيرة هي المنازل (١٢) القائمة داخل القصر ، وان السور الذي يحيط به كما بأورشليم السموية هو غفران الخطايا . فلنسع اذا يا اخوتي ولنجر مسرعين لكي نحظى بالدخول الى الخدر الملكي . وان اعاقنا عن ذلك ثقل عيوبنا السالفة ، او ضيق الزمان ، (ويا لمصيبتنا !) فلنحاول ان نشتغل على الاقل احد المنازل حول الخدر ، وان توانينا وعجزنا عن ذلك فلنحرص ان نكون على كل حال داخل السور . لأن من لا يدخل السور ، بل من لا يتسلقه ، قبل مماته ، سوف يقيم في وحشة القفر حيث الشياطين والاهواء . ولذا فقد ابتهل داود قائلا : « بالهي اقفز من فوق الاسوار » (١٣) ، وقال اشعياء بلسان الله : « اليست خطاياكم هي التي فصلت بيني وبينكم ؟ » (١٤) فينبغي يا احبائي ان ننقض السياج الذي ابتنيناه بمعصيتنا لكي نحظى بغفران خطايانا لأنه ليس في الجحيم من يقدر على محو ديوننا ، فلنثبت اذا في الجهاد منتمين للأجناد الروحية . اننا لن نستطيع ان نجد عذرا ، لا عن سقطة ، ولا عن اضاعة وقت ، وليس من سبيل للاحتجاج بثقل الوصايا لأن جميع الذين لبسوا المسيح بحميم المعمودية قد اعطاهم الرب سلطانا ان يصيروا اولاد الله (١٥) ، قائلا لهم كفوا واعلموا اني انا هو الله (١٦) مزيل اهوائكم ، له المجد الى ابد الدهور آمين .

هذه درجة تاسعة وعشرون في اللاهوى المغبوط الذي ينهض العقل الفقير من الارض الى السماء ويقيم المسكين من مزبلة الاهواء ، ولكن المحبة الفائقة المديح تجلسه مع الرؤساء ، رؤساء الملائكة ورؤساء شعب الله (١٧) .

(١٠) غلا ٢ : ٢٠ .
(١١) ٢ تي ٤ : ٧ .
(١٢) يو ١٤ : ٢٠ .
(١٣) مز ١٧ : ٢٩ .
(١٤) اش ٥٩ : ٢ .
(١٥) يو ١ : ١٢ .
(١٦) مز ٤٥ : ١١ .
(١٧) مز ١١٢ : ٧ — ٨ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com

المقالة الثلاثون

في رباط الثالوث الفريد بين الفضائل ، اعني المحبة والرجاء والايمان

١ ــ واخيرا ، بعد كل ما قلناه ، يبقى ان نتكلم عن الفضائل الثلاث التي هي رباط سائر الفضائل تضمها بعضا الى بعض وتضبطها ، وهي الايمان والرجاء والمحبة ، واعظمهن المحبة (١) ، لأن الله يسمى محبة (٢) .

٢ ــ ويلوح لي اني ابصر الايمان شعاعا والرجاء نورا والمحبة دائرة ، وان للثلاثة بهاء واحدا واشراقا واحدا .

٣ ــ فالايمان يستطيع ان يعمل ويبدع كل شيء ، والرجاء تحوطه رحمة الله وتمنع عنه الخزي ، والمحبة لا تسقط ولا تقف في سعيها ولا تتيح الاستراحة للمجروح الولهان بها .

٤ ــ من يعتزم ان يتكلم عن المحبة الالهية يعتزم في الحقيقة ان يتكلم عن الله ، والاسهاب في الكلام عن الله بدون احتراس خطر ويفضي الى العطب .

٥ ــ الكلام عن المحبة مألوف عند الملائكة ، ولكن على قدر استنارتهم فقط .

٦ ــ الله محبة ومن يريد ان يفسر هذا القول يكون بمثابة اعمى يحصي رمل البحر .

٧ ــ المحبة من حيث كيفيتها هي تشبه بالله على قدر ما يتيسر هذا للبشر ، ومن حيث مفعولها نشوة للنفس ، ومن حيث خاصيتها نبع ايمان ولجة صبر وبحر تواضع .

٨ ــ المحبة نبذ لكل مناقضة ، لأنها لا تظن السوء (٣) .

٩ ــ ان المحبة وحالة اللاهوى والبنوة لا تتميز فيما بينها الا بالاسم فقط . كما يجتمع النور والنار واللهب لتأليف فعل واحد كذلك تفعل تلك .

١٠ ــ بمقدار نقصان المحبة ينشأ الخوف ، لأن الخالي من الخوف يكون ممتلئا

---

(١) اكو ١٢ : ١٣ .

(٢) ايو ٤ : ٨ و ١٦ .

(٣) اكو ١٣ : ٥ .

http://coptic-treasures.com

من المحبة او تكون نفسه مائتة .

١١ ــ ليس من العيب ان نشبه بتشابيه بشرية ما في علاقتنا مع الله من شوق وخوف وحرص وغيرة وخدمة وعشق . فمغبوط من كان حبه لله كعشق المغروم الهائم بمعشوقه . ومغبوط من يخاف الرب كما يخاف الملاحقون القاضي . مغبوط من صارت امانته للسيد كأمانة العبد الامين المتأهب على الدوام لخدمة سيده . مغبوط من اضحت غيرته في الفضيلة كغيرة الازواج الغيورين على زوجاتهم . مغبوط من يقف في الصلاة امام الله وقوف الخدم امام الملك . مغبوط من يجتهد ان يرضي الله على الدوام كما يجتهد الآخرون ان يرضوا الناس .

١٢ ــ لا تلتصق الأم برضيعها كما يلتصق ابن المحبة بالرب .

١٣ ــ العاشق الحقيقي يتصور وجه حبيبه على الدوام ويعانقه في قلبه بنشوة ولا يستطيع حتى في نومه ان يسكن اشتياقه اليه لكنه يواصل في رقاده حديثه اليه . فعلى منوال هذا الحب الجسدي يكون الحب اللاجسدي . وقد انجرح بسهمه احدهم فقال عن نفسه (ويا للعجب !) : « انا نائم » لحاجة الطبيعة « لكن قلبي مستيقظ » (٤) لكثرة حبي .

١٤ ــ لاحظ ايها المتعجب انه بعد ان يقتل الأيل الافاعي (٥) تشتاق النفس وتتوق الى الرب (٦) وقد جرحها لهيب الحب وكأنه طعنة سهم .

١٥ ــ لا يتبين الجوع بوضوح للناظرين ولا يستدل عليه ، اما الظمأ فشديد الوطأة سافر ، يدل الجميع على لهيبه . ولذا قال التائق الى الله : « ظمئت نفسي الى الاله الحي » (٧) .

١٦ ــ ان كان وجه حبيبنا يغيرنا بجملتنا جليا ويجعلنا مشرقين فرحين فاقدي الحزن فكيف بوجه السيد اذا اتى الى نفس طاهرة وسكن فيها بحال غير منظور ؟

١٧ ــ الخوف من كل القلب يذيب الوسخ ويزيله وقد قيل : « سمر جسدي بخوفك » (٨) . اما المحبة المقدسة فتسلب قلوب البعض احيانا حسب قول القائل : « لقد خلبت قلوبنا لقد خلبت قلوبنا » (٩) ، وتبهج غيرهم احيانا اخرى ، لأنه قيل : « به استجار قلبي فأجارني لذلك ارتاح جسدي » (١٠) وقيل ايضا « القلب الفرح يبهج الوجه » (١١) . فاذا اتحد الانسان بحب الله كليا (على نحو ما) بدا حينئذ بهاء نفسه في جسده كأنه في مرآة . هكذا مجد (بتشديد الجيم وضم الميم) موسى معاين الله (١٢) .

١٨ ــ والذين وصلوا الى هذه الحالة الملائكية كثيرا ما ينسون طعام الجسد ، وفي ظني انهم غالبا ما لا يشتهونه على الاطلاق ، ولا عجب في ذلك اذ كثيرا ما صدت شهوة (بفتح التاء) الطعام شهوة اخرى مضادة .

١٩ ــ ويبدو لي ايضا ان جسد اولئك الاطهار قد اصبح غير معرض للامراض

---

(٤) نشيد الانشاد ٥ : ٢ .
(٥) الأيل هي النفس والافاعي الاهواء .
(٦) مز ٤٢ : ٢ .
(٧) مز ٤١ : ٣ .
(٨) مز ١١٨ : ١٢٠ .
(٩) نشيد الانشاد ٤ : ٩ .
(١٠) مز ٢٧ : ٧ .
(١١) امثال ١٥ : ١٣ .
(١٢) انظر خروج ٣٤ و ٢ كو ٣ : ١٤ .

http://coptic-treasures.com

كونه صار عديم الفساد ، اذ انهم تنقوا بلهيب الطهارة فاطفأوا به لهيب الجسد . كما اعتقد انهم يتناولون طعامهم بدون تلذذ ، لانه كما ان الماء الجاري تحت سطح الارض يغذي اصول النبات كذلك تغذي النار السماوية نفوسهم .

٢٠ — تكاثر الخوف ابتداء المحبة ، وكمال الطهارة اساس معرفة الله .

٢١ — من اتحد بالله يلقنه الله اسرار اقواله . وبدون هذا الاتحاد يعسر التكلم عنه تعالى .

٢٢ — الكلمة المساوي للآب في الجوهر يأتي بنا الى كمال الطهارة ، وحضوره فينا يميت الموت ، واذا اميت الموت استنار طالب المعرفة الالهية .

٢٣ — ان كلمة الرب الصادرة من الله الآب طاهرة وثابتة الى ابد الآبدين . اما من لم يعرف الله فيكون كلامه عنه من قبيل التخمين .

٢٤ — الطهارة تفقه الانسان في اللاهوت فيتيقن بنفسه عقيدة الثالوث .

٢٥ — من يحب الرب فقد سبق واحب اخاه ، لأن الحب الثاني علامة الاول .

٢٦ — من يحب قريبه لا يحتمل البتة الذين يعيبونه بل يهرب منهم هربه من النار .

٢٧ — من يقول انه يحب الرب ويغضب على اخيه هو كمن يركض في نومه .

٢٨ — قوة المحبة في الرجاء ، لاننا بالرجاء نتوقع اجر المحبة .

٢٩ — الرجاء ثروة خفية ، الرجاء كنز مضمون مؤمن (بتشديد الميم وفتحها) قبل اكتنازه .

٣٠ — الرجاء نهاية الاتعاب وباب المحبة وبطلان اليأس وصورة النعم المنتظرة.

٣١ — نقصان الرجاء يلاشي المحبة ، بالرجاء تنحصر الاتعاب ، به تضمحل المشقات ، والرحمة تحوطه .

٣٢ — الراهب الحسن الرجاء يقتني سيفا يطرد به الضجر ويقتله .

٣٣ — تذوق مواهب الرب يولد الرجاء ، ومن لم يختبرها يلازمه الارتياب .

٣٤ — الغضب يقصي الرجاء ، لان الرجاء لا يخزى (١٣) ، بينما الرجل الغضوب يخيب .

٣٥ — المحبة ترزق النبوة وتصنع العجائب ، المحبة لجة اشراق ، المحبة ينبوع نار بقدر ما يفيض يلهب العطشان . المحبة حال الملائكة ، المحبة اقبال الدهر الآتي .

٣٦ — اخبرينا ايتها الجميلة في الفضائل اين ترعين غنمك ؟ اين تربضين عند الظهيرة (١٤) ؟ انيرينا ، اروينا ، ارشدينا لاقتادينا بيدك ما دمنا نبتغي ان نصعد اليك . لانك تسودين كل البرايا . والآن فقد جرحت نفسي ولا اقوى على ضبط لهيبك . ولذلك سأجري مسبحا اياك . « انت تسودين قوة البحر وتهدئين امواجه عند التطامها وتلاشيها ، انت اذللت المستكبر كالقتيل ، انت بددت اعداءك بذراع قدرتك » (١٥) وجعلت عاشقيك غير منهزمين .

اني اتشوق ان اعرف كيف ركاك يعقوب مثبتة على السلم الصاعدة الى السماء ، اتشوق فاخبريني ما هو نهج ذلك الصعود ، وكيف تجمع وتركب تلك الدرجات التي جعلها عاشقك بمثابة مصاعد في قلبه (١٦) ؟ اني متعطش لمعرفة كم هو عددها وكم

---

(١٣) رو ٥ : ٥ .

(١٤) نشيد الانشاد ١ : ٦ .

(١٥) مز ٨٨ : ٩ — ١٠ .

(١٦) مز ٨٣ : ٤ .

http://coptic-treasures.com

يستغرق صعودها من الزمن ، لأن العارف بذلك الصراع وتلك الرؤيا (١٧) قد خبرنا عن المرشدين الى الصعود (١٨) ، ولكنه لم يشأ وبالاحرى لم يستطع ان يفيدنا اكثر . فقالت لي تلك الملكة (بل ذلك الملك) بعد ان تراءت لي كأنها من السماء ، وهمست في اذن نفسي : يا عاشقي ، ان لم تنزع عنك كثافة الجسد لا تقدر ان تعرف يومي . فلتعلمك تلك السلم ترتيب الفضائل ، واني كائنة في اعلاها حسبما قال العالم بأسراري : « الذي يثبت الآن هو الايمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة واعظمهن المحبة » (١٩) .

كلمة تشجيع ختامية تجمل كل ما قيل .

اصعدوا ايها الاخوة اصعدوا ، ضعوا في قلوبكم مصاعد (٢٠) باجتهاد واسمعوا للقائل : « هلم نصعد الى جبل الرب والى بيت الهنا » (٢١) ، « الذي يثبت اقدامنا كالايائل ويقيمنا على المشارف » (٢٢) ، لكي نغلب في طريقه .

فاني اتوسل اليكم ان تركضوا مع من قال : « لنجد في السير الى ان ننتهي جميعنا الى وحدة الايمان ومعرفة ابن الله ، الى انسان كامل ، الى قياس قامة ملء المسيح (٢٣) الذي لما اعتمد في الثلاثين من عمره على الارض اكمل الدرجة الثلاثين من السلم العقلية ، ما دامت المحبة هي الله مصدر كل الصالحات ، له السبح والعزة والقوة الآن ومنذ الازل والى ابد الدهور آمين .

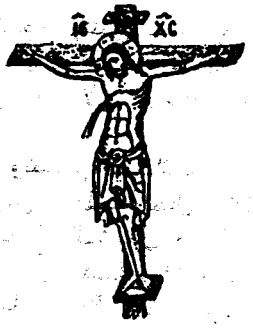

(١٧) هو يعقوب .
(١٨) الملائكة الصاعدين والنازلين على السلم .
(١٩) اكو ١٣ : ١٣ .
(٢٠) مز ٨٣ : ٦ .
(٢١) اشعيا ٢ : ٣ .
(٢٢) مز ١٧ : ٣٤ .
(٢٣) افسس ٤ : ١٣ .

http://coptic-treasures.com

http://coptic-treasures.com